أردنا بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد من أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلى واقع ملموس.

وإيمانا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشتغلين بالدراسات العربية من الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنه بات علينا أن نستغل معطيات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقاة الفكر والقلم من العرب والإسبان المدونة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعماق من الإبداع والدرس والبحث في ثمار واحدة من أهم الحضارات التي ورثتها البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضم في ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عاما، يرنو إلى أن يكون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثراء هذا الكنز المعرفي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي في هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اغتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميق امتناننا، وجزيل شكرنا لكل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد علي

المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

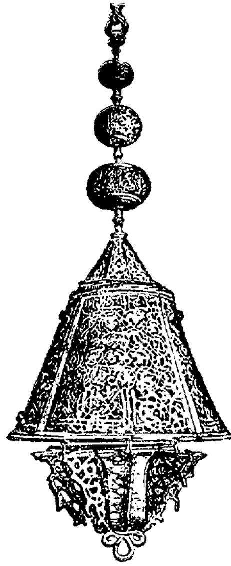
مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

- مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

جمهورية مصر العربيـة — وزارة التعليم العــالى

مجلة المعهد المصرى

للدراسات الإسلامية فى مدريد



المجلد السابع عشر — مدريد ١٩٧٢ — ١٩٧٣

جمهورية مصر العربيـــة – وزارة التعليم العـــالى

مجلة المعهد المصري

للدراسات الإسلامية في مدريد

يصدرها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد
رئيس التحرير : مدير المعهد

المجلد السابع عشر — مدريد ١٩٧٢ – ١٩٧٣

العنوان : Francisco de Asís Méndez Casariego, 1. — Madrid - 2 - (España)

فهرس القسم العربي

طبعت بمطبعة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد
١٩٧٢ - ١٩٧٣

كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب

تصدير

هذا كتاب « تحفة المغترب ببلاد المغرب » أنشره لأول مرة ، ولا أعتقد أن أحداً أشار إليه من قبل . وهو نسخة فريدة ضمن مجموعة من الموضوعات المتنوعة التي يتضمنها المخطوط رقم ٣٤٨٦ في المكتبة الوطنية بباريس . وكتابنا هذا يحتل الورقات ١٤٣ — ١٩٧ من هذا المخطوط السالف الذكر .

ولقد أورد كارل بروكلمان في تاريخه للأدب العربي عنوان الكتاب فقط واسم مؤلفه الذي يسميه أحمد بن إبراهيم الأزدي الفشتالي وذلك في ضميمة جمع فيها تلك المؤلفات التي لم يكن يعرف شيئاً عن أسماء مؤلفيها أو الحقبة التي عاشوا فيها . وقد ورد هذا في الفقرة الأولى الخاصة بالشعر (Poesie) ولهذا اعتبر هذا الكتاب كما لو كان عملا شعرياً ! ! وإن كنت أجهل الدوافع التي أدت إلى اعتقاد بروكلمان أن هذا الكتاب يعالج قصيدة شعرية في مدح الشيخ العارف بالله أبي مروان ! ! [Lobgedichte auf den Heiligen a. Marwān[1]] .

أما الأستاذ جورج فايدا ، فإنه في فهرسه للمخطوطات العربية للمكتبة الوطنية بباريس ، يذكر اسم مؤلف « التحفة » كما أورده بروكلمان ، ولكنه يتردد في قراءة نسبته الأخيرة بين القشتالي والفلالي ، كما أنه يعتبر الكتاب موضوعاً في التاريخ[2] .

---

(١) C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur,* Zweiter Suplementband, Leiden 1938, p. 898, n.° 13.

(٢) G. Vajda, *Index général des manuscrits arabes musulmans de la Bibliothèque Nationale de Paris,* París 1953, p. 691.

والواقع أن اسم المؤلف يظهر بوضوح مرتين فى نفس المخطوط (ورقة ١٤٣ و — ١٤٤ و) وبصورة كاملة على النحو التالى :

أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدى القشتالى ، نسبة إلى قشتال التى قد تكون بلدة Castril فى ولاية غرناطة . أما كنيته التى ترد مراراً فهى أبو العباس . أما عنوان الكتاب ، فقد ورد كاملا فى الورقة ١٤٣و كالآتى :

« تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان فى كرامات الشيخ أبى مروان [1] » . وهكذا نجد أن كلا من بروكلمان وفايدا ، لم يعط أية معلومات عن الكتاب أو مؤلفه أو حتى عن الشخصية التى دار حولها موضوع هذا الكتاب ، مع أننا نجد إشارة وافية عن هذه الشخصية الأخيرة أوردها العالم الجزائري أبو العباس أحمد المقرى التلمسانى فى كتابه « نفح الطيب » فى معرض كلامه عن الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق ، يقول :

« ومن الراحلين ، الولى الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسى وهو ابن أخت صاحب الصلاة البجانسى [2] نسبة إلى بجانس [3] قرية

---

(١) عنوان الكتاب واسم مؤلفه وصيغ الابتهالات التى أنقلها فى بداية الكتاب (صفحة ١٥) تشغل خمسة أسطر فى أعلى الورقة المذكورة التى كانت تشكل غلاف الكتاب . أما بقية الصفحة التى كانت بياضاً فى الاصل فقد ملئت بعد ذلك وبخط مختلف بقصة المعتمد بن عباد ملك إشبيلية فى منفاه بأغمات وبالأبيات السبع الأولى من قصيدته المعروفة التى مطلعها :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد فى أغمات مأسورا

انظر : ديوان المعتمد بن عباد ، جمع وتحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥١ ، ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) كذا .

(٣) كذا ، وفى جميع النسخ المنشورة لكتاب « نفح الطيب » وردت الكلمتان على شكل بجانس والبجانسى . أما فى كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الإدريسى ترد هذه البلدة تارة فى صيغة البجانس وتارة أخرى البنجاس . انظر : *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrîsî,* ed. y trad. R. Dozy y M. J. De Goeje, Leiden, 1866, pp. 198 / trad. 241 (al-Badjânis).

وفى كتاب «درة الحجال فى غرة أسماء الرجال» لأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضى يرد اسم هذه البلدة بصيغة بجانيس (طبعة علوش ، الرباط ١٩٣٤ — ١٩٣٦ ج ١ ص ١٨٩) وإن كان فى فهرس هذا الكتاب (ج ٢ ص ٦١٦) قد جعل هذا الاسم على شكل يحانيس (كذا) .

من قرى وادى آش ، وكان رحمه الله أواسط المـائة السابعة وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيي الأزدى القشتالى فى تأليفه الذى سمـاه تحفة المغرب[١] ببلاد المغرب[٢] » .

ويضيف المقرى بعد ذلك فقرات اقتبسها من التحفة ، وردت كلها فى مخطوطة باريس ، وقد أشرنا إلى ذلك فى هذا النص المنشور .

ورواية المقرى هذه لم يشر إليها بروكلمان وفايدا وبقية المستشرقين الذين تناولوا بطريقة غير مباشرة شخصية الشيخ أبى مروان . على الرغم من ظهور اسم الكتاب ومؤلفه واسم الشيخ أبى مروان فى الفهارس التى عملت لـ « نفح الطيب » فى طبعة ليدن .

* * *

والواقع أن كتاب « تحفة المغترب » يدور موضوعه حول كرامات الشيخ الأندلسى أبى مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسى اليحانسى — نسبة إلى بلدة يحانس Ohanes الحالية فى ولاية المرية — وكلمة يحانس والنسبة إليها يحانسى تظهران فى بعض المصادر المغربية فى أشكال مختلفة .

وإلى جانب نص « نفح الطيب » السالف الذكر ، لم نجد أية معلومات عن الكتاب ولا عن مؤلفه ولكن المؤلف فى تحفته يزودنا بمعلومات وافيـة عن نفسه حين يتكلم عن الشيخ أبى مروان اليحانسى حيث أنه كان تلميذه المخلص ورفيقـه فى أسفاره ورحلاته بالأندلس لسنوات طويلة ، هذا إلى جانب صلة النسب والقربى التى كانت تربطه به ، إذ كان المؤلف أزدياً مثـل الشيخ أبى مروان ومتزوجاً بنت عمه أيضاً .

والواقع أن شخصية الشيخ أبي مروان لم تكن مجهولة تماماً ، ولكن أحداً لم يحـاول جمع ومقابلة النصوص المبعثرة عنه . ويمكن القول إن أوفى المعلومات

---

(١) كذا ، بدلا من المغترب .

(٢) انظر نفح الطيب ، طبعة ليدن ، ١٨٥٥ — ١٨٧١ . (= *Analectes sur l'Histoire et la littérature des Arabes d'Espagne,* par al-Makkari, publiés par MM. R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright), I, 933. والنص المنقول من كتاب « التحفة » ينتهى فى صفحة ٩٣٤ .

التى وردت عنه — إلى جانب الكتاب الذى نقوم بنشره الآن بطبيعة الحال — هي التى نجدها فى كتاب « المقصد الشريف » لعبد الحق البادسى الذى للأسف لم ينشر إلى الآن وإن كانت توجد له ترجمة مع دراسة قيمة للعالم الفرنسى جورج كولان . وكتاب البادسى ، كما هو معروف ، يتناول تراجم صلحاء الريف . ومن الطريف أنه يتضمن أيضاً ترجمة شيخنا أبى مروان اليحانسى الذى يعتبر بذلك الأندلسى الوحيد بينهم .

وهذه الترجمة من أطول التراجم التى أوردها البادسى فى كتابه بالإضافة إلى ما تضمنته من بعض الأخبار التى يمكن ربطها بمثيلاتها فى كتاب « التحفة » وإن كانت تختلف عنها فى الرواية (١) .

وينبغى أن نشير من جهة أخرى إلى المعلومات التي أوردها المستشرق الاسباني ميجيل أسين بلاثيوس والتى تفيد بأن اليحانسى كان مثل ابن مشيش شيخاً لأبى الحسن الشاذلى فى مقتبل عمره (٢) . وهذه المعلومات لم ترد فى كتاب « تحفة المغترب » .

هذا ومن المؤكد أن كتاب « روض القرطاس » كان يعنى شيخنا أبا مروان عند قوله فى أحداث سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ — ٦٩ م) : « وفى سنة سبع وستين توفى الشيخ الصالح أبو مروان الوجانسى بمدينة سبتة » (٣) .

---

(١) انظر : *El Maqṣad (Vies de Saints du Rîf) de ʿAbd el-Ḥaqq el-Bâdisî*, traduction annotée de G. S. Colin, Paris 1926, pp. 88-93.

والنسخ الخطية لهذا الكتاب تكتب اسم البلدة على شكل وحانس وقد نبه الأستاذ كولان على أنه يعنى Ohanes الحالية فى ولاية المرية .

(٢) Miguel Asín Palacios, *Šāḏilīes y alumbrados*, en «Al-Andalus», X [1945], pp. 12-15.

(٣) انظر : ابن أبى زرع : كتاب « روض القرطاس » ، نشر ك.ى. تورنبرغ ، أوبسالة ، ١٨٤٣ ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ، وفى الجزء الثانى الذى يتضمن الترجمة اللاتينية (أوبسالة ١٨٤٥ ، ص ٣٥٣) ترد النسبة فى صيغة Vadjesatensis وفى الهامش يشير إلى الصيغ التى وردت فى المخطوطات الأخرى لروض القرطاس وهى : الوجاسنى ، الوجاس ، الونحاسنى . أما الطبعة الحجرية التى صدرت بفاس لهذا الكتاب (بدون إشارة لسنة الطبع) فقد ذكرت الاسم على شكل : الونجاسى (ص ٢٩٥) .

ونعرف من كتاب « التحفة » أنه دفن فى رابطة أحجار [= جار] السودان بضواحى سبتة . كذلك ورد فى كتاب « اختصار الأخبار » للأنصارى الذى يصف مدينة سبتة فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ما يفيد بأن كرامات الشيخ أبى مروان استمرت لمدة قرنين على الأقل بعد وفاته ، إذ يقول :

« وأشهر من بمقبرة أجار السودان ، المقبرة الأولى قبر الولي الشهير صاحب الكرامات والمكاشفات أبى مروان عبد الملك بن محمد بن بشر القيسى اليحانسى ضريح مشهور ويصعد منه النور » (١) .

بعد الخطبة التى أنقلها فى بداية هذا النص (٢) ، يبدأ كتاب « تحفة المغترب » بمجموعة من النصوص التى تدور حول كرامات ومعجزات الصحابة وغيرهم من الشخصيات فى أوائل عهد الإسلام وكذلك بعدد كبير من الأحاديث النبوية التى تدافع عن إمكانية حدوث هذه المعجزات بفضل العناية الإلهية فى جميع الحالات ، وهذا القسم الأول يشكل المدخل المألوف التقليدي فى مثل هذه التآليف التى تتحدث عن تراجم الصلحاء والعارفين بالله وهى فى مجموعها لا تفيدنا بشىء ولذلك فقد أهملناها برمتها (٣) .

إن المحتوى الأساسى لهذا الكتاب يبدأ بفصل واسع وهو أوسع فصل فى الكتاب يروى فيه المؤلف ما كان قد حدثه به الشيخ أبو مروان عن توبته ورجوعه إلى الله فى مقتبل عمره وشروعه حياة الزهد والتقشف بدون وساطة أي شيخ ، بالإضافة إلى تفاصيل أخرى طريفة حول ظروف تأديته الحج لأول مرة .

ويسرد تلميذ أبى مروان ، والغريب أنه كان فقيهاً ، فى كتابه « التحفة » الذى يقع فى مائة وأحد عشر فصلا ، سلسلة طويلة من أعمال الشيخ التى حضرها بنفسه أو سمعها منه أو نقلها عن أصدقائه وأقربائه الذين كانوا شهوداً

---

(١) E. Lévi-Provençal, *Une description de Ceuta musulmane au XVe siècle*, en «Hespéris», XII [1931], p. 151.

(٢) انظر صفحة ١٧ من هذا الكتاب .

(٣) يبدأ هذا القسم الأول فى الورقة ١٤٤ و ، وينتهى فى الورقة ١٥٣ و .

عياناً لها ، وتُظهر هذه الأعمال كلها فضائله ومزاياه وزهده وتفانيه وتوكله على الله وتغلبه على شهوات نفسه وقهره لوساوس الشيطان وقدراته على صنع المعجزات وإبرائه المجانين مما علق بهم من جنّى أو شبح ، ويحدثنا فى هذا الكتاب من جهة أخرى عن مشاركة أبى مروان الفعالة فى الجهاد عن ثغور غرناطة محرضاً المسلمين على التصدى للعدو المشترك ، وعن أنه كان أحياناً ينصب نفسه قاضياً لأخذ الحق بنفسه حتى بلغ به الأمر أن قتل أناساً كانوا قد اعتدوا على حرمة رسول الله ، وأنه أحياناً كان يدعو الله أن يعاقب من لم يلب له طلباً أو رغبة وكان الله دائماً يمده بعونه وبفضله ويستجيب لدعواته حتى أن غضب الله كان يقع أحياناً على الذين كانوا يسخرون منه أو يعتدون عليه ولو لم يكن قد طلب من الله أن يقتص له منهم فيقضون نحبهم أو تغرق سفنهم جزاء لما كانوا قد أثموا فى حق هذا الصوفى الذى كان ذا شخصية معقدة جداً ، ومع أنه كان يحب المزاح والانشراح فقد كانت له سخريات طريفة مثل سخريته التى أخبر فيها عن وفاته ، ثم حدوث تلك الوفاة بعد قليل من هذه السخرية .

إن كل فصل رقّمته فى تحقيق هذا الكتاب له عنوان مؤلف من سطرين مسجوعين ، وكل عنوان يوجز أو يدل على الموضوع الذى يتضمنه هذا الفصل أو ذاك ، ونلاحظ أن هذا السجع فى أكثر الأحيان متكلف أو غامض مبهم ، والفصول تختلف فى حجمها صغراً أو كبراً ، وهى بلا نظام ظاهر ، مع أنه يبدو واضحاً أن المؤلف لدى تعرضه فى فصل ما لموضوع معين يتبعه بفصل أو فصول أخرى بينها علاقة أو تشابه ، وأحياناً تتوارد الفصول تبعاً لتوارد خواطر أملتها ذاكرة المؤلف ، ولكنه ليس ثمة أي تسلسل تاريخي أو نظام جغرافى ، اللهـم إلا ما كان بسبب من الأسباب التى ذكرناها لتـونا .

ولسنا بحاجة لتبرير نشرنا هذا الكتاب الذى كان منسياً تماماً حتى الآن فى أن نبرز الأهمية القصوى لمثل هذا النوع من الكتب عن كرامات الأولياء لدراسة الحياة الروحانية فى المغرب ابتداء من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

إن ظاهرة التصوف ، هذه الحركة الدينيـة القوية فى عهد المرابطين وعهد الموحدين والتى راحت تتعمق أكثر فأكثر فى نفوس الجماهير الشعبية والتى كانت ذات تأثير كبير فى الحياة الروحية والسياسية فى المغرب الإسلامى ، أخذت تنعكس كذلك في تآليف شعبية جعلت تعتنى بجمع تراجم هؤلاء الرجال البسطاء الذين كانوا أولياء الله الصالحين ، وذلك بقصد إعلاء شأن مثل أعلى كان ينهج سبيله كثير من المتصوفين الزاهدين عن الدنيا وما فيها ، وما زال الناس حتى يومنا هذا فى المدن والقرى بشمال إفريقيا يذكرونهم بكل إجلال واحترام . وقد أوضح الأستاذ كولان أهمية مثل هذه التآليف فى تصدير ترجمته لكتاب « المقصد » لعبد الحق البادسي [١] وكذلك تحدث باحثون آخرون عن هذه الأهمية فى مقالات بعضها حديثة العهد [٢] ، ونشرت فى هذه السنوات الأخيرة مؤلفات فى هذا الصدد وفى هذا النوع مثل كتاب « التشوف » [٣] وكتاب « أنس الفقير » [٤] ، وقد كان الأستاذ كولان قد أشار إلى أهميتها .

وليس فى الأندلس مثيـل هذا النوع من الأدب ، إذ أن تأليفاً كتأليف « رسالة القدس » لابن العربى هو ذو طـابع خاص يختلف عن التآليف التى أشرنا إليها سابقاً ، وطبعاً فإن هذا عائد لشخصية ابن العربى البـارزة فقد كان يكتب دائماً بصفته فيلسوفاً وكان همه إصلاح الأخلاق الذاتية وحدها .

إن « تحفة المغترب » الذي أوحته الدوافع نفسها والروح نفسها التى أوحت التآليف المغربية الأخرى التى أشرنا إليها من قبل ، له أهمية أكبر من حيث أنه مركز حول شخصية واحدة ، ويعتبر نوعاً — وإن كان بشكل فوضوي —

---

(١) راجع كولان ، مصدر سابق ، ص ٦ — ٩

(٢) A. Bel, *Le ṣûfisme en Occident Musulman au XIIe et au XIIIe siècle de J. C.*, en «Annales de l'Inst. d'Ét. Orientales d'Alger», I [1934-35], pp. 145-161; A. Faure, *Le Taṣawwuf et l'école ascétique marocaine des XIe - XIIe - XIIIe siècles de l'ére chrétienne*, en «Mélanges Louis Massignon», Damasco, II [1957], pp. 119-131.

(٣) « التشوف إلى رجـال التصوف » لأبى يعقوب يوسف بن يحيي بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى عرف بابن الزيات . اعتنى بنشره وتصحيحه ادولف فور ، الرباط ١٩٥٨

(٤) « أنس الفقير وعز الحقير » لأبى العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطينى ، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسى وأدولف فور ، الرباط ١٩٦٥

من الترجمة لإنسان غير عادي ، بالإضافة إلى أنه يفيدنا فى التعرف على الظاهرة الدينية ومدى إحساس الأندلسيين بها .

لقد عاش أبو مروان فى عهد حاسم حرج وهو عهد انقراض دولة الموحدين وفتنة ابن هود ونشوء ملك غرناطة وترسخه على يد محمد بن الأحمر .

ونرى من خلال صفحات هذا الكتاب أبا مروان اليحانسى وهو يدافع عن دعوة ابن الأحمر مقـاتلاً النصارى أو مهاجماً دعوة ابن هود وعامله ابن الرميمى ، ونرى كذلك كيف أن السلطان النصرى الأول وفد إليه فى لحظة حرجة طالباً منه أن يعينه بدعواته المجابة ونشهد أيضاً أبا مروان وهو يقوم بمهمة استنفـار الناس فى شمال إفريقيا للدفاع عن الدولة النصرية الفتية .

لقد عاش أبو مروان سنوات طويلة وجاب أنحاء العالم الإسلامى ، فبالإضافة إلى أدائه فريضة الحج أكثر من مرة فإنه أقام فى مصر والشام والعراق حتى أنه فى إحدى رحلاته بلغ بلاد خراسان النائية ، وتجول فى شمال إفريقيـا إلى أن اختار مدينة سبتة — حيث كان يمتلك منزلا — مراحاً له ومستراحاً إلى أن حانت ساعة لقاء ربه .

إن أهم شىء فى هذا الكتاب بالإضافة إلى المادة الوافية التى يقدمها لدراسة نفسية هذا الشيخ الأندلسى وبالإضافة إلى المعلومات التأريخية المهمة ، هو ما نجده فى تصويره للحياة الإجتماعية وعرضه لمجريات الحيـاة اليومية والعائلية وكذلك ما نجده أيضاً من آراء هذا الشيخ الأندلسى حول المشرق الإسلامى وعن ملوكه وشيوخه ووجهائه وسائر أناسه الذين كان أحياناً يصطدم معهم ويختلف . وكان إذاك يعود بالذكرى إلى وطنـه ويحن إليـه ويتشوق تشوق من اغترب ، وقد يدل على هذا الشوق عنوان هذا الكتاب .

وأحداث هذا الكتاب تُروى بأسلوب بسيط حتى أنه ينخفض أحيانـاً إلى مستوى اللهجة العامية الدارجة وبخاصة حين ينقل الحوار الجاري على ألسنة العامة ، ومن خلال هذا الحوار تتبين ملامح اللهجة الغرناطية ، وهذا لا يعنى أن المؤلف لا يستعمل فى المواعظ التى يختم بها أكثر فصول الكتاب سجعاً متكلفاً ينم

عن ثقافته الفقهية الواسعة ويدل على ضحالة قدرته الفنية الأدبية ، بل إنه يتجرأ فينظم قصيدة يرثى بها شيخه أبا مروان .

* * *

إن مخطوطة « التحفة » ليست مؤرخة مع أنها قديمة قد تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي . ولا نعثر فيها على اسم الناسخ . وهى مكتوبة بخط مغربى غير أنيق وكثير الإهمال ، وهى فى كثير من الأحيان مكتوبة بخط غير معجم الحروف ، وهناك بضعة كلمات قليلة مشكلة جزئياً أو كلياً . وعناوين الفصول مكتوبة بحبر أحمر وبخط كبير الحروف . والصفحات تختلف فى عدد أسطرها فهو يتراوح ما بين ٢٢ و ٢٧ ؛ وأوراق المخطوطة غير مرتبة فقد وُضعت لها أرقام بعد تجليد الكتاب ، لكننا قمنا بترتيب هذه الأوراق وأشرنا إلى ذلك فى الهوامش ولم نكثر من الملاحظات إلا حين وجدنا أنها ضرورية لا غنى عنها . إن التعليق والتفسير ومناقشة العديد من الجمل والعبارات الغامضة فى النص سنوردها فى الترجمة الإسبانية التى قمنا بها ونفكر فى نشرها عما قريب .

ويبقى بعد ذلك أن أقدم شكرى الجزيل للأستاذ مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، صديقى العزيز الدكتور أحمد مختار العبادى ، وذلك لعرضه الكريم على أن أنشر هذا الكتاب ضمن منشورات المعهد .

فرناندو دى لا جرانخا

تحفـــة المـغـتـرب
بـبــلاد المــغــرب

لمـن له من الاخوان ، في كرامات الشيـخ أبي مروان

تأليف الفقير إلى الله تعالى وجلّ ، السائل من الله تعالى التجاوز عمّا فيه زلّ ، أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزديّ القشتالىّ ، تاب الله عليه وجلب التوفيق إليه بمنّه وكرمه ، لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره تعالى

نشر وتحقيق

فرناندو دي لا جرانخــا

[تمهيد المؤلف]

[١٤٣ ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

قال العبد الفقير إلى رحمة ربه المعترف بذنوبه أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدى القشتالى ، رحمه الله :

... ...

أما بعد : فإنه قد كان سألنى [١٤٤ و] قبل هذا الآن ، جماعة من الإخوان ، أن أؤلّف لهم ما رأيت أو بلغنى عن ثقات أهل هذا الزمان ، من كرامات الشيخ أبى مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسىّ اليحانسىّ ، جمعنا الله وإياه فى جنة الرضوان ، ونفع بخدمته ، إنه جواد منّان ، فلم يخل خاطرى لذلك المعنى ، وقيّد من ذلك بعض الناس نبذاً مما له عنّا ، إلى أن رأيت أن أكون أولى حقّ بهذا الشأن يعنى ، لئلا نكون فرطنا فى جمع مآثر سيّدنا وأضعنا . فاستخرت الله تعالى فى ذلك تجديداً لعهده ، ووفاءً لما سلف من خالص ودّه ، وليقف من بعده ، وأجرى فى الخلاء وحده ، على ما للرجال ، من سنىّ المقامات والأحوال ، وقيّدت هنا ما له رأيته ، أو سمعت عنه ورويته ، متبرّكاً بأخبار المشايخ وأخباره ، مستنيراً بأنوارهم وأنواره ، دالّا لمن أراد الاقتداء بآثارهم وآثاره .

... ...

١

[١٥٣ و] ذكر بدأته — رضى الله عنه — فى التوبة وسبب الرجوع منه إلى الله والأوبة

قال أحمد : مشيت فى خدمته — رضى الله عنه — من وادى آش إلى بلده يخانس ، عام سبعة وأربعين وستمائة ، ولم يكن معه إذ ذاك غيرى . فوقعت مذاكرة ، إلى أن طاب الوقت وجذبته إلى ذكر بدأته . فذكر لى أنه كان بطبعه كثير المداعبة والبسط ، فبلغ سنّه أربعة عشر عاماً ، وكان فى عهد[١] من سلك طريق المخالطة ، واتّبـاع المغالطة ، وأراد أن يجذبه لصنفه ويخلبه ، ويستدنيه لمـا لم يرد منه ويجلبه ، من معاشرة زيد وعمرو ، وموافقة الأخلاف فى كل أمر ، من استئناس[٢] وزمر ، ومعاطاة أكواس خمر ، إلى أن وقعت منه بعض موافقة ، لم تساعدها ، والحمد لله ، مرافقة .

قال — رحمه الله ورضى عنه — : فجئت يوم جمعة لدارى ، فقالت لى خالتى (يعنى زوجة والده) : « لو حملت غذاء أخيك محمد بحيث هو يزرع » . (قال :) فأخذت غذاءه وحملته له ، وجلست معه ساعة . ثم سمعت الإنذار بصلاة الجمعة ، فذكرت الله ، وقال لى أخى (وكان أخاه لأمّه وابن عمّه) ، وكان ثقيل السمع : « أسمعك تذكر الله ، لعلك سمعت الإنذار » . قلت : « نعم » . (قال :) فبكى وقال : « إن عمّى أمرنى اليوم بالحرث ، وأظنه لم يعلم أن اليوم يوم الجمعة ، واستحييت أن أردّ عليه ، وحسرتى أن تفوتنى صلاة الجمعة ولم تفتنى منذ ثلاثين سنة » . (قال :) فلحقنى عليه حنان ، وقلت له : « دعنى أحرث لك ساعة ، خلال ما تصلى وترجع » . فلبس ثيابه

(١) فى الأصل تبدو الكلمة على شكل : عمه .
(٢) فى الأصل : واستئناس .

وأخذ فى الجرى خوف فوات الصلاة ، ثم عطف عليّ راجعاً وقال لى : « أصلحت خاطرى فى هذا الوقت ، أسأل الله أن يصلح ما بينك وبينه » . ثم مضى فى طريقه . (قال :) فشقّ قلبى[١] بدعائه ، [١٠٣ظ] وجعلت أفكر وأقول فى نفسى : « هذا هو الذى فرضت عليه الصلاة دونى . انظر حرصه على ذلك وجدّه » . ثم حللت البقر ، وأخذت بقيّة الزرع فى العدل ، وهبطت للوادى بالبقر ، وجعلت أغسل ثيابى . ثم صلّيت بقيّة اليوم فى ذلك الموضع ، لا أفتر من الصلاة . فلما جاء الليل ، حملت للدار البقر وبقية الزرع ، وصرت إلى المسجد ، لا أزال أصلّى فيه ، ولا يقدر والدى يضمنى للدار . (قال :) ويجيء أصحابى وعشرتى وأترابى وبعض الأخلاف من أقاربي يقولون لى : « ما أصابك ، ما طرأ فى عقلك ؟ » ، ويعيّروننى بالعبادة فى حال الصغر ، وأنا على حالى . لا التفت إليهم .

(قال :) ثم قلت فى نفسي — وكان عام مجاعة — : « أيكون لى دراهم وزرع والناس محتاجون ؟ هذا غير لائق بطريقى » . فأخذت فى تفريق ذلك على الضعفاء من أهل القرية حتى فنى ، ووالدى لا ثرب عليّ فى ذلك . ثم إن والدى ، بعد أيام ، لاطفني وحملنى للدار ، وجعلنى فى غرفة على الباب . وقال لى : « كن هنا مفرداً ، لا يدخل إليك أحد ، ولا يغيّرك » . فبتّ بها أياماً ، وأنا أعمّر الأوقات كلها بالصلاة ، حتى الأوقات المنهىّ عنها ، وأنا إذ ذاك لم أبلغ الحلم . ثم إن والدى نبّهنى على الأوقات المنهىّ عنها ، فإني كنت لم أقرأ إلا يسيراً من القرآن ، ولا نشأت على الطلب ولا مع أهله ، لأن البادية والشبيبة لم يقتضيها[٢] ذلك .

(١) فى الأصل : قلبه .
(٢) كذا فى الأصل .

(قال :) ثم مشيت بعد أيام لأندرش ، لأحضر سوقها يوم الخميس ، ولأسوق منها أقداحاً للوضوء . فركعت فى الطريق عند عين البُرَيْط[١] ، بعد أن توضأت فى العين المذكور لصلاة الضحى . وذلك الموضع يظهر منه البحر الذى على المرّية . (قال :) فظهر لى منه البحر ، وتذكرت بسببه الحج ، وقلت : « أليس على البحر يُمشى للحج ؟ » . ووجدت لذلك شوقاً وعزماً على المشى لاداء الفرض ، وقلت : « يوم الاثنين أسافر » . فكان كذلك . وفى ذلك الموضع [١٠٤ و] — قال — كشف الله عن بصرى حتى رأيت الكعبة .

وعند رجوعه من أندرش كان بقى له من ميراثه ، من أمه ، ثمرة توت ، باعها بإثنى عشر ديناراً يتزوّدها ، ومشى يوم الاثنين ، كما قال ، هو وابن خاله محمد بن صاحب الصلاة الملقب بالجاموس ورجلان من بلده . وكان والده قال له عند موادعته : « جز على فلان بالمرّية وخذ منه بالقيسريّة مائة دينار عن زاد » . (قال :) فلما صرت عند باب البينة من وادى المرية قلت فى نفسى : « لعل أقاربي يمنعوننى عن المشى إذ دخلت المرية ، ولعله قدّم لهم بذلك » . فنكبت عنها ، وأخذت على طريق طبرنش إلى لقنت ، فجزنا لبجاية . وكان عندى زاد رفقائي ونفاقهم مع نفقتى فى وعاء واحد ، لا يختص أحد منا دون أحد بشيء ، بل كان التصرف فيها لى ، إذ جعلوها عندى لذلك . (قال :) فأعطيت ذات يوم صدقة ، فقالوا لى : « الطريق بعيد ، وينبغى أن نحتاط على الزاد لئلا نحتاج إلى الناس » . فقلت لهم « لمّا علمتم أن نفقتى قد فنيت طلبتم الكلام . انزلوا للحساب » . فتحاسبت معهم ، فوجدت قد شطّت لى درهمان ونصف درهم . فاشتريت بها ركوة وفارقتهم ، بعد أن رددت إليهم دراهمهم ، وهم يأبون ويعتذرون ، ويحلفون ما أرادوا لى إلا خيراً ، وأنا لا أعوّل عليهم . ثم إنى بقيت حتى بلغ منى الجوع منتهاه . فاتفق أن مررت

---

(١) هذه الكلمة مشكولة فى الأصل .

بحلقة من النـاس ، فنظرت فيها ، فوجدت مسمعاً قد فرغ من سماعه وهو يسأل الناس ، ولحنى من بين النـاس ، فقـال : « من يعطى لذلك الشاب قيراطاً فعل الله له وصنع معه » . فقلت له : « ومتى قلت لك أنا ذلك ؟ » . فقال : « أحلف أنه ليس بذلك الوجه الجوع » فتركته وولّيت ، فتبعنى رجل من الحلقة ودفع لى عشرة دراهم وقال لى : « خذ هذه ، أظنك لم تذق بعد من الحيرة التى دخلت فيها شيئاً » . (قال :) « فمشيت إلى الجامع ، فحططت للفقراء الذين كانوا هناك العشرة الدراهم .

(قال :) وابن خالى [١٥٤ ظ] محمد ابن صاحب الصلاة ، منذ فارقني ، متطلع عليّ من بعيد ، يشاء حركاتي . فلمّا صلّيت ، كلّم ابن خـالى الإمام ، وذكر له قصتى ، وبـكى له همّه فى حقى . فاستدعانى الإمام ، وقال لى من الكلام ما عارضته فيه ولم أقبله منه ، وقال لى : « هذا الطريق الذى تريد سلوكه بالحرى هو طريق الجنيد » . فقلت له : « وفى الجائز أن يخلق الله من يمشى على طريق الجنيد » . ثم إنه استقبل منى الجواب ، فقال لى : « على من قرأت ؟ » فذكرت له نشأتى فى البادية وكيفية أمرى ، فقال لى : « لا أخشى عليك . سر فى طريقك » . وقـال لابن خالى : « دع هذا فإنى لا أخاف عليه » . وانفصلت عن رفقـائى ، فسافروا فى البحر ، وسافرت فى البر . ودخلت برقة وحدى ، ووصلت الاسكندرية قبلهم . فلما وصلت إلى عيذاب[1] لم أجد فى الوقت مركبـاً أجىء فيه ، فاتفق أن وصل من الملك رسل ، وأمر أن يجعل فى مركب من مراكبهم الصغار ، ويطلع معه من حضر من التجار ، ليعتدل الجفن بزادهم إلى جدة . فقمت وطلعت المركب ، وقعدت بأصل الصارى ، ولم يشعر بذلك أحد . فلما أرادوا أن يفتحوا القلع ، التفت الرائس وقال : « من طلّعك إلى هنـا ؟ » . قلت له : « الله » . فقال :

---

(١) فى الاصل : عذاب .

« ألقوا هذا الفاعل الصانع من هنا » . فأخذ أحد النواتى بذراعى وألقانى فى البحر . فلم أحصل فى البحر حتى قلبت القَرِيَّة على رأسه وفلقته . فتراموا فى الحين إلىّ وطلّعونى ، وبرّنى حتى وصلت إلى جدة .

ثم إنى لما أقمت بمكة برسم المجاورة ، واعتبرت حال المجاورين كيف هو ، انعزلت عنهم . فقال لى الشيخ الذى كان هناك : « يا عبد الملك ، انضف إلى الزوايا مع المجاورين ، يكن لك فيما يفتح الله به على المجاورين حظ ، وإلا تهلك وحدك » . (قال :) فقلت له : « عهدت الله تعالى ، مذ خرجت من بلدى ، ألا آوى إلى فندق » . قال : « أفنادق هى الزوايا ؟ » قلت له : « نعم : إذا كان كل إنسان فى بيته بقليله وكثير[ه] ومتاعه تحت قفله ، إنما هو فى فندق » . فقال لى : « أقم على ما أنت ، فنمطك آخر » . [١٠٠ و] (قال :) فكنت أقيم ثلاثة عشر يوماً ، لا أطعم شيئاً ، وأنا فى ذلك ما[١] بلغت الحلم . فإذا أكملت الثلاثة العشر يوماً مواصلاً ، نزلت إلى جدة ، فلقطت على ساحلها من رؤوس السردين المطروحة ، من يوم أو يومين ، فأحملها فى شقف للفران ، يشويها لى ، فآكلها وأرجع إلى مكة . فإذا انقضى مثل تلك الأيام جئت إلى جدة لفعل[٢] كذلك . ولقد كان يقول بعض الناس للفرّان ، فى بعض الأيام : « لا تنتن خبزنا » . فيأبى أن يشويها لى . فألتقط من بعر الجمال ، وأوقد فيه النار ، وأشوى به رؤوس السردين ، نحواً من أربعة أعوام ، وأنا مجاور .

ولقد قعدت هناك ، لا أضع فى تلك المدة رأسى ولا جنبى بالأرض ، ولا أنام إلا عن غلبة . فإن وقعت إلى جهة ، من غلبة النوم ، قمت فجددت الوضوء وقعدت ، حتى طبخت أليتاي بالجلوس ، وتسلّخ جسمى بمسح الشعر الذى كان

---

(١) غير واضحة فى الأصل : لما ؟ . والجملة الصحيحة : لما ابلغ .
(٢) لعلها : أفعل .

عليّ ، وبقيت لا أتكلم مرة . ثم سافرت فى تلك الأعوام مع بعض الفقراء إلى مصر . فكان واحد منهم يأخذ مسلّة ، ويدخلها فى لحمى المرة بعد المرة ، طول الطريق ، يريد بذلك اختبارى ، لعلي أتكلم فى حق نفسى . وكان مع ذلك يسبّنى السبّ الفاحش ، فيما بينى وبينه ، ولا يعلم أحد من الفقراء بشىء من ذلك . فلما وصلت إلى مصر استغفر ذلك الفقير فى حقى ، وأعلم الفقراء بما صدر منه ، وقال لهم : « انظروا إلى لحمه » . فنظروا إلى جنبى ، فوجدوا الدود قد وقع فيه وهو قد دبر .

قال مؤلفه :[١] راضوا نفوسهم لتنقاد للمولى سراً وعلناً وزهدوا فى الدنيا فلم يقولوا معنا ولا لنا ، وانتدبوا لقول الله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[٢] .

ولقد سألته — رحمه الله — فى طريقنا ذلك إلى يحانس ، فقلت له : « ياسيدى ، أنت لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق [١٠٥ظ] ولا سافرت مع عالم فيمن كنت تقتدى[٣] فى هذا الطريق » . فقال لى : « أقام الله لى من باطنى شيخاً » . قلت له : « كيف ؟ » قال : « كنت إذا عرض لى أمر نظرت فى خاطرى فيخطر لى خاطران فى ذلك ، أحدهما مذموم والآخر محمود . فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود ، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمن فيه من المشايخ أو العلماء ، فأسأله عن ذلك ، فكان يذكر لى المحمود محموداً والمذموم مذموماً ، فأحمد الله أن وفقنى ، ومع

---

(١) الفقرة التالية حتى الحاشية رقم ٣ فى صفحة ٢٥ ترد هكذا مع شيء من الاختلاف فى نفح الطيب للمقرى طبعة ليدن الجزء الأول ص ٩٣٣—٩٣٤ ؛ طبعة القاهرة ١٩٤٩ ، نشر محي الدين عبد الحميد ج ٣ ، ص ٤٤٣—٤٤٤

(٢) سورة رقم ٢٩ ، آية ٦٩ .

(٣) فى نفح الطيب : ببركته ، زيادة عن الأصل .

تتابعى[١] ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتمد[٢] على ما يقع بخاطرى من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء[٣] » .

قال مؤلفه : وهذه من ثمرة تقوى الله فى جميع الأمور ، « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »[٤] .

---

(١) فى نفح الطيب : تتابع .
(٢) فى نفح الطيب (طبعة ليدن) : اعتهد .
(٣) تنتهى هنا الفقرة التى نقلها المقرى فى نفحه من هذا الكتاب .
(٤) سورة رقم ٢٤ ، آية ٤٠ .

٣

ومما يدلك على جلالة منزلته وقدره
وتنبيه الله إياه على ما ليس فى ذكره

وذلك أن الفقيه الخطيب أبا عبد الله بن الفقيه سأله يوماً بجامع وادي آش ، على طريق الاختبار وطلب التعجيز ، فكثيراً ما كان دأبه ذلك ، فقال له أبو عبد الله : « أين يؤذن المؤذن للعشاء الآخرة ليلة الجمعة[1] بين العشاءين للظلمة والمطر ؟ » . قال : « فى المسجد » . فقال له : « لأى معنى ؟ » . قال له : « لأن الأذان إنما هو إعلام بدخول الوقت ، وهذه الصلاة إنما وقتها مختصّ بالحاضرين فى المسجد ، ولو أذّن فى الصومعة أو خارج المسجد ، ورفع صوته ، لأدخل الغلط على المغفّل [والمريض] [2] والنائم ومن لا يتفطّن للنظر فى الأوقات مع سماع الأذان ، وجعلهم يصلّون فى غير وقتها » . فقال له ابن الفقيه : « أين قرأت هذا ؟ » . قال : « والله ، ما سمعت هذا قطّ ولا قرأته فى كتاب » (يعني هذا التعليل) .

قال مؤلفه : فتحقّقت عند ذلك أن الدراية ليست بكثرة الرواية ، وأن التفقيه من الله والتفهيم ، خير من الدراسة والتعليم .

---

(١) فى الأصل : الجمع .
(٢) غير واضحة فى الأصل .

٣

ومما يشاكل ما تقدم ويشبهه
ويدلّك أن الله حافظه ومنبّهه

أن القاضى أبا الحسن بن حسّان — رحمه الله — سأله مرة ، وربما كان فيه بعض إنكار للكرامات ، [١٥٦ و] إذ على ما فى البواطن دلائل وعلامات ، فقال له : « أنتم تقولون إن الكرامات فى زماننا وقبله موجودة . ولو كان كما تقولون لكان الصحابة — رضى الله عنهم — بذلك أولى ، ولم يؤثر عنهم فى ذلك شىء ولا دوّن . فما حجّتكم فيما دوّن فى حكايات الصالحين وجمع ، وما لا دليل فيه من الشرع ردّ ومنع ؟ » . قال الشيخ — رحمه الله — : « قد دوّن الناس فى كرامات الصحابة وجمعوا ، وحشدوا فى ذلك واتّسعوا ، وأسندوا فى ذلك ورفعوا ، ولكن مع المعجزات أين تظهر ، وضوء القمر مع شعاع الشمس كيف يبصر ، وهل الكرامات إلا من دلائل المعجزات ، إذ هى نتيجة الاتّباع والاقتداء ؟ فمنكر الكرامات على الأولياء كمنكر المعجزات على الأنبياء . وأي كرامة أجلّ من رؤيتهم للنبي — عليه السلام — ، وإقامتهم فى نصرة دين الإسلام ، وحمايتهم له على الدوام ، ونزول جبريل بالوحي فى مصالحهم الدينية والدنياوية ، وتأييدهم بالجنود السماوية ، وقمعهم للطاعة المعتدين ، وعضدهم للدين وحزب[١] المهتدين ؟ . . . » وكلام هذا معناه ، لا اللفظ الذى سقناه . فقال له القاضى : «أنتم تقولون إن الحلاّج ، حين قتل ، انكتب بدمه « الله الله » ، وكان أولى بذلك الحسين بن علي — رضوان الله عليهما — ولم يؤثر عنه شيء من ذلك » . قال له الشيخ — رحمه الله — : « لم يختلف رجلان في أن الحسين بن علي أحد سيدي شباب أهل الجنة ،

---

(١) غير واضحة فى الأصل .

وقد ظهرت له آيات أخر غير هذه ، والحلاج اختلف فيه الناس . فقوم صدّقوه وقوم زندقوه ، فأكرمه الله بعد موته بظهور دليل صدقه ، وكان ذلك فى حق المسلمين وحقه ، لئلا يقع الناس فيه ، وقد قبل إخلاصه وتصافيه » . قال له القاضى : « من أين تجيئك هذه الأجوبة ؟ إن النفس فيك لمتعجبة » . قال له الشيخ أبو مروان : « تراك أنت الفقيه أبو الحسن ، اسرد لى أحاديث ترفعها عن النبى — عليه السلام — مما فى حفظك أو كتبك وادرج لى فيها من رأسك على طريق الاختبار ما ليس منها ولا هو بحديث ، فإن لم أخرج لك الموضوع منها فاعلم أنى على باطل » . فأقنعه ذلك وسكت .

قال مؤلفه :[1] حموا طريق الحق لحاماهم ، ونوّر بصائرهم فأصمّهم عن الباطل وأعماهم ، وأهانوا فى رضاه نفوسهم ، ورفضوا نعماهم ، فأعلى [١٥٦ ظ] قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم .

(١) الفقرة التالية حتى نهايتها وردت بحذافيرها فى نفح الطيب للمقرى ج ١ ، ص ٩٣٤ (طبعة ليدن) ؛ ج ٣ ، ص ٤٤٤ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) .

٤

ومن كراماته فى حفظ الله إياه عن الحرام وكشفه به ليعلم أنه من أهل الاحترام

ما شاهدته له ليـلة بلورسانة ، عند قريبه الشيخ أبى القاسم بن جودى . وذلك أن أبا القـاسم هذا كان إذا ورد عليه الفقراء يقـدّم لهم من كل إدام وفاكهة تكون عنده مع وجوده بكل ما يحتاج إليه . وكان الشيخ أبو مروان منبسطاً فى محله ، لطيب نفس هذا الرجل وفضله ، وطيب مكسبه ودينه وطلبه وحسبه . فاتفق أن قدّم له فى تلك الليلة فى جملة ما قدم رمّاناً طيباً فاخراً . فلم يأكلها الشيخ من بين الفواكه ، مع أنه كان به كثير الولوع أبداً . فعرض عليه مراراً وهو يعرض عنه ، كالزاهد فيه ، وكان ببـاب الغرفة رجل قاعد ، يعرف بالرومى ، كان يتصرف بدابّة لأبى القاسم المذكور ويجلب عليها السلع من البلاد ، قال : « يا سيدى ، لم لا تأكل الرمان ؟ أتدرى من أين هو ؟ قليلا ما تجد من يجلب مثل هذا . كان الرئيس أبو الحسن ، صاحب المرية ، قد أمر بتقليب الرمان على أربابه فى ضياعهم بمرشانة ، حتى يختار منه حاجته ويسرح لهم الباقى . فلما اختـار حاجته شط هذا من الخيرة ، فاشتريته أنا من ثقة الرئيس ، وهو معجب بما جلب ، مفتخر به » . فقال له الشيخ — رحمه الله — : « لذلك لم آكله أنا » .

قال مؤلفه : [١] يا هذا ، من حافظ حوفظ عليه ، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه ، ومن أخلص العبودية لربه قام الأحرار خدمة بين يديه .

(١) الفقرة التالية وردت بحذافيرها فى نفح الطيب للمقرى ، ج ١ ، ص ٩٣٤ (طبعة ليدن) ؛ ج ٣ ، ص ٤٤٤ (طبعة محي الدين عبد الحميد) .

٥

ومن مثـل ذلك من المكاشفات وشبهه
ما أعقبه سلوك الطريق على وجهه

وذلك أنه كان قد ورد على يحانس ، فسيق له ، برسم ضيافة ، جدي مسلوخ فى نهاية من السمن ، وعلّق بالبيت . فكان كلما قام ليقطع منه ما يطبخ يرجع ويتركه ، ولا يمسّه ، مرة بعد مرة ، إلى أن قال : « من ساق هذا ؟ » . فقيل له : « فلان » . قال : « ردّوه له ، ما ساقه إلا لأردّ عنه الحاكم فيما يرتكب من الفجور . كنت إذا قمت لأقطع منه أجده بوَخ خنزير ، فأتركه » .

قال مؤلفه : عفا الله عنّـا وسترنا ، ولا فضحنا على رؤوس الأشهاد ولا شهرنا ، ونوّر بصائرنا وسدّد نظرنا .

٦

ومن مكاشفاته وإسعافه فى تمنّيه
وأنه إذا أراد شيئاً يكيّفه الله له ويسنّيه

[١٥٧ و] وذلك أنه كنّا معه بالمنيال من يحانس ، وكان إذا ورد عليها يصله خطباؤها [وأهل] (١) النظر ووجوهه . فقال : « هؤلاء القوم طبعهم الانقباض ، ونحن ننقبض من أجل قبضهم . فلو وصل من الفقراء من نسأله عن البلاد ، ومن عاشر من الفقراء بالمشرق ، ومن مات ، لكان لنا فى ذلك راحة » . فلم يكن إلا بعض يوم حتى جاء إبراهيم بن عيشون خديمه ، فقال له : « اطلع إلى الدار وانظر فى عشائنا ، وصل إلى المسجد وانظر من وصل إليه من الفقراء ، ترى به فقيراً أحمر اللحية يخضب بالحناء ، ومعه رجل يخدمه » . فعجبنا من قوله ذلك ، إذ لم يقدم علينا أحد ولا قام منا أحد . فلما طلعنا للمسجد وجدنا فقيراً ، يعرف بإبر[ا]هيم العندرون ، كان له فى المشرق عن بلده مرّاكش عدة من السنين ، وكان كما وصفه : يخضب بالحناء ، أحمر اللحية ، وكان معه فقير من أهل الجزائر يخدمه . فباتا معنا ، وتشفّى الشيخ معه من أخبار معارفه من الفقراء وبقية المشايخ ليلته تلك .

قال مؤلفه : صدق فصدق ، وتحقق فى معنى العبودية فعتق ، وبادر لطاعة مولاه فما جورى ولا لحق .

---

(١) غير واضحة فى الأصل .

٧

ومن إشرافه(١) على البواطن واطّلاعه ورؤيته للمغيبات على البعد أو سماعه

وذلك أنى كنت معه بجامع وادى آش ، وقد وادعه الحاج علي بن آدم ، من أهل استبونة ، برسم الرجوع لبلده . فقال له الشيخ — رحمه الله — : « إذا وصلت مالقة ، قل لأحمد بن المؤذن يرتجع عما هو بسبيله ، وإلا أحاط به البلاء من حيث لا يشعر » . قلت له : « وماذا فعل ؟ » . فقال لى : « له أم صالحة ، ويجىء برسم زيارتها نساء باسم صالحات وهن لا يحتجبن منه ، والنبى — عليه السلام — يقول : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء » . ثم قال : « لعمرى ، لقد أصبحت جنباً ليلة ثمانية وثلاثين يوماً من المواصلة التى واصلتها بسبتة . فكيف يصنع من يأكل ثلاث مرات فى اليوم فى حال فتوّته وهو يهدم ذلك الحائط بركضة ؟ » . فقلت له : « يا سيدى ، لعل نقل لك عنه ما لم يكن ، فإن الناس لهم أغراض وشهوات » . فرأيت الشيخ قد انحرف ، وقال لى : « يا أحمد ، والله ما يغيب عنى من أمور الخلق ذرة » . فسكتّ وتذكرت لقول بعض أهل التصوف : « تعرف مواجيد العارفين فى ثلاث : عند الغضب والمذاكرة والسماع » .

---

(١) فى الأصل : اشارفه .

٨

ومن مثل ذلك من المكاشفات
[١٧٥ ظ] ببعض نقائص أهل المخالفات

وذلك أن أحد معارفه ، وكان من أقاربه ، خرج برسم الحجّ مع جماعة من أهل ارينتيرة . فوصل معهم إلى الشيخ أبى مروان ، وهو بسبتة ، فأقاموا عند الشيخ أياماً . قال الشيخ : كان يقع فى خاطرى أنه سرق البغل لوالده وباعه ، وأتى بثمنه عن زاد للحجّ . فذكر الشيخ له ذلك واستفهمه عنه ، فأنكر وحلف أنه ما فعل . ثم إن الشيخ يتردّد هذا الخاطر عنده ، فيعيد على ذلك المذكور ، فيحلف أنه ما فعل ، فيرجع الشيخ على نفسه ويتوعّدها بالجوع الشديد تأديباً لها على إساءة الظن بالناس . فلا ينفكّ عنه ذلك الخاطر ، إلى أن دعا أصحابه الذين وردوا معه ، وقال لهم : « لا كتب الله لكم سلامة إن لم تصدقونى بالحق فى هذه القضية » . فقالوا له : « والله ، لقد سرق البغل لوالده ، وباعه من أبى الحجّاج بن شعيب بأربعين ديناراً ، وهذا ثمنه عنده برسم الزاد » . فترك الشيخ معاتبته وأطرحه من خاطره . وبقوا عنده حتى سافروا .

قال مؤلفه : فيا خسر من انخدع ، وأحدث وابتدع ، واتّبع هواه وما ارتدع ، ولم يترك لنفسه حرمة ولم يدع .

٩

ومن عجائب ما شاهدته من بركاته
وتأثير اللجج فى محاولاته وحركاته

أنى كنت معه بارينتيرة ، إذ جاءه الدليل المعروف بالمشك على فرس أشهب من عتاق الخيل . فنزل عن الفرس ، وقبّل يد الشيخ وسلّم عليه ، وقال له : « الرئيس أبو الحسن بن اشقيلولة يسلّم عليك ، ويرغب منك أن تجرّ يدك على هذا الفرس ، فإنه أجراه بحضرة الناس فى العيد ، فربما تكلّم عليه ، فلم يقدر أحد بعد ذلك يركبه » . قلت أنا للدليل : « فكيف ركبته أنت ؟ » . قال : « بعد أن شكل وربط » . فقام الشيخ فجرّ يده عليه ، ثم قعد . فقام الدليل يركب ، فقال له الشيخ : « انزل حتى تفطر معنا » . قال : « نعم يا سيدى » . وفى خلال كلام الشيخ معه ركب هو الفرس مختبراً له ثم نزل ، ثم ركب ، ثم نزل ، وهو ينظر إلىّ ولا يتكلّم ، بل يتعجّب من طهارة الفرس بعد شدّة[1] شرسه . فلمّا أفطر ركب ، وأردف خلفه فقيراً كان هناك للهبوط لوادى آش ، وانصرف .

[١٠٨ و] قال مؤلفه : وليس العجب من سكوته فى ذات الله وحركاته ، أن يظهر فى كل شىء بركاته .

(١) فى الأصل : شدته ولعلها : شدته وشرسه .

١٠

ومن كلامه — رضى الله عنه — على الخاطر
وأسباب ذكر ثنائه الأرج العاطر

أنى كنت ببسطة ، إذ وصل إليها واعظ ، يعرف بالبلزوذيّ[١] ، بكتاب على لسان الشيخ — رحمه الله — لأهل بسطة ، فى حق أن يشاركوه ويحسنوا إليه . ثم وصل منهم رجل ، يعرف بقاسم البلنسيّ ، فقال للشيخ : « وصل إلينا فلان بكتابك ، فخدمناه وأحسنّا إليه فى حقك » . قال له الشيخ : « وما كتبت أنا له ؟ » . فلما رجع البلنسيّ لبسطة ، صاح على الواعظ فى السوق وألّب عليه الناس ، وقال : « كذبت ، وزوراً كتبت ، على لسان الشيخ » . فهرب الواعظ ، وفرّ من البلد .

فلما جئت أنا من بسطة إلى وادى آش ، واجتمعت بالشيخ ، سألنى عن قصة الواعظ ، فذكرت له ما اتّفق له . ثم إنى ، فى حين كلامى معه ، وقع فى نفسى إنكار عليه فى أن فضح دلاسة الواعظ ، وقلت فى نفسى : « إنما يليق بطريق الشيخ القصة التى ذكر أبو الفرج الجوزىّ » ، وذلك أنه ذكر فى بعض تواليفه أن رجلاً دلّس كتاباً فى حق نفسه لبعض الأمراء على لسان القاضى . فبينما كان الأمير يقرأ الكتاب إذ دخل القاضى عليه . فلما لمح القاضى الكتاب ، وعرف قصته ، قال للأمير : « تأكيد حاجة هذا الرجل عندى أوجب عليّ أن أجيء بذاتى فى حقه ، بعد كتبى لهذا الكتاب » . فقضى الأمير حاجة الرجل . فلما خرج ، قال له القاضي : « حشا لله أن نقطع

---

(١) فى الأصل : البلوذى .

رجاء من علّق رجاءه بنـا » . ثم قال الجوزىّ : « يا رب ، وهذه الإشارة إليك ، فهذا فعل مخلوق فى مخلوق ، فكيف يكون فضلك ، يا كريم ؟ » .
فلما ذكرت أنا هذه الحكاية فى نفسى قـال لى الشيخ : « لقد كنت أستر عليه كما خطر لك ، ولكنى لمـا ارتهنت عنده فى لا ، لم يسعنى أن أرجع إلى تكذيب نفسى بعد إنكار الكتب » .

قال مؤلفه : وأولياء الله أبصر ، وللحق أنصر ، وعن الباطل أقصر .

١١

ومن حسن أخلاقه ورأفته وكثرة إشفاقه ومراعاة[١] خدّامه واستنقاذهم من البلاء ولحاقه

[١٥٨ ظ] وذلك أنى كنت فى حال الغفلة وزمان الفتوّة أحبّ الشيخ — رحمه الله — ، لبشاشته وحسن وجهه ، وعذوبة لفظه ، وكثرة التفاته لذوى الهيئات ولحظه . فإنه كان يعامل كل إنسان بصفته ، ويسع الناس صدره لاتساع معرفته حتى ألقى الله له فى صدور الخلق محبة مطلقة ، فقلّما تجد من يراه إلّا ونفسه به متعلّقة . فلذلك ، مذ عقلت لم أزل ألازم محاضره وأمتثل نواهيه وأوامره ، وأكتب عنه للرؤساء والأمراء فى رفع المظالم ، وقضاء حوائج الفقراء ، إلى أن وقعت يوماً فى هفوة لم يطّلع عليها خلق . ثم إنى اجتزت على الشيخ وهو قاعد عند بابه . فسلمت عليه ، فلم يردّ عليّ ، وأعرض بوجهه عنّى ، ورأيت وجهه يسودّ وبين حاجبيه عقدة . فراعنى منه ذلك ، وقلت فى نفسى : « ماذا طرأ على الشيخ ؟ » . ومضيت فى شغلى ، ولا أفطن ، ثم رجعت ، فوجدته كذلك ، ثم كذلك مرة ثالثة فى ساعة واحدة . ثم إنى تفطّنت أنه كوشف بى ، وأن تغيّره إنما هو بسببى ، وكدت أفنى خجلاً ، وعقدت التوبة بينى وبين الله فى منزلى وحدى ، واستغفرت الله . وخرجت فى بعض حوائجى ، فصادفت الشيخ — رحمه الله — فى موضعه ، ووجهه يتلألأ كالقمر . فبادرنى بالسلام ، وقال لى : « أهلاً وسهلاً ومرحباً . إلى أين يمشى الفقيه أبو العبّاس ؟ » . قلت له : « لحاجة كذا » . قال : « قم بنا إلى جنان الخطيب أبى القاسم بن حيّان » . فخرجنا إليه فى جملة

---

(١) فى الأصل : مراعات .

من حضر من الفقراء والطلبة . وكان ثم سماع وطعام ، وطاب الوقت وانبسط ، وارتفع ذلك الاستيحاش أو سقط . ولم أشعر ، إلّا بعد حين ، أن تلك الطيبة والخروج إنما كانت شكرانة الوقت من قبله ، وعلى جرى العادة من فضائل [١] عمله .

فانظر — ويرحمك الله — إلى هذه الحالة ، وما أجرى الله فيها من الخير دون تصرّف مقاله . وعند تذكّرى اليوم لما من أيامه سلف ، أنشدت على البديه ، إذ تجدّد [٢] عليّ الأسف [من الكامل] :

ولّى أبو [٣] مروان فذّ زمانه ... فغدا بأطباق الثرى مستودعا
وغدوت أروى بعده أخباره ... كي ما أكون بطيبها متمتعا
إنى لتغرينى شمائله به ... فأبيت صبّاً بعده متوجعا
ولو ان نفسى منه تؤخذ فى الفدا ... لبذلتها فى حقه كي ترجعا
هيهات يرجع للدنا ذو همة ... متبوّىء جنّات عدن موضعا
لكنّ من أضحى غريباً بعده ... مثلى جدير أن يرى متفجعا
[١٥٩ و] ما لى فقدت الأنس فى فقدانه ... ووجدت وجدى بعده متجمعا
ورأيت ما لا أرتضى من بعده ... وسمعت ما لا ينبغى أن يسمعا
فمن الوفاء بأن تسيل مدامعى ... ويظل قلبى بعده متصدعا
ولو اننى طاوعت ما بى من أسى ... لأزلت من كل الجوارح أدمعا
وشققت جيب تصبّرى لو لم أكن ... من حزب من لا ينبغى أن يخدعا
تالله لا أنسى جميل فعاله ... حتى أرى نحو البقيع مشيّعا

---

(١) غير واضحة فى الأصل وقد رسمت : يضامل (؟) .
(٢) فى الأصل : تحدد .
(٣) هاتان الكلمتان غير واضحتين فى الأصل ، وما اثبتناه أقرب إلى صورتيهما .

فلقــد نعمت بــه زمان حيــاته حتى تــوفّى فاغتـــديت مضيّعــا
وكـذا الدنا ما إن يحــلّ بغيضها حتى ينــادى بالترحـــل مسرعــا
فـكأن ما منهــا تقضى لم يكن وكأن فى الآتى بها لن يطمعا
فــكن ابن يومك إن فى يوم إذا لم تبك همـــاً مقبــلاً مستقنعا

١٢

وجرّت هذه الحكاية ما شاهد ببغداد ورأى
أيام اغتر[ب] عن أوطانه فى حال الشبيبة ونأى

حدّثنى — رحمه الله — ، قال : كنت قد وردت على الشيخ شليل بن مياح ببغداد زائراً له ، وكان شهر رمضان . فسلمت عليه وعلى الفقراء ، وقعدت . فلما صلّيت المغرب قال لى الشيخ شليل : « أنت لا تأكل هذا الطعام الذى أعدّ للفقراء ، ادخل معى إلى منزلى تفطر معى » . (فإن الشيخ أبا مروان كان فى تلك المدة لا يأكل طعام الخبز) . فقمت معه ، وكان بين منزل الشيخ والزاوية ساباط ، وكان فيه قنديل معلّق . فعندما مررنا بذلك الساباط ، وجدنا فيه شخصين على فاحشة ، وكان الموضع لا يدخله إلا الفقراء . فأطفأ الشيخ شليل القنديل بكمّه ، ومرّ وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » ، يردّدها مراراً . (قال الشيخ أبو مروان :) فتبعته وأنا أقول فى نفسي منكراً على الشيخ شليل : « بـ « ـلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » يغيّر المنكر ؟ ، أين القتل بالسيف ، أو بالسوط ، أو الحرق بالنار ، أين الرجم بالحجارة ؟ » وأنا فى أمر عظيم من الإنكار على الفريقين . (قال :) فلما أفطرنا قال لخادمه : « يا فلان ، قل للحمّاميّ يخلّي لنا الحمام فى هذه الليلة » . وكان الشيخ شليل لم يدخل الحمام منذ عدة من السنين . فذهب الخادم ، ثم جاء فقال له : « ترى الحمام خالياً » . فقال الشيخ : « يا فقراء ، الصلاة فى الحمام » . فخرجوا من الزاوية ، وأقرّنى الشيخ شليل بالزاوية ، [١٠٩ ظ] على اختيارى من تركى دخوله . فلما خرجوا من الحمام قال الشيخ شليل : « نحن على وضوء وطهارة ، فلنصلّ ركعتين » ، ثم قال : « قال الله

تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[1] » ، فلنتب إلى الله تعالى أجمعين » . فقالوا كلهم : « قد تبنا إلى الله تعالى » . فقال الشيخ لخادمه : « يا فلان ، تقدّم فاحلق رأسي » . فقام شخصان من جملة الفقراء ، وتقدّما بين يديه ، فقالا : « نحن من بلاد العجم . هذا ابن فلان وأنا ابن فلان ، وكنّا على ما لا يرضى الله ، إلى أن عرف خبرنا ، ففررنا من بلادنا ونحن على حالنا ، إلى أن عثر علينا فضربنا بالسياط (وهذه ظهورنا) ، فقلنا : « ما لنا إلا أن نبيع ثيابنا ، وندخل فى زيّ الفقراء ، وندخل معهم ونعاشرهم ، لنتستّر بهم ، ولعل الله يرحمنا بهم فننتقل عما نحن بسبيله » . فبقينا منذ ستة أشهر بين ظهور الفقراء فى الأسفار ، إلى أن عايننا الشيخ الليلة على ما لا يرضى ، وقد تبنا فى هذا الوقت إلى الله تعالى » . (قال الشيخ أبو مروان — رضى الله عنه — :) عاينت فى الجنّ نور التوبة يلوح على وجوههما . (قال :) ثم إن الشيخ شليلاً ردّ وجهه إلىّ وقال لى : « كذا يغيَّر المنكر . أنت مغربىّ الطبع ، ما أردت إلا بالسوط والسيف والحرق والرجم » . ثم إن أحد الشخصين المذكورين سافر مع الفقراء ، وبقى الشاب فى الزاوية . فلما كان بعد سنة جئت زائراً للشيخ شليل المذكور أنا وبعض الفقراء . فلما دخلنا الزاوية قام ذلك الشاب ، فقال لأحد الفقراء الذين وصلوا صحبتى : « أما تستحيي من الله تدخل زاوية الشيخ جنباً ؟ » . فقلت : « ومتى أجنب ، وهو قد صلى الصبح معنا ولم نفارقه إلى الآن ؟ » . قال : « صلى معكم فى موضع كذا ، وقد أصبح جنباً . وذلك الفقير الآخر مع ذلك الآخر صليا البارحة معكم المغرب فى موضع كذا ، دون وضوء خوفاً من البرد » .

---

(١) سورة ٢٤ ، آية ٣١

(قال الشيخ أبو مروان :) فقلت لذلك الشاب : « لم يعمل معك أنت كذلك ، أي لم تفضح كما فضحت هؤلاء » . (قال :) فقام الشاب ، فحطّ رأسه بين يديّ ، وذهب لركن الزاوية ، وقعد هناك .

قال مؤلفه : فسبحان من جعـل حركاتهم موزونة ، وبركاتهم لأوقاتها مخزونـة .

١٣

[١٦٠ و] ومما يدلّ على طريقته المباركة السنّية ورتبته الرفيعة القدر السنيّة

أن وصل الفقير محمد الشامىّ المهاجر إلى الشيخ — رحمه الله — برباطه بحجار السودان ، من خارج سبتة ، عام خمسة وستين وستمائة . وذلك أن هذا الفقير ورد عليه ، فتكلّم معه فى السرّ ، وقال له : « إنى كنت من نصارى الكرد ، وكنت أحب الفقراء وأسافر معهم أعواماً كثيرة ، وأنا أعتقد فى باطنى دين النصرانيّة ، إلى أن كنت نائماً ذات ليلة ببيت المقدس إذ قيل لى فى النوم : « قم فاذهب إلى المغرب ، وأسلم على يدي عبد الملك اليحانسىّ ، واخرج من هذا الدين المنجوس » (وكان لم يعرف الشيخ قطّ ولا رآه) . (قال :) فلم يقع عندى عزم على ما خوطبت به ، إلى أن رأيت فى الليلة الثانية كذلك ، ثم فى الثالثة ، إلى أن ألقى الله عندى العزم على ذلك وتوجّهت إليك » . فقال له الشيخ : « لعلك تريد لأن تسلم على يدي من له جاه وثروة ، وأنا ليس عندى شىء من ذلك . فإن أردت أن أعرّفك بأمير أو رئيس تنال بإسلامك على يديه ، ما تأمل فعلت » . فقال له ذلك المهاجر : « والله ، ما جئت إلا برسمك ، ممتثلاً للأمر ، وما قصدى شىء مما تشير إليه » . فسوّفه أياماً ، يريد اختباره ، فلما رأى الشيخ صدقه ختنه وعمل صنيعاً عظيماً ، وحضر أصحاب الشيخ من أهل سبتة وإخواننا الفقراء ، وكان يوماً من أعجب ما رأيت من الأيام . وما زال ذلك المهاجر على خير إلى الآن ، والحق بالحق والباطل يضمحلّ ، ومن يهد الله فما له من مضلّ .

١٤

وذكّرنى هذه الحكاية والقصّة
ما أقيّد تحت هذه الترجمة نصّه

وهو أن الشيخ — رحمه الله — حدّثنى أن فقيراً كان يعاشر الفقراء ، ويحجّ معهم ويزور المشايخ ، وكان يعرف عبد الله العكّي . قال الشيخ — رحمه الله — : فسافر معنا وزار المشايخ ، إلى أن وصلنا إلى الشيخ شليل بن ميـاح ببغداد . فدخلنا عليه ، وكان عبد الله العكي لا يتقدّم الفقراء عند الدخول إلى المشايخ [١٦٠ ظ] ولا يتـأخّر ، بل كان يدخـل فى وسط القوم . فلما جاء الدخول ، وهو ثالث داخل ، ووضع قدمه اليمنى داخل العتبة ، وهمّ بتنقيل اليسرى ، قال له شليل : « يا عبد الله ، يا عكّي ، ردّ قدمك اليمنى مع قدمك اليسرى خارج العتبة ، حتى تقطع الزنّار الذى شددته على وسطك تحت ثيابك ، معتقداً لبقاء دينك الفاسد » . قال : « نعم ، يا سيدى » . فأدخل العكى تحته يده وقطع الزنار ، ووقـع بين قدميه ، وقـال « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إيماناً بعد كفر » . قلنا للشيخ : « ما هذا ؟ لم يكن قبل مسلمـاً ؟ » . قال : « لا » . قلنا لعبد الله العكى : « ما هذا ؟ » قـال : « إنى كنت نصرانياً ، وكنت أقرأ كتب المسلمين ، فلما رأيت فيها ما يذكر عن هذه الطائفة من المكاشفات ، وخرق العوائد ، وإجابة الدعوات ، قلت : « إن كان هذا حقاً فهذا هو الدين ، وإن كان كذباً وزوراً فدينى أولى بى » . فعـاشرت هؤلاء ، وحججت معهم ، وزرت المشايخ ، والزنار على وسطي وأنا على دينى ، منذ ستة أشهر . فما عرفنى أحد ولا فضحنى إلى هذا الموضع » . فقال له الشيخ شليل : « إنك رأيت فى طريقك هذا ثلاثة عشر رجلاً كلهم شاهد الزنار على وسطك كما شاهد وجهك ، ولـكنهم تركوا الاعتراض على

مولاهم ، فيقولون : « أسلم » لمن [١] لم يبلغ وقت إسلامه ، ثم إنهم تخلّقوا بأخلاق مولاهم فى ستره على خلقه ، فلا تعتقد إلا أنى هو الفضّاح فيهم ، القليل التخلّق ، الضعيف من بينهم » . (قال الشيخ أبو مروان :) فلما رجعنا فى طريقنا ما زال كل واحد من تلك الثلاثة عشر رجلاً من المشايخ ، الذين كنّا زرناهم فى طريقنا ، يقولون : « يا عبد الله ، ما منّا إلا من شاهد الزنار على بطنك كما شاهد وجهك ، لكن تركنا الاعتراض على الله مولانا ، إذ كنت لم تبلغ وقت إسلامك » .

فسبحان من أقال كل إنسان ، فيما شاء من إساءة وإحسان ، وخص أولياءه بالمآثر الجميلة والصفات [٢] الحسان .

---

(١) فى الأصل : لمن لمن .
(٢) فى الأصل : الصفاة .

١٥

ومن أخبار رؤيته — رضى الله عنه — للطيّـارة ومخاطبتهم له بمـا خالج إضمـاره

[١٦١ و] ما حدثنى به — رحمه الله — قال : كنت قاعداً بقبـلىّ رابطة حجار السودان ، من خارج سبتة (حيث قبره اليوم) ، إذ فكرت فى الطيارة من أولياء الله كيف يطيرون فى الهواء ، وكنت أخيّل فى خاطرى أنهم يفتحون فى الهواء أذرعهم كما يفعل الطائر بجناحيها ، إلى أن سمعت فى الهواء انقضاضاً . فرفعت رأسى وإذا رجـل متربّـع ، عاقد يديه على ركبتيـه وهو يقول لى : « هكذا ، يا عبـد الملك ، هكذا » . فقلت له : « زادك الله من فضـله وإحسانه » . وأراد الرجل أن يمر على مضرب الشبكة ، ثم أكبّ إلى جبل الفتح بالأندلس .

تركوا اتّباع [الأهواء] (١) فمشوا على (٢) وطاروا فى الهواء .

---

(١) لم أستطع قراءة هذه الكلمة ، ولعلها ما أثبتناه .

(٢) تبدو هذه العبارة معقدة الفهم ، والظاهر أنها تنقصها كلمة ، ولعلها : الماء .

١٦

ومن طريف ما جرى له من النقلة
فى أسرع من إطباق الجفن على المقلة

ما حدّثنى به — رحمه الله — قبل مرضه الذى توفّى منه بخمسة عشر يوماً أو نحوها ، بقبليّ حجار السودان ، من خارج سبتة (حيث اليوم قبره) ، وقد وقعت مذاكرة ، ولا ثالث معنا ، إلى أن قال ، إذا ذكرت شيئاً مما أنعم الله به عليّ : «لا بدّ من النفس أن تحصرها وتشاهد عملها فتعاقب ، فان يحصر منكر فيتغيّر المحلّ» . فرأيت أن آخذ مع الناس فيما هم بسبيله وأطيب بما أنعم الله به عليّ فيما بينى وبينه . ثم انجرّ الكلام إلى أن وقع ذكر الأربعين يوماً التى واصلها بسبتة ، فقال لى : «أقول لك شيئاً والله ما قلته قطّ لأحد : كنت فى العشر الأول من تلك الأربعين يوماً مشغولاً مع نفسى فى مكابدة الجوع ، وكنت فى العشر الثانية فى شوق إلى مدينة النبيّ — عليه السلام — ، وكنت فى العشر الثالثة مع هؤلاء العالم ، وكنت فى العشر الرابعة فى حال لا أقدر أن أعبّر عنها . ثم إنى كنت فى كل يوم أترقّى أربعمائة مقام . (قال :) فجئت فى العشر الثانية التى اشتدّ فيها شوقى إلى النبيّ — عليه السلام — فلم أشعر ذات يوم إلا وأنا عند رأس قبر النبيّ — عليه السلام — أتشفّى بالتقبيل عند رأس القبر ، وسلّمت هناك على أبى العباس القسطلانيّ وأبى العباس الشريشى وأبى الطاهر الغماريّ وجماعة (ذكرهم) فى الفضلاء المجاورين هناك الذين كانوا من أحبّائى . ثم إنى وجدت نفسي بمنزلى [١٦١ ظ] فى سبتة» . فقلت له : «كيف كانت هذه النقلة ، أبالذات أم بالخاطر ؟ أمّا الخاطر [فالكل] (١) فيه سواء وكل وقت بذلك معمور ، فلم يبق إلا أن

---

(١) هذه الكلمة غامضة فى الأصل ، وقد كتبناها بالمعنى فى المتن .

يكون بالذات[1] » . فقال : « أما النقلة فصحيحة ، وأما الكيفيّة فلا أدريها » . ثم قال لى : « جاءنى رجل [من] لورقة زائراً ، وكان معى فيما سلف مجاوراً ، فقـال : « يا سيدى ، أكنت حججت أنت منذ عامين ؟ » . فقلت له : « لا » . قال الرجل : « إنى كنت سمعت منذ عامين أبا العباس القسطلانىّ وأبا العباس الشريشىّ وأبا الطاهر الغماريّ وغيرهم بالمدينة يقولون : « عجبـاً للشيخ أبى مروان ، منذ رأيناه هنا فى تلك الساعة لم نره بعد . ما نظنّه إلا سافر من حينه ولم يقم » .

قال مؤلفه : فتحقّقت أنا أن النقلة إنمـا كانت بالذات ، إذ هي أغلى فى بلوغ الآمال السنيّة واللذات .

(١) فى الأصل : بالذاة .

١٧

ومن جبره — رضى الله عنه — للقلوب المنكسرة من أجله ودليل سبق قدمه فى هذا الطريق وفضله

حدّثنى أبو جعفر الشيرولىّ قال : قصدت من غرناطة لزيارته وأنا لا أعرفه قبل ذلك ، وكان من رفقائي محمد ولد بكرون الزيّات . فكان يقول لى فى الطريق : « أدر كيف تدخل على الشيخ ، لا تحسب هذا ممن رأيت . إياك أن تتكلّم ، إياك أن تنظر » ، (قال :) حتى وصلت وأنا أهاب لقاءه . فلما لقيناه أنا وأصحابى بادرنى بالترحيب والتأنيس وأجلسنى بإزائه . فلما بتنا فى السماع تلك الليلة جذبنى للطابق وقال لى : « ادخل ودع ذلك الحية » (وأشار لولد بكرون) . ثم جذب سائر رفقائى وبقى ابن بكرون مقبوضاً خجلاً باختصاصه بالإهمال ، خلاف ما كان عليه من الإدلال .

١٨

ومما حدثنى به من طريف الأخبار
ومشاهدته خرق العادة لبعض الأخيـار

قال : كنت فى أول مقدمي من الشرق بيحانس ، إذ ورد علينا ، فى جملة من ورد ، فقير . فاقتضى نظره يومـاً أن جمع أسبابـاً كانت لربيبتى فى خزانتها ، وجعلها فى عدل وانصرف بها ، ولم يدر أحد . فلـما عرف بذلك خرجت لأتبـع أثره ، ولم أدر على أي طريق أخذ ذلك الفقير ، إلى أن وجدت خاطرى على طريق عبلة ، فتبعته . فلما ألحقته فى بعض الطريق سلمت عليه وسايرته ، ثم تقدّمته وتركته ، [١٦٢ و] ولم أقل له شيئاً . ثم إنه قال لى : « خذ عدلك وأسبـابك ، فقد أثقلتنى » . فقلت له : « دعها » . فأخذتها وانصرفت ورددتها للدار . وبقى من ذلك فى طيّ سرّ والدي شيء ، إلى أن اتّفق بعد ذلك أن كنت بسبتة فنزلت بحفرتها القراقر ، محاصرة لهـا فى البحر . فسافرت فى ذلك الوقت للأندلس ، وكنت قلت للحاجّ ابن قريعات المحدّث — رضى الله عنه — : « عسى أن تكتب لى للأندلس بما يطرأ يوم كذا من شهر كذا على هذه القراقر » . فلما كان فى ذلك اليوم طرق القراقر نوء ورياح ، فوقّعتها وقلّعتها وأثّرت فيها ، وكفى الله المؤمنين القتـال . فقال الحاج يوم الجمعة بعد قلوع القراقر ، وهو فى الجـامع بعد الصلاة ، لمن حضر من الفقراء : « هنا من يمشى إلى الأندلس ، أبعث معه كتاباً إلى الشيخ أبى مروان ؟ » . فقال له شاب من الفقراء يعرف بالقصريّ : « أنا أحمله » . فمشى ذلك الفقير [مع] الحاج إلى داره وجعـل له ما أ كل خـلال كتبه للكتاب . ثم طبّع الكتاب ودفعه للفقير ، وذلك كله بعد صلاة الجمعة ، آخر جمعة من شهر رمضان . (قال الشيخ أبو مروان :) فبينا أنا بباب دارى بيحانس

إذ ورد ذلك الفقير عليّ قبل صلاة العصر فى ذلك اليوم بالكتاب . فقرأته وظهر لى من تأريخ الكتاب وصول الكتاب من سبتة إلى يحانس فى ساعة واحدة . فلم يتعاظم ذلك عندى ، إذ فى القدرة ما هو أعظم من ذلك . وأخذت الكتاب وقرأته ودفعته لوالدى — رحمه الله — . فلما قرأه طاش ، فقلت : « أخرج هذا لذلك الذى أخرج الأسباب من الدار » . وبقى عندى ثلاثة أيام ولا ذكرت له أنى علمت بتاريخ الكتاب وخرق العادة فى وصوله من ساعته مسيرة عشرة أيام ، إلى أن سافر . فلما جئت سبتة ذكرت القصة للحاج وأريته الكتاب والتأريخ وصحّحه ، واهتاج وبكى . فقلت له : « أدخل دارك وأكل طعامك ؟ » . قال : « نعم » . قلت له : « يكفيك » . وما زال الحاج يبكى ويقبض يده على لحيته أسفاً على ما فاته من حظوظ خاصّة الله وأوليائه . ثم عطف على نفسه يخاطبها منبسطاً : « ما هذه الهزيمة(١) على أولياء الله وأهل الحظوة يحملون كتبى ويتصرّفون فى حوائجى ، أليست هذه لى من الكرامات [١٦٢ ظ] وخرق العادات ؟ » .

[قال مؤلفه :] رضى الله عن الجميع ، ونفعنا بكل متّق لله مطيع ، وصنع لنا ولهم خير صنيع بمنه .

---

(١) كذا فى الأصل ولكنها بدون تنقيط .

١٩

ومن شرف ذاته — رضى الله عنه — وحسن خلقه
وسنىّ سيره الجميلة ورفيع طرقه

وذلك أنه بقى أعواماً ثمانية لا يأكل الخبز ، وبقى تسعة لا يشرب الماء ، وكان فى بعض تلك الأعوام لا يأكل إلا حشيش الأرض . وكان فطره من ثلاثة أيام إلى مثلها ، مع كثرة أسفاره ، إلى أن وقعت ذات يوم مذاكرة فى طريق خدمة الإنسان أصحابه وبركة ذلك على فاعله . ثم قال لهم : كنت ببرقة مع جماعة من الفقراء والحجّاج إذ مرض منهم ثلاثة ، وكانوا سبعة عشر رجلاً . فحمل الأصحّاء زاد المرضى . ثم وقع بينهم كلام ، وقال الأصحّاء للمرضى : « لستم مرضى ، وإنما تمارضتم لنحمل أزوادكم » . وتشاجروا فيما بينهم ، فحلفت ألا يحمل أحد من الجمع زاداً غيري . فكنت أسير بهم ، فإذا نزلنا عجنت لهم وطبخت الخبز ، وقدمت لهم طعامهم وماءهم ، وقعدت ناحية . فإذا فرغوا رفعت زادهم على ظهري ، حتى خرجنا من الصحراء . ثم إن العرب خرجوا علينا ، فطلبوا منى [الذهب] (١) دون رفقائى . فقلت لهم : « نحن فقراء مغربون ، ما عندنا شىء » . فقالوا عن أصحابى : « هؤلاء هم الفقراء المغربون الذين عليهم أثر التعب والشمس . أما أنت ، فلا . إنما أنت من التجّار الذين سقطوا هنا » . وتعبت معهم وعذّبونى ، وحينئذ تخلّصت منهم . فتلك النعمة التى ظهرت لهم عليّ إنما كانت بركة خدمة أصحابى .

فكذا يا أخي يكون التأديب للناس والسياسة ، لا بكثرة الأوامر والرئاسة . وفى مثل هذه الأخلاق الكريمة ينبغى أن تكون النفاسة .

---

(١) فى الأصل غير واضحة ولعلها ما أثبتناه .

٢٠

ومن دليل اعتناء الحق به فى تأدّبه وتصفية باطنه — رضى الله عنه — وتهذّبه

ما حدثنى به ، قال : كنت بمصر لا آكل إلا من حشيش الأرض ، من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام . ففكرت ذات يوم فرأيت أنى أزاحم الناس فى دنياهم ، لكون ذلك الحشيش مما تأكله بهائمهم . فبقيت فى الجامع ثلاثة عشر يوماً ، لم أطعم شيئاً . فأشارت [١٦٣ و] عليّ النفس أن أطلع إلى معبد موسى لآكل من شجر المثنان الذى هنالك . فأجبتها إليه ، إذ المثنان مما لا تأكله البهائم ولا تذوقه . فطلعت فأخذت من المثنان قبضة . فقالت لى نفسي : « الغوث ! ، ردنى إلى الجامع » . فرددتها إلى جامع مصر . فأقمت ثلاثة عشر يوماً ، ثم قالت لى : « طلّعنى للمثنان » . فطلعت فأخذت منه قبضتين وعافته . فرددتها للجامع . فأقمت ثلاثة عشر يوماً ، ثم عرضت نفسى عليّ المثنان . فطلعت فأكلت منه ثلاثة قبضات ، حتى ألفته وصار لى غذاءً . فخرجت يوماً برسم الطلوع له على جري العادة ، فمررت فى طريقى على دار أبينا حجاج ، وكان من جلّة المشايخ — رضى الله عنهم أجمعين — ، فصادفته واقفاً ببابه . فسلمت عليه ووقفت معه ، فقال لى : « ادخل تأكل الفول بالسمن ، فإني صنعته برسمك » . فلم يقدر عليّ ومشيت إلى المعبد ، فأكلت المثنان ، واستلقيت على جنبي أذكر الله . ثم إن النفس تفلّتت ، وأعجبها حالها ، وقالت : « ليس فى الوقت على قدمك . أين منك فلان وفلان وفلان فى المجاهدة ؟ » . قال : ثم غلب عليّ النوم ، فرأيت رجلين وقفا عليّ . فقال أحدهما لصاحبه : « ما هذا ؟ » . قال : « هذا فقير جليل » . قال له الآخر : « لا » . قال : « فما هو ؟ » . قال : « ثور من الثيران أو خازن من

الخزان » . قال له « كيف ؟ » . قال : « الثور إذا حلّ من المحراث لم يبال ما يلفّ من رطب ويابس ، وهذا مثله ، ويظنّ أنه قد زهد فى الدنيا وما فيها مما ينتفع به ، وهذا المثنان قد صار له معلوماً ، يستند إليه كما يستند أبناء الدنيا لدنياهم ولما فى اختزانهم » . قال له : « فما كان يصنع ؟ » . قال : « لا يميل إلى جهة ، ولا يستند إلى معلوم ، بل لا يشاهد فى الإعطاء ولا فى المنع إلا الله . ينبغى أن يبقى على عهده فى ترك الخبز والماء . وإذا أعطاه أحد شيئاً من الطعام ، من غير مسألة ولا استشراف نفس ، فليتناول ذلك ويبقى على ترك الخبز والماء ، إن شاء الله » . (قال الشيخ أبو مروان :) فلما أفقت ونزلت للجامع ، مررت فى طريقى على أبينا حجّاج . فلما وصلت لبابه وجدته واقفاً ، فقال : « تأكل الفول بالسمن ؟ » . قلت : « نعم » . فدخلت ، فقال لى المقالة التى سمعت من الشخصين . فقلت له : « لعلك كنت أحد الرجلين اللذين وقفا على » . [١٦٣ ظ] فتبسم وقال لى : « كل الفول بالسمن » .

قال مؤلفه : فانظر — يرحمك الله — تأديب الحقّ لأوليائه ومساواتهم بين نعمائه وبلائه .

٢١

ومن دلائل لطف مولاه به واعتنائه
وعلى أنه من خاصة أحبابه وأصفيائه

ما حدثني به — رحمه الله — ، قال : كنت بالإسكندرية أرتب فى المقابر بالليل ، وأجلس مع الفقراء بالنهار ، لطلب الفائدة ، فإن المسح عند لابسيه قبر ، فلا يأوي صاحبه إلا إلى المقابر ، وكنت تاركاً للخبز والماء فى تلك المدة . فكنت ذات ليلة فى المقابر إذ أصابنى جوع عظيم وشهوة إلى الطعام ، خلاف العادة . ثم التفتّ ، فإذا أنا بخبزة من خبز العلامة ، وقدر من اللحم الطبيخ ، وكل ذلك سخن . فقلت فى نفسى : « هذا الكون قد أراح الله من تعب الجوع » . فعضضت فى الخبزة ، ولم التفت لما فى القدر ، من شدة الجوع ، فى الوقت . فأصابنى على الفور وجع فى الساق حسبت أنه قد انكسر . فلفظت اللقمة من فمى ، ورميت بالخبزة من يدى . ثم سكن الوجع ، فطلبت الخبزة والقدر ، فلم أجدهما . فلما أصبحت دخلت الزاوية على الشيخ أبى العباس الشاطبىّ المعروف بالرأس . فقال لى : « يا عبد الملك ، إن فى أولاد إبليس خبازين وطباخين يأتونك بالخبز واللحم سخناً » . فقلت له : « أطعام إبليس كان ذلك ؟ » . قال : « نعم . إذا ترقّى العبد من مقام إلى مقام ، إن لم يحفظه الله والا تزندق . فلولا حفظ الله لك بذلك الألم الذى أصابك ما أفلحت أبداً » .

قال مؤلفه : فانظر تعتبر ، ولا تدخل على أولياء الله لتمحّص وتختبر .

٢٢

ومن تأييد الله له بالحجبة على المجموع
ونصره إياه عليهم بالقول المسموع

ما حدثني به — رحمه الله — قال : وقع حديثي عند أشياخ مصر وفقرائها ، وما أنا بسبيله من الجوع وترك الخبز والماء . فقال الشيخ أبو الحجاج الأقصوري : « لو رأى رجلًا لردّه لأكل الخبز ، وإنما هو لم ير رجلا فى أسفاره » . فوقع رأيهم على أن وجّهوا عنّى ومدّوا السماط وقعدوا فى انتظارى . وكان الذى انبرى لأن يردنى للأكل والشرب الشيخ أبو الحجاج ، [١٦٤ و] ولم يخل فى هذه الحركة من نفس . فلما دخلت عليهم ، والملك الكامل بالحضرة معهم ، فقال لى الشيخ أبو الحجاج : « يا عبد الملك ، ادخل . ليس يسوى المجلس قدر كنسه ؟ الفقراء والمشايخ فى انتظارك وأنت لا تجىء ؟ » . (قال :) وكنت شابًا ، أخجل من الكلام بين اثنين ، فقلت له : « قدرهم أجل من أن يحقروا من انتظروه من أجل الله . وإن لم يكن انتظارهم من أجلّ الله فالمجلس لا يسوى شيئاً ، لا قدر كنسه ولا أقل من ذلك » . (قال :) فقال لى الشيخ أبو الحجاج : « كل » . قلت له : « لا » . قال مرةً ثانية : « كل » . قلت : « لا » . قال أحد الحاضرين : « ألست تدرى من يكلّمك ؟ » قلت : « نعم . من تجرى عليه الأقدار بما أحبّ وما كره » . (قال :) فقال الملك الكامل ، وهو جالس فى وسط المجلس : « أ فى وجه الشيخ ترد ؟ » . قلت : « ومن هذا الذى يكلمنى ؟ » ، (كأنى لا أعرفه) . فقالوا : « الملك يكلمك وأنت تقول « من هذا » ؟ » . قلت : « أنا أراه وضع شاشْ علامْ[١] على رأسه وقعد فى صدر المجلس كأنه ناظر فى أحكام

---

(١) كذا فى الأصل .

اللصوص والقطّاع » . (قال :) فقام الملك ونزع ما فى رأسه وجعل فى رأسه قلنسوةً صفراء على شكل بطيخة ، وقعد عن يمين الداخل المجلس . (قال :) وطال هناك الكلام ، ولو جئت بالدرّ ردّ فى وجهى تعصُّباً وحظوظ نفس ، إلا أبو ملوكة ، أحد جلّة أصحاب أبى مدين — رضى الله عنه — ، فإنه كان يصيح : « احذر قطاع الطريق » . وكان من قولى لهم هذا : « الخبز فى أكله ثواب وفى تركه عقاب ؟ » . قالوا : « لا » . قلت : « فما القصد فى أكله ؟ » . قال الشيخ أبو الحجاج : « إنما يؤكل لقيام به هذا الهيكل لإقامة أداء الفريضة » . قلت له : « إنى عندى مع تركه فضل قوّة أسافر بها وأنقل زاد من أعيا من الفقراء ، وهذا غير ضروريّ عليّ » . قال : فلما طال المجلس ، والسماط ممدود ، لم يمدّ أحد يداً ، قلت لأبى الحجاج : « عزمت على أن تردّنى لأكل الخبز وشرب الماء ؟ » . قال : « نعم » . قلت له : « أشترط عليك شرطاً » . قال : « اشترط ما شئت » . قلت : « أنا كثير الأسفار ، ومن عادتى أنى لا أنقل زاداً . فحيث جعت تطعمنى ، وحيث عطشت تسقينى » . (قال :) فصاح الشيخ أبو الحجاج صيحة [و] خرّ مغشياً عليه . فلما أفاق قال للحاضرين : « أنا أستغفر الله من التعدّي على مقام هذا الفقير بحظّ نفس ، وهو صادق فى طريقه ، وعليّ شكرانة ترضى الفقراء » . فقام الملك ، فقال : « عندي مما ورثت عن أبى مال . فأنا أتكفّل بهذه الشكرانة [١٦٤ ظ] عن الشيخ » . (قال :) فبقينا نصف شهر فى تلك الشكرانة وانفصلنا .

قال مؤلفه : فسبحان من هيّأهم على نحو السابقة منه مطلبهم ، ويسّر عليهم فى حق مرضاته تعبهم ، فلم يتعدّوا ما قسم لهم ووهبهم . قال الله تبارك وتعالى : « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ »(١) .

---

(١) سورة ٧ ، آية ١٦٠ .

٢٣

ومن شيمه الحميدة وأخلاقه الكريمة
ومؤانسته لذي المودّة السليمة

أنى كنت شديد الإفراط فى حبّه والحرص على قربه . فكان يحبّبنى قبالة حبيّ له ، ويظهر ذلك بحكم ما غصّ به من الفضيلة . فاتّهمت مرّة أنه نقل له عنّى ما يوجب الاعتذار أو الاحتجاج عن نفسى على طريق الانتصار . فأقمت ساعة منتظراً للخلوة والقرب لأوقع الكلام ، وأنا قاعد إلى جنب . فرفع رأسه إلىّ وقال : « لا عليك ، فالمحبوب لا يضره ذنب » .

ولقد ذكر يوماً عنده الأولاد . فقال لى : « ترى يولد لك ولد ذكر ؟ » . وكانت أمّ أولادى حامــلاً فى ذلك الوقت ، فولد لى محمد . ثم قال لى : « تحبّ الأولاد ؟ » . قلت له : « لا » . فقـال لى : « إنهم سيكـثرون عليك » . فكان كما قال . ولقد قال لى يوماً عن بنتى فاطمة ، التى دفنتها بسلا ، وهى إذ ذاك صغيرة : « سيكون منها شابة صالحة » . فلعمري ، لقد كان كما قـال .

٢٤

وفى مثل ذلك من الستر والتنبيه على الإقلاع
وتسبيب النفع لأحبابه بالكشف والاطّلاع

وذلك أنى كنت كثيراً ما أتردّد لباب داره ، وأجري فى أغلب الأوقات على اختياره ، وإن كنت لا أعرف حقيقة جلال مقداره . فاتّفق ، بحكم الفتوّة ، وفى زمان الجفوة ، بأن وقعت سرًّا فى هفوة . فدخلت عليه بالجامع ، وهو مع أحد أصحابنا وخاصّة من خواصّ أحبابنا . فلمّا سلّمت عليه وقعدت إليه قال : « عجباً لقوم يقعون فى المعاصى مع الواقعين ، ثمّ يتعاهدون مواضع الصالحين » . فتفطّنت لما كان منّى فى الوقت وتذكّرت فجوّدت التوبة مع الله فى نفسى فى الحين واستغفرت . فقال الشيخ — رحمه الله — على الفور : « إن هذه الأمة أمة مرحومة ، لا ينبغي أن يعيَّر أحد منها بذنب ، فإنه [١٦٥ و] من أهل الكرامات » .

٢٥

ومن كراماته نزول المطر عليه من السماء
حين منــع الوضوء من بئر تشميس بالمــاء

حدثنى — رحمه الله — قال : بتنا ليلة فى جامع تشميس . فلمّا أصبح جاء أهل الموضع بركوة وحبل ، فاستقوا وتوضّأوا . فطلبنا لهم الركوة والحبل ، نستقى به ونتوضّأ ونصلى الصبح مع الجماعة . فأبوا ومرّوا وتركونا . فاستلقى فقير منّا على ظهره وقال : « يارب ؛ إن أعطيتنــا ماء توضأنا وصلينا مع الجماعــة ، وإلا ترانــا رقوداً حتى يفتح باب الحصن » . (قــال :) فجاءت سحابة ، فصبّت على الجامع حتى طلع الماء فى الصحن لنصف الساق . فتوضأنا وصلينا مع الجماعة . فلما خرج الناس لم يجدوا أثر ماء بخارج الجامع إلا رذاذاً ، ولا وجدوا بخارج الحصن أثر الشىء . فاستقى ذلك الماء[١] على وجه البركة حتى نفد ، وكان فصل الصيف . فلما رأينا ذلك طلبنا مخرجاً من الحصن ، فلم نجـد إلا موضعــاً فى السور ، كانوا يرمون منه الأزبال ، حتى استعلت مع خارج السور . فترمّينا[٢] منه وانصرفنا .

قال مؤلفه : كان الشيخ — رحمه الله — ، على ما جربت منه ، إذا قال طيّ[٣] الفقير ، ولم يسمّه ، إنمــا كان يعنى به نفسه . فإن التستّر فى حلّ الصحو من رفيع المقامات ، وفى حال الشكر لا يعترض لظهار الــكرامات . ومن عامل الله تعالى بالصدق ، لم يبخل عليه بالوابل الودق .

---

(١) فى الأصل : الماء ذلك الماء .
(٢) كذا فى الأصل .
(٣) وردت فى الأصل هكذا : طر ؟ .

٢٦

ومن كراماته الطريفة الوجود
تسخير الله فى حقّه للأسود

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت بجبل لبنان ، فأصبح ذات يوم ثلج وبرد شديد ، ولم يكن عليّ إلا مسح شعر ، لا يلتصق بى ولا يمنع عنّي من البرد شيئاً . فقالت لى النفس : « تيمّم بالتراب ، وإلا تموت إن خرجت » . فأرغمت أنفهـا ، وخرجت إلى العين . فلـما وصلت إليه قالت لى نفسى : « اغسل أعضاءك مرة مرة ، يكفيك » . فألقيت نفسى فى العين ، وانغمست فيه . ثم توضأت . فقالت لى نفسى : « بادر المغارة ، فإنها أدفأ من المسجد » . فلم أزل أجرى فى الثلج وتصيح « الغوث ! » ، من أجل ركون النفس للراحة وقـلّة مساعدتها ، إلى أن غشي عليّ . وبقيت هنـاك ملقى . ثم قال الشيخ — رحمه الله — [١٦٥ ظ] وهنا سكت ، ولم يزدنى على ذلك .

فلما كان بعد أعوام ثمانية ، أو نحو ذلك ، اجتمعنا بدار بعض أصحابنا . فجرت مذاكرة إلى أن قال الشيخ : «كان فقير بلبنان ، اتّفق له كذا ، وجرى له كذا . . . » وذكر القصة . فلما وصل إلى قوله : « وهنا سكت » ، قال : فجاءت لبؤة فـألقته على بطنها ، وافترش فوقه أسد حتى دفىء ذلك الفقير وأفاق ، ووثب الأسد واللبؤة إلى ناحيـة ، وانصرف هو إلى موضعـه حيث كان .

قال مؤلفه : فحينئذ حصل لى فائدة ما أخبرنى به منذ ثمانية أعوام ، مما خصّه الله به من العناية والإكرام . نفع الله بخدمته ولا أخرجنا من كنف عنايته فى الحشر وحرمته .

٢٧

ومن كراماته الرفيعة الجليلة المقدار
ومجاهدته التى قلّما لأحد عليها استقدار

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت أرتب فى هرم من أهرام مصر ، إلى أن بلغت من العطش ومن الجهد بحيث لم يبق منّى إلا رسم كالخيال . ولو وضع ما أقشّر من فمي من الجلود فى عدل لملأته ، لكونى كنت لا أشرب الماء ، مع شدّة حرّ مصر . وكنت أبقى مطروحاً ، حتى يجىء وقت الصلاة ، فأقوم كأنشط عند ما تجد الإنسان عند ما يدعوه محبوبه [١] . ولقد سمع بى ابن سُراقة المدّسِ ، فوكل بى من طلبته من يطالع أحوالى عند أوقات الصلوات . فلما رأى حفظى لها جاء ابن سراقة المذكور زائراً ، فى جملة تلاميذه ، وأخبر أنه جعل من يراعى أحوالى ، وحينئذ أتانى .

فلما أشرفت على الهلاك ، أرى بين السماء والأرض أشخاصاً بيضاً كالرخام ، وهم يقولون : « يا ربنا ، اقبل شفاعتنا فى عبد الملك » . فكنت أسدّ أذنيّ بأصبعى وأغطى على عينى ، لئلا أسمعهم وأراهم ، مخافة أن يكون ذلك من قبل إبليس مثل قصة الخبز واللحم بالإسكندرية [٢] . (قال :) والأصوات فى خلال ذلك تزداد حتى سمعت قائلا يقول : « قبلتْ شفاعتكم فيه ، فليشرب الماء » . (قال :) فرأيت أمامى نقرة فى الحجر فيها ماء [٣] [١٧٤ و] صاف أخضر على قدر ما يروي العاطش . فقيل لى : « اشرب » . فتوقّفت . فقيل لى : « سمّ الله واشرب » . (قال :) فشربت حتى رويت . ثم قلت فى نفسى :

---

(١) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل .
(٢) يشير إلى القصة التى وردت من قبل فى ص ٥٥ .
(٣) تلى بقية القصة فى ورقة ١٧٤ و ، لغلط فى تجليد المخطوط .

« ما أراد الله منيّ إلا شرب الماء حيث ما كنت » . (قال :) فسمعت قائلا يقول : « قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : من رزق من باب فليلتزمه » . فعلمت أن المراد بقائى على ترك الماء . (قال :) ثم إنى أصبحت وقد امتلأت باللحم حتى تفتّقت جوانب المسح من ضيقه على ، وكنت أتوضأ فى النيل ، فأنظر إلى عظم ذراعى تحت صفاء اللحم حتى استترت عظامى بعد ذلك بمدة . ومن كان يعرفنى بالأمس يرتاب فيَّ إذا رآنى .

(ثم قال :) إنى دخلت على الشيخ أبى الحسن بن قفل ، فذكرت له القصة ، وطلبت منه الجواب على ذلك . فقال لى : « مقام لم أبلغه أستحي من الله أن أتكلم عليه ، ولكن عليك بأبينا حجاج » . (قال :) فقصدته وسألت منه الجواب . فقال : « أستحي من الله أن أتكلم على مقام لم أبلغه ، لكن عليك بأبى الحجاج الأقصورى » . فطلعت للأقصوريّ حق الاجتماع به . فلما كنت بالصعيد لقيت ذات يوم جمعاً من الفقراء ، فسألتهم عن الشيخ أبي الحجاج ، فذكروا أنهم تركوه خلفهم وهو جاءٍ . فتقدمت للقائه ، فلما وقع بصره عليّ بدأنى بالكلام وقال : « كتب الله خطاك فى علين [١] الناس كلهم ستة أشبار [٢] يلبسون [٣] . والله ، ما عندي فى المسألة إلا ما عند أبى الحسن بن قفل وأبينا حجاج ، ولكن عليك بأبى محمد صالح فى آسفى » . (وكان الشيخ أبو محمد قد اعتقده أبو مروان شيخاً وقدوة فى أول خروجه من بلده للمشرق ، ولم يكن رآه قط) .

(قال أبو مروان :) فلما دخلت رباط الشيخ بآسفى وجدت الشيخ أبا محمد يتكلم على أصحابه فى الميعاد . فقعدت حيث انتهى بى المجلس فى أخريات

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها : أعين .
(٢) (؟) ، وفى الأصل : اشيار .
(٣) كذا فى الأصل .

الناس . فما زال الشيخ أبو محمد يجرّ الكلام إلى أن ذكر قصتى ، وأخذت منه فائدتى التى جئت فى طلبها . ثم سلمت بعد ذلك عليه ، وجددت عهداً به ، وما سألته عن المسألة بعد ذلك إلى الآن . وبقيت عنده إثنى عشر يوماً ، ما دخلت فيها منزل أحد من أصحابه ، وما دعانى ، بل كانوا ينظرون إلىّ شزراً ، بخلاف أهل المشرق . فلما انصرفت عنه ، قال لى : « بالله جئت ، وبه تمضى » .

(قال الشيخ أبو مروان :) ولقد ذكر لى الشيخ أبو محمد أشياء مما جرى لى فى الشرق وفى الطريق كأنه كان معى ، وذلك أنى كنت [١٧٤ ظ] بمصر وقد شهر لى بها ذكر ، وكان هناك أبو القاسم عبد الرحمان بن الفراش من المشايخ(١) وكان عند أهل زمانه كبيراً : كانوا يقولون عنه إنه لو قعد للناس لأفادهم ، لأنه كان يأخذ عن الله — عز وجل — . (قال أبو مروان) فاتفق أن زرته يوماً ، وقال لى : « معى فى الدار شابة ، لها ثمانية عشر عاماً ، قائمة الليل ، صائمة النهار . فلما كان أمس ، قالت لى : « يا سيدى ، من ذا يكون عبد الملك اليحانسى ؟ كنت أسمع مخاطباً يقول لى مرة بعد مرة : « قولى(٢) لسيدك يأخذ عبد الملك اليحانسى إليه » . ثم سمعته أنا كذلك . فأنا أريد أن تتقيد لى » . فقلت له : « أنا قد اعتقدت الشيخ أبا محمد صالحاً ، ولا يقتضى الطريق أن أنزع عنه وأعتقد غيره ، ولا يمكنني أن أعتقد شيخين ، ولكن إن أردت أن أخدمك ، أتجرّد لخدمتك » . وكان فى ذلك كلام لم يقع بوفق أبى القاسم ، وقلت له : « أنا كنت أولى أن أخاطب وأومر بأن أتقيّد إليك وأن أكون الخاطب فى ذلك » . فانفصلنا على غير طيبة ،

---

(١) وردت فى الأصل : المش . . . ، ولعلها كما أثبتناها فى المتن .
(٢) فى الأصل : قل .

وهددنى ، وقال لى : « تراك معى فى الديار المصرية » . (قال :) فلما كان وقت اجتماعى بالشيخ أبى محمد صالح قال لى : « أرأيت يوم أراد أبو القاسم ابن الفراش أن يتسنّاك وتوعّدك ؟ كذا كان سيفى عليه فى ذلك اليوم مسلولًا » . وأشار بأصبعه ، وقال : « لو زاد أو نقص كنت أبريه » .

وكذلك ذكر [أبو مروان] — رحمه الله — قال : لما وردت المغرب فى تلك السفرة وجدت بلاد المغرب قد اضطرمت ناراً واستولى الجوع بها حتى أهلك العالم ، فوجدت فى الطريق رجلين من البربر قد تساقطت شعورهما وأنتنا ، وقاربا الهلاك من الجوع . فأرادا أن يأكلا فلم يقدرا . ثم إنى لحقتنى عليهما شفقة ، فقلت فى نفسى : « دعنى أشبعهما من هذه البضاع » . فعدت إليهما ، وقعدت بينهما ، فعضّ أحدهما فى كتفى واستخرج الدم ، ومصّ ، وعضّ الآخر ، ولم يقدر على شىء . ثم قلت : « لعلى أسأل على إطعامى إياهما الحرام » . فوضعت يدي على أكتافهما وتركتهما . (قال :) فلما اجتمعت بالشيخ أبي محمد ، قال لى : « الحمد لله حفظك بالسنّة عن أن تطعم الرجلين اللذين نفرت[1] بينهما الحرام بموضع كذا وكذا » .

(قال الشيخ أبو مروان :) ولما رأيت أصحاب الشيخ أبى محمد ، ظهر لى فى أخلاقهم نقص بالإضافة لما عهدت عليه أهل الشرق ، ورأيت الشيخ [١٧٥ و] من أحسن الناس وجهاً ، إلا أنى ظهر لى نقص فى لحيته ، فقلت : « ما أملح هذا الرجل لو كان كامل اللحية » . ثم إنى تفطّنت لأصحابه ، فرأيت كل واحد منهم يخرج من بيته فى الرباط ويمشى على بيوت الرباط يسأل الدعاء من أصحابه ، فاستحسنت ذلك منهم . فلما دخلت على الشيخ أبى محمد ، رأيت لحيته قد كملت ، فجرّ يده عليها ، وقال لى : « يكفيك منها هذا القدر ؟

(١) كذا فى الأصل .

إنك لما نظرت لأصحابى بعين النقص ، ظهر لك النقص فى وجهى ، ولما نظرتهم بعين الكمال ، ظهر لك فى وجهى » .

قال مؤلفه : رزقنا الله الأدب مع الرجال ، وجعلنا ممن نظر إليهم بعين الكمال .

٢٨

[١٦٦ و] ومن مكاشفاته — رحمه الله — بالبواطن ومراعاته للنــازح من معارفه والقاطن

وذلك أن محمد بن على السكان ، خازن الطعام بوادى آش ، حوسب على أعوام ، فشطّ قبله السلطان أربعون ألف قدح . وكان السعر ، إذ ذاك ، غالياً . فثمّنت الأقداح عليه بأربعين ألف دينار ، وسجن فيها بغرناطة . فكتب لابن عمه محمد بن يحيى السكان ، ولأهل البلد ، وللشيخ أبى مروان — رحمه الله — ، وهو يرغب من الشيخ أن يكلّم أعيان البلد فى أن يضمنوا عن الخازن المذكور للسلطان الأقداح المذكورة لأربعة أعوام ، حتى يؤديها من غلة أملاكه بوادى آش ، وأن يكتب الشيخ للسلطان فى أن يسقط عن الخازن التثمين ، ويتركها عليه حبوباً مقسطة على أربعــة أعوام . وكان هذا الكاتب محمد بن يحيى يخفّ فى حوائج الشيخ عند الرئيس ، إذ جاءه مظلوم بشكوى يرغب فى بذل جاهه عند الحاكم . فجمع محمد بن يحيى المذكور أشيــاخ البلد فى ناحية من الجامع ، وجاء بالكتب للشيخ . فقرأها ، وصعب عليه الدخول فى هذه القضية ، لكبرها وتكليف أهل البلد هذا الضمان ، [١٦٦ ظ] والكتب فى هذا كله إلى السلطان . ولزّه ابن عم الخازن المذكور ، وعزم عليه فى هذه الأمور . فأطرق الشيخ رأسه ، وأخلص الرجاء لله فى نفسه ، وجعله غاية مرغوبه ومعتمده ، وقال : « إنما نطلب هذه الحاجة من الله » . ورمى بالكتب من يده . فانفصل ذلك التأليف مبرّأً من التكاليف . وفى بقيّــة الجمعة مات ابن السلطان ، فاستبرأ السجن بسببه وبرأ المشتغلين من طلبه . ووصل الخازن إلينا وقد طاب نفساً بسراحه وقرّ عيناً ، وسرح الله بسبب واحد جمعاً ، وأسعف مطلب من أدّى له على الدوام طاعةً وسمعاً .

٢٩

ومن مكاشفته وتنفيسه بالهمّة عن الملوك
والدليل أنه بخير مالك خير عبد ومملوك

أن صاحب الأندلس أمير المسلمين أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر وفد على وادى آش ونزل خارج البلد ، فأراد الاجتماع بالشيخ — رحمه الله — ، ولم يكن بينهما قبل ذلك لقاء ولا اجتماع . (أظن ذلك كان عام ثلاثة وخمسين وستمائة) . فقال السلطان لوزرائه : « من ترون يتلطّف فى سبب الاجتماع بهذا الرجل ؟ » . فقالوا له : « محمد بن السكان الكاتب » . فوجهوه له يتلطف فى خروجه للسلطان خارج البلد . فمشى وذكر له القصة ، فأبى عليه الشيخ ، وقال له : « ولم[1] دعوتنى إليه ؟ » . فوعظه السكان وذكره بما جاء فى الحديث والقرآن بما يجب من الطاعة للسلطان وأن ذلك إنما هو فى صلاح الأمة ورفع كربة عن المسلمين وملّمة . فامتنع الشيخ عن المشى وأبى وأظهر عليه انقباضاً كلياً وتجنباً . فلما رأى ابن السكان أن لم يقل « نعم » ، وعجز عما كان به زعم ، حلف بطلاق الثلاث من زوجه بنت عمه ، إن هو لم يصل معه على نحو زعمه . فمشى معه على قدميه للمحلّة ، فتلقاه السلطان وأجلّه ، ورفع فى قبته محله ، وذكر له أن من شرط ملك قشتالة عليه سفرة فى العام ، إلى حيث شاء من بلاد روم أو إسلام ، فتفاتن ملك قشتالة والبرجلونىّ وتداعيا للمقابلة بجيشيهما ، كان فى ذلك الربح لهما أو عليهما . فوصل للسلطان كتاب النصرانىّ أن يختار من المسلمين خيرة الأنجاد ، وأهل النهضة منهم والإنجاد ، ويدخل لبلاد البرجلونى يسبي ويعبث حتى تستصرخ الروم ملكها

---

(١) فى الأصل : ولما ، وقبلها كلمة غير مقروءة .

وتستغيث . فهتك ذلك عزم ابن نصر ورفضه ، [١٦٧ و] وبذل عوضاً من تلك السفرة مائتى ألف دينار فضّة . فأبى النصرانيّ إلا خمسمائة ألف دينار ، أو يسرع لبلاد البرجلونيّ النهضة . فخرج ابن نصر مكروباً ، ومن لباس الأمن مسلوباً ، وبما يخافه مطلوباً . فمشى للشيخ ابى مروان [وقال له :] « عسى أن أكون فى بالك ، فما لى بما أقابل هذه الوجهة إلا بدعائك ، ودعاء أمثالك ، وقد جرت وقائع وشدائد على يدي ، فما رأيت أشد من هذه على ؛ وهذا هو جيش المسلمين أجمع ، إن طرأ عليه أمر ففى خلفه لا يطمع » . ثم جعلت عينا السلطان تسيل بالدموع ، خوفاً على عسكره القليل من كثرة ما للروم من الجموع . فدعا له الشيخ ووعده بالنجاة مما يتوقى ، وأمره أن يقيم فى آخر بلاده ويتبقى ، وأن من هناك يرجع دون أن يتعب أو يشقى . فوادعه وسافر السلطان إلى بيرة آخر بلاده ، فأقام نحو جمعة هناك فى جملة أجناده . وكان قد كتب للنصرانى عند خروجه إذ أزمع سفره أنه قد توجه إلى حيث أمره . فوجه النصرانى للبرجلونى الكتاب يغلظ به عليه . فكان سبب اصطلاحه توجه الكتاب إليه . فوجه النصرانى للسلطان بأن يرجع إلى بلده ، فرجع سالماً فى جمعه وعدده .

وكانت هذه الكرامة سبباً بينهما للمؤالفة ، وترك التنكر والمواقفة فى حوائج المسلمين وإسقاط المخالفة ، نفع الله الجميع بقصدهم ورحمهم ورحمنا من بعدهم ، إنه غفور رحيم جواد كريم .

٣٠

ومن كراماته الصادرة بفاس عنه
الدالة على أن الله خصه برحمة من لدنه

وذلك أن الشيخ — رحمه الله — وصل إلى مراكش ، واجتمع إلى أمير المسلمين أبى يوسف بن عبد الحق ، برسم استنفار القبائل للغزو ببلاد الأندلس . فلما رجع إلى فاس راجعاً بلغه أن ملك الروم نزل على غرناطة ، ونزلت أجفان العدو بمرسى الخضراء ، محاصراً لها ومانعاً للجواز بالزقاق ، واشتدّ كرب المسلمين وخيف التلف على الأندلس . فكان يدخل بيته بفاس ويقول للحاج أبى يحيى بن صاحة خديمه : « دعنى أنم » . فكان يبكى ويتضرع إلى الله تعالى ، ثم يخرج وعيناه تحمرّ[١] بالبكاء . ثم قال لهم ذات يوم : « قد فرج الله الكرب » ، وانشرح خاطره . ثم وصلت الأخبار بعد ثلاثة أيام برجوع الروم خاسرين .

---

(١) كذا فى الأصل .

٣١

[١٦٧ ظ] ومن كراماته — رضى الله عنه — ومكاشفاته ودليل اختصاصه لمولاه ومصافاته

وذلك أن أهل وادى آش توجهوا مع الرئيس أبى الحسن ، صاحب البلد ، إلى محاصرة حصن طورش اللقون لطلب أخذه من أيدى الروم عام ثلاثة وستين أو نحوها . وهبط الشيخ — رحمه الله — فى جملة الناس مع أصحابنا ، أهل اربنتيرة ، ومن حضر من الفقراء . وكنا نحو مائتى فارس ودون ألف راجل . فقوتل الحصن نحو يومين وليلتين إلى أن فتحه الله . وكان الرئيس أبو الحسن قد أمر بحرق العدة وهمّ بالإقلاع ، يأساً من أخذ الحصن ، وخوفاً على نفسه وعلى المسلمين ، لكون زعماء الروم بالفنتيرة كانوا أقرب إلينا من بلدنا . فلما همّ الرئيس بذلك تحرك للنزول من جانب الحصن إلى المحلة . فقال له الشيخ : « إلى أين ؟ » . قال : « أهبط للوضوء » . قال له الشيخ : « يساق لك الماء ، وتتوضأ هنا . والله ، ما نهبط من هنا حتى يفتح الله الحصن ، بحول الله » . وكان قد مات من الناس هناك بالسهم نحو اثنى عشر رجلًا ، وجرح أكثر من مائة .

فلما ملكه المسلمون عند المغرب ، وفتحه الله ونزلنا للمحلة ، جاء الرئيس وقبّل رجل الشيخ ، بعد أن نزل عن فرسه ، وقال له : « يا سيدى ، قد كنت عزمت على الهروب ، لولا أنت ؛ والله ، ما فتح الله هذا الحصن إلا ببركتك ، والحمد لله » . وكان فى جملة من هبط معنا للحصن بطر يوسف ، ثقة السلطان ، فإنه كان ضيفاً عند الشيخ ، فصادف السفر ، وهبط معنا على وجه الموافقة . فلحقه هناك خوف عظيم ، فذكر ذلك للشيخ ، فقال له : « اركب ، يا أبا الحجاج ، وارجع لوادي آش ، فلسنا نرجع نحن حتى يفتح

الله » . فقال بطر يوسف بحكم الإدلال عليه : « والله ، لا أمشى حتى أجعل لك لصقة من هذا البرهم الذى جعلت منه لمن جرح من أصحابنا » . فقال له الشيخ بحكم المباسطة فى الظاهر : « مرّ ، فقد قلبت عليك هذا اليمين » . فلم يكن إلا ثانى يوم حتى ضرب بطر يوسف المذكور بسهم على المرفق حازه ، وقطع الدرع الذى كان عليه من الجهتين ، وجعلنا له من ذلك البرهم لصقة .

قال مؤلفه : كانت له ، والحمد لله ، السلامة ، أن[1] لم يكن يبلغ حمامه ، [١٦٨ و] وكان له فى ذلك تنبيه وعلامة ، أن يقيّد بعد ذلك كلامه .

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصح : إذ .

٣٢

ومن مكاشفاته أيضاً — رضى الله عنه —
وما هو المعهود فى إجابة الدعاء منه

وذلك أن جمعاً من الروم غنموا أرضنا ، فأسر فى جملة من أسر من المسلمين لبّ بن مقيم . فجاء إبر[ا]هم أخوه للشيخ — رحمه الله — ، فذكر ذلك له وهو يبكى ، وجلس عند باب الشيخ . فدخل الأولاد إليه ، فجددوا عليه ذكره وتفجّع أخيه إبر[ا]هم عليه . فقال لهم الشيخ — رحمه الله — : « تراه يهرب من الطريق ويجيء ، وإلا باطلًا كان يخدمنا أخوه إبراهيم إذًا » . فكان كما قال ، والحمد لله على نعمه ودفع نقمه .

٣٣

ومن تأثير همته فيمن لم يأخذ برأيه ووقف مع مخالفة أمره ونهيه

وذلك أن أهل حصن قنجاير ، من وادي المرية ، كانوا قد نزعوا عن غرناطة ابن الرميمي ، وقاموا بدعوة السلطان محمد بن يوسف بن نصر فى أول مدته . وكان ابن الرميمى مصالحاً للروم إذ ذاك على المرية وجهاتها ، فوجه ابنه عبد الله بأربعمائة فارس من المسلمين وعددها من الروم . ونزل الابن المذكور على الحصن محاصراً له ، وشرع فى عمل منجنيق على الحصن . وكان الشيخ أبو مروان فى الحصن فى جملة أقاربه وأهل بلده ، فإنهم فيه شركاء جميعاً . فاستدعاه عبد الله ليتكلم مع أهل الحصن لأن يرجعوا لطاعته وينصرف عنهم . فخرج الشيخ وتكلم مع عبد الله ، ثم رجع وكلم أهل الحصن فانقادوا لأن يرفعوا فى الحصن علامة ، ويترك واليه ومشرفه ويقلع عنهم . فأبى إلا أن يدخل الحصن ، وحينئذ يسلمهم . وكان من قول عبد الله بن الرميمى : « هؤلاء هم المسلمون معى والروم ، وليس لأهل الحصن بمن يلوذون ولا من ينصرهم » . وقال عريف المرية : « يا سيدى ، هذا المنجنيق على الخلاص ، والله ما يبقى لهم بقية من سورهم فى أسرع وقت » . فقال له الشيخ : « فى قدرة الله أن يحرق ذلك المنجنيق بزيت الذى يعمله[1] » . فقال العريف : « سلامة الله أطلب ، أنا لا أعمل شيئاً ، إنما أدخل رأياً والروم [١٦٨ ظ] هم الذين يعملون » .

---

(١) كذا فى الاصل .

قال الشيخ : ثم أرانى ابن الرميمى كتاب والده ، وهو يأمره فيه أن يعطى السلب والسبي الروم ويهدم هو الحصن ، وحينئذ يقام عنه . (قال :) فاجتمعت مع الحريمل ، قائد فرسان المسلمين ، وقلت له : « لو لا أنتم واختلاطكم مع الروم لخرج أهل الحصن على الروم وأفسدوهم ؛ فلو انفصلتم عنهم وانحرفتم لجانب عنهم ، لنفسوا عن أنفسهم » . فوعده بالانفصال عنهم لناحية . فطلب الحريمل الكلام مع الروم حتى رجع لناحية أخرى ، كأنه يضبطها .

قال الشيخ : فلما رجعت لأهل الحصن قلت لهم : « الحر ... [١] فيكم كذا وكذا وأن تقتلوا ويسبى حريمكم ؛ فترانى أخرج عنكم إلى يحانس ، فإذا قدرتم أنى فى نصف اخرجوا على الروم خرجة رجل واحد ، والله يعينكم » . (قال :) فلما صرت فى نصف الطريق سمعت الصياح قد قام ، فخرج القوم عليهم وقتلوا منهم ، وأحرقوا المنجنيق كما قال ، وحرق معه الروم الذين عملوه كما قال ، وانتهبوا ما فى الأخبية ، ورجع ابن الرميمي خاسراً ، ولم يجد من الله ناصراً ، إذ أيد عليه من كان له محاصراً .

---

(١) كلمتان غير واضحتين ، ورسمهما : الحر بادر (؟) .

٣٤

ومن مكاشفته المعلومة الشهيرة
الدالة على رتبته العلية ومنزلته الأثيرة

وذلك أن الشيخ — رحمه الله — كان فى هذه الغرة[١] يعمل المولد بوادي آش . فكان ذات يوم جالساً ، والدقيق يغربل لطعام المولد ، إذ دخل عليه من هؤلاء السفّارة فقيران . فسلما عليه وطلبا منه أن يزوّدهما وينصرفا . فتغافل عنهما ، فألحا فى الطلب عليه ، حتى لحقه انزعاج ، وقال لهما : « هذا الوقت يحتاج إلى معين ، وأنا أقوم فى هذا الوقت بهذه الوظيفة وحدي ، والفقراء يصلون من العدوتين برسم حضور هذا المولد والتبرك ، وأنتما هنا حاضران ولم تعوّلا على حضوره ، دليل على قلة سلوككما ونقص أدبكما . ثم إنكما جئتما من بلاد الدجن ، وعلى وسط كلّ واحد منكما فرود بسبعة دنانير » . وأمر من حضر من الفقراء أن يدخلوا أيديهم لأوساطهما وأن يخرجوا الفرود . فأخرجوا من وسط كل واحد منهما فروداً بسبعة دنانير ، فقعدا فى الوسط [١٦٩ و] وتافا وحلقت رؤوسهما . وأراد الخروج عن الفرود للفقراء . فأمر الشيخ أبا بكر بن الرويه ، أمين العطارين ، أن يشترى لهما بها زعفراناً وزوّدهما ، ودفع لهما الزعفران وانصرفا ، وهو طيب عليهما داعيـاً بالخير إليهما ، والحمد لله على ذلك .

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها : المدة .

٣٥

ومن ذلك هلاك من يغيّر باطنه عليه وتسبيب البلاء على يدي السلطان إليه

وذلك ما شاهدته منه مع أبى الحكم بن إدريس ، مشرف وادي آش ، إذ كان ابن إدريس يصانعه ويقبل فى بعض المظلومين شفاعته ، ويبذل فى خدمته استطاعته ، إلى أن كان فى آخر جمعة من عمره — عفا الله عنه — عامل الشيخ بالقبيح ، وترك القبول من النصيح ، وأبى أن يقضى له حاجة . وصحبتُه فى ذلك الحاجة ، وترادف سوء المعـاملة منه يوماً بعد يوم . ولم يخف فى ذلك من معاملة ولا لوم ، وبادر بسيئاته المستعجلة ، وحلف ألا يقضى له حاجة حتى يستوفى أجله . وحلف الشيخ ألا يكلفه حاجة ما عاش طول ولايته بوادي آش .

فقال له الشيخ الصالح أبو يحيى العسّال : « ما أقلّ بقاء هذا الرجل هنا على هذه الحال » . فبقى الأمر من الأربعاء إلى الجمعة ، ونفس الشيخ منقبضة ، مجتمعة . فوصل السلطان للبلد ، وخرج الناس للقياه بالأهل والولد . فلحق عقاب الله للمشرف فى الحين ، وضرب بالسياط هو وبنو أخيه بمحضر المسلمين ، وعن ثلاثة أيام حان حينه ، وانقضى ، كما قدر الله دينه ، وانتهب ماله ، ولم ينل شيئاً من ميراثه عيـاله . ودخلتُ البلد والمشرف يضرب بالسياط ، فوجدت الشيخ ببعض زوايا الجامع ، بمعزل من الانبساط ، فأخبرته حين أتيت ، بشيع ما قد رأيت . فقال لى : « من تغيّري[1] على ذلك الإنسان ، لم أطعم طعاماً من يوم الأربعاء إلى الآن » .

[قال مؤلفه :] نعوذ بالله من تسليط بلائه وغضب أوليـائه والازدراء بأداء واجب نعمائه ، فكل أمر بقدره سبحانه وقضائه .

---

(١) فى الأصل : يغير لى .

٣٦

[١٦٩ ظ] ومن حفظ الله له فى إنفاقه وتصرفه
وميل قلبه عن قبول المتشابه وتحرفه

وذلك أنه وصل ، لحضور وقت المولد ، ناس من غرناطة وغيرها . فدفع له كل من يساق برسم الإنفاق شيئاً ما هو ساقه ، إلى أن دفع له فى الجملة رجل ربط شمع ليوقد فى ليلة المولد . فأدخل الشيخ لداره جميع ذلك . وأوقد ما سيق من شمع ، وأحرق العود ، وأراق ماء الورد ، وتصرف فى جميع ذلك كله . فلما أخذ الناس فى الانصراف ، قال له الرجل الذى كان دفع له ربط الشمع أولًا : « يا سيدى ، القابض فلان ، من أهل غرناطة ، وجّه ذلك الشمع الذى دفعت لك البارحة ، فادع له » . فقال له الشيخ : « قف قليلًا » . فدخل وأخرجه له وقال له : « لذلك لم أجد فيه للتصرف خاطراً . كنت كلما جئت لأخذها للوقد أجد خاطرى ينفر منها ؛ ردّها له » . فدفعها للذى ساقها ، ودعا له بخير ، وانصرف .

٣٧

ومن كراماته فى دفع الظالمين بالهمّة
وموافقته القدر فى ذلك بكلمة

وذلك أن فتى ، كان يعرف بولد فطيمة السواقة ، وصل وادي آش ، باحثاً على الناس ، بكتاب من السلطان ألا يتعرضه أحد فى شغله ، لا قاض ولا رئيس ولا غيره . فكان يمد يده فيمن شاء ، يطلب منه ما شاء ، فلا يجد منه منفذاً إلا أن يرشيه بما يستعين على الفساد والخذلان ؛ يقول الإنسان : « عندك مال السلطان » ، دون شبهة ولا برهان ، وفى خلال ذلك يأخذ منه بما أراد ، ويبقى ذلك فى أنواع الفساد ، إلى أن طلب شاباً يعرف بابن شابّ ، خيراً فاضلا ، وكان صهر الخطيب . فسجن باطلا ، وترك دكانه عاطلا ، وطلبه بجملة مال ، عاب عليه فى ذلك ومال . فطمع الخطيب بالشيخ أن يكلمه فيه ، وإن كان له قبله حقّ يؤديه له ويوفيه . فكلم الشيخ لابن فطيمة ، فأبى ، ولم يقف إلا مع ما أخذ وجبى . وعزم على السفر لغرناطة ثانى يوم وأن يحمل ابن شاب لسجن غرناطة ولم يخف من عقاب ولا لوم . فجاء الخطيب للشيخ يبكى معه همه ويستر معه فى الخلاص من تلك الملمة . وقال : « ما قدر ما يصنع من هنا إلى غد ، ما يكون لهذا الهم نجاة أبداً » . فقال له الشيخ : « وما زال باب الفرج مفتوحاً : فى [١٧٠ و] صبيحة غد يصبح ابن فطيمة مذبوحاً » . فأصبح ، والله ، مذبوحاً من الوريد إلى الوريد ، ولم ينل فى صهر الخطيب ما يريد ، وكانت عبرة لأمثاله وسبب ارتداع لمتبعى فعاله ، وأمسى وهو فى الترب مدفون ، وسرح ابن شاب المدفون (١) .

[قال المؤلف :] نسأل الله ألا يغيّر قلوب أوليائه علينا ، ويجعلنا ممن يرضى صدورهم ويقر لهم عيناً .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها : المسجون .

٣٨

ومن كراماته — رحمه الله — دعاؤه المجاب
وما أظهر الله به فى القمارشى من العجاب

كان القمارشى شاهداً فى المظالم ، لا يرعى حقاً لصالح ولا عالم ، ولكنه كان يمتثل أمر الشيخ ويرعاه ، ويحفظ جانبه ويجيبه إذا دعاه . وكان أهل ارينتيره يحرثون للشيخ فى أراضيهم ، وكان العمال يرضونه فى ذلك ، كما كان فى الدعاء يرضيهم ، فواحد يرفق به فى اللوازم ، وآخر يزيد عليه ، ويجعله فى جملة أهل المظالم ، إذ كان لا يتكلم فى حق نفسه ، ويكتب فى حق سائر العوالم ، إلى أن وصل عامل أخذه بزمام الرفق . وكتب عليه بعض الحق . فلما رفع العامل زمامه ، عنّفه القمارشي ولامه ، وأغلظ له كلامه وأغرمه ، وأراد ضربه بالسياط ، وقال : « ماذا ينفعك اليحانسى الذى أخذته بالاحتياط ؟ » . ثم قال إلى الشيخ إن القمارشى توعده وأنذره بغرم ما مضى وهدده وقال : « ترانى أمضى وأغرم الشيخ ما فاته فيما مضى ؟ » . ولم يدر أنه قد سبق له عاجلا سوء القضاء . فلما بلغ الشيخ مقاله سمعته يقول ، إثر صلاة عصر الجمعة ، وقد اشتغل باله : « اللهم ، أرحنا وأرح المسلمين شر هذا الرجل المسكين » . فلم يكن إلا أيام قلائل حتى وصل نعيه ، وعاد عليه سعيه ، وقتل شر قتلة ، ومثل به تمثيلا لم ير الناس مثله . نسأل الله العافية ، وسبوغ الوافية الضافية ، من شر[١] عاقبة مآله فى حق خاصته من الغيرة ، وشدة غضبه على من ظلم ، من لم يجد قاهراً غيره . إنه المنعم الذى لا نرجو إلا خيره ، وعليه سبحانه نتوكل ، وإليه نرغب ونسأل .

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة ، ولعلها : سوء .

٣٩

ومن كراماته دعاؤه على المتنبي الفزاري[1] ومجازاة الله له بما كان يؤمل أن يجازي

[١٧٠ ظ] وذلك أنا وردنا على مالقة عام ستة وستين وستمائة ، فوجدنا مالقة قد اضطرمت ناراً ، والفازاري إبراهيم قد رفع بها للمغالطة مناراً ، وادعى النبوة والرسالة على مقتضى ما كان فى أصله من الرداءة والفسالة ، كان يعد فيما وقع من فتنة بين اشقيلولة والسلطان ، بأنه المنتظر لإرغام أنف الشيطان وتوثق دعائم الإسلام بأمراس من التقوى وأشطان ، ويقول للعامة الدهماء : « إنما أنا رسول من السماء » . وبعد ما لف كذبه تصدق بالمصا[د]فة واحدة منها ، فتتحدث تلك الدهماء عنها . فلما استغرق فيه من استغرق ، تدرج لدعوى النبوّة والرسالة وتطوّق ، ومن قابحه من أهل المعرفة والدين سلط عليه الرؤساء المعتدين وكذب عليه عندهم وأرش ، وغيّر جانبهم عليهم وحرش حتى جعل أحد وجوهها أهين دون استحقاق ، وضرب بالسياط وطيف به فى الأسواق ، فطائفة يعتقدون أنه وليّ ، وآخرون يزعمون أنه نبي ، بل قال هو بذلك وصرح[2] ، ونادى على رؤوس الناس وبرح ، وصحت بذلك على ألسنة أفذاذ من الناس أقوال .

ووردنا نحن مالقة وهى بسببه فى أهوال . وكان يتوعد الشيخ وأصحابه والطلبة بالقتل الذريع . وكثر الكلام بذلك والتشنيع إلى أن هرب بسببه ابن الأخوص خطيب القصبة وتوعد الخطيب أبا محمد بن الشيخ فاضل الوقت وشيخ الطلبة . وأنهى الشيخ ذلك للرئيس ولامه وعاتبه . فقال : « يشهد فيه عدلان

---

(١) هذه النسبة صحيحة ولكنها لا تتمشى مع السجع .
(٢) فى الأصل : وسرح .

لكى أضرب بهما عنقه وأقتله » . فقال الشيخ للذين يبلّغون تلك الأقاويل : « يشهد منكم شاهدان ويقتل دون نظر ولا تأويل » . وكان الناس يخافون على نفوسهم ولا يدرون ما يصدر لهم من رئيسهم ، وبقى الأمر على حاله والفازارى يكرّ ويفرّ[١] فى ميدان محاله إلى أن أخذنا فى السفر بالأهل وطلعنا لسبتة فى الغراب و[لمّا] حان لرفع الشراع اقتراب وصل إلينا الفازارى المذكور فى زورق ونحن فى المرسى ، ولم يكن أصبح علينا قبل ذلك بمالقة ولا أمسى ، وإن كان قد تقدمت له فيما سلف للشيخ زيارة ، ولم نعتقدها ثواباً لنفسه لما كان ، فإنه كان توعدنا بالذبح عن قريب ، ويتلقانا بوجه خاتل مريب ، وأراد أن يوهم أصحابه ويباهت خلصائه الضالين وأحبابه أن الشيخ أمن به وصدق [١٧١ و] وثبت دعواه وحقق . فسلم وقعد مع الشيخ فى القرشة تدهناً ، وقال : « يا سيدى ، ما منعنى عن خدمتك فى هذه المرة هنا إلا ما نقل عنى من القبيح والخناء » . فقال له : « ما هذا الأمر الشنيع الذى نسب إليك ورفع عليك ؟ » . فقال : « أصحابى أشاعوه عليّ ونسبوه إلىّ ، وأنا لا أرضى أن يذكر ذلك لديّ » . فقال له الشيخ : « لو لم ترض بذلك لنافرتهم وما ألفتهم وخالفتهم . ألهم إن كنت بريئاً فقد ابتلى الأولياء بالبلايا ، وإن كنت تظهر خلاف ما تبطن بهذه البرايا فأسأل الله أن يأخذك من الجانب الذى تطمئن إليه عاجلاً غير آجل . قل « نعم » . قال : « نعم » . قال : « قم عنى » . فهبط للبرّ ونزلنا نحن القلع وأخذنا نبذل فى الأقلاع الوسع .

فما أقمنا بسبتة إلا قليلا حتى نعى قتيلًا ، وصلب بغرناطة مع بعض أصحابه . وصار إلى النار ، إذ النار أولى به . فما لجئوا لمنجى حين هربوا ولا فاتوا لما طلبوا ، ولا كان ارتفاعهم رفعة مقدار حين صلبوا ، فلا هم بقوا ولا نالوا ما طلبوا .

---

(١) فى الأصل : ويعز .

٤٠

ومن كراماته — رضى الله عنه — مكاشفته بحالى
وإجابة دعائه فى حين أزمعت للشرق ترحالى

وسبب ذلك أنى عزمت على المشى إلى الحج ، وأذن لى الشيخ — رحمه الله — فى ذلك . وكان لى رفقاء خمسة ، من أهـل وادي آش ، عام سبعة وأربعين وستمائة . وفى خلال ضمى إلى الزاد قال الشيخ الصالح أبو يحيى الغسال — رحمه الله — ، يحضنى على ترك الحركة فى الوقت ، ويقول لى : « الشيخ يذكر أن خاطره يتغير إذا ذكر له سفرك ، لشىء قال يجده فى نفسه » . وكنت أنا لا يؤثر عندى كلام الغسال .

فلما كان يوم من الأيام ، وقد عزمت على السفر ثالث يوم ، بينا أنا مع أصحابى ، إذ سمعت العصر ، فقمت إلى داري لأجدد الوضوء . وكنت لشدة عزمى لا يقدر أحد يردنى عن خاطرى . فلما قعدت للوضوء انتقض عزمى ، ولم أجد له أثراً . فرددت رأسى إلى أمى ، وقلت لها : « يا أمى ، زال ما كان فى خاطري . والله ، لقد دخلت بعزمى ولم أجد الآن أثراً » . ثم خرجت للجامع ، فرأيت أبا يحيى يتبسم فى وجهي . [١٧١ ظ] فلما ركعت وسلمت ، قال لى : « هل ثم زائد ؟ » . قلت : « لا ، ما ثم إلا نقص » . قال : « ما هو ؟ » . قلت : « العزم الذى كان عندى قد انحل » . ثم ذكرت له القصة . فرد رأسه للشيخ وقال له : « قضى الله الحاجة » . فقال لى الشيخ : « ما كان يذكر سفرك لى إلا ويظلم باطنى ، لأمر يظهر لى ، وستحمد عاقبة قعودك » . قال لى أبو يحيى : « لما قمت للوضوء جاء ابن خالتك وأصحابك ، ورغبوا من الشيخ أن يعزم عليك فى الجلوس لوقت آخر ، فقال : « قد جعلت

من كلة فى ذلك ، فلم يجبه » (قال :) ثم سكت الشيخ قليلاً ، فرأيناه قد اصفر واقشعر ، وقال : « نسأل الله أن يجبره » . ثم خلوا للصلاة ، فوقت دعائه زال ما فى خاطرك » .

وكان من جملة رفقائى ابن الشيخ البسطىّ الحداد ، وكان قد حضه الشيخ على ترك السفر فى الوقت . فوافقه على تركه ، ثم جاءه بعد ذلك ، وقال له : « قد عزمت على السفر وجئت أسلم عليك » . قال له الشيخ : « مر ، سترى كيف ترجع » . فمشى الخمسة وطلعوا من لقنت فى مركب ، فجروا يسيراً ، ثم نزل بهم حصير المركب وغرقوا . فلحقهم مركب آخر ، كان خلفهم ، فلقط من جملة أهل المركب ابن الشيخ المذكور ورجلاً آخر من أهل لوشة ، وحملا لبجاية .

ثم إنا كنّا مع الشيخ قعوداً ذات يوم إذ دخل علينا ابن الشيخ المذكور . فقال له الشيخ : « ألم أقل لك « سترى كيف ترجع » ؟ » . فذكر لنا القصة كيف جرت ، وأنه لم يستيقظ إلا وهو فى بجاية ، فوجد نفسه دون رفيق ولا زاد ، فرجع . ثم إن الشيخ لوى إلىّ رأسه وقال لى : « أخذتها بوجهك ، يا أحمد ؟ هذا هو الذى كان يظهر لى » . وقال لابن الشيخ : « تهنيك السلامة ، وكتبت خطاك ، ولا عتب عليك ولا ملامة » .

[قال المؤلف :] نفع الله بهم وجمع الفردوس بهم بمنه وكرمه وفضله .

٤١

ومن كراماته رؤيته للمعمّر صاحب المصطفى
وحسبنا فائدة فى رؤيته وكفى

سمعته — رحمه الله — مراراً يحدث أنه كان بكوش والنعق من بلاد العراق ، فأراد زيارة الشيخ حفيد حيدر فى خراسان . قال : فسألت عن الطريق ، فقيل لى : « إن سافرت على العمارة مشيت ستة أشهر ، وإن شققت هذه الصحراء قبالتها مشيت شهرين » . فقلت : « أنا لا أعيش إلا من حشيش الأرض ، ولا أشرب الماء » .

فاستقبلت خراسان على الصحراء وحدى ، وأنا شاب ، فمشيت أياماً حتى وقعت فى محلة رحالة من الططر ، [١٧٢ و] فمشيت فيهم نحو شهر ، لا أنفك عنهم . فقلت له : « كيف سلمت منهم ؟ » . فقال : تركت الكلام وأظهرت لهم أني أبكم . وكان عليّ مسح من شعر ، وهو لباسهم ، فكانوا يظنون أنى منهم . فلما انفصلت عنهم وقعت فى ركب من المسلمين ، فسألتهم عن قصتهم . فقالوا : « إن الططر خرجوا على بلادنا وعاثوا فيها ، وقصدنا إلى المعمر ، صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، نسأل منه الدعاء عليهم ، عسى يدفعهم الله عنا » . (قال :) فقلت : « وهل أمشى إلا فى طلب فائدة ؟ وأي فائدة أعظم من هذه ؟ » . فوافقتهم فى السير ورافقتهم حتى انتهينا إلى إقليم فى تلك الصحراء ، مسيرته ثمانية أيام ، والصحراء تدور به . فجئنا لباب دار فى بعض قرى ذلك الإقليم . فاستأذنوا على المعمر . فخرج إليهم شيوخ من حفدته ، فسألوهم عن مطلبهم . فقالوا لهم : « رؤية المعمر ، ليدعو لنا على الططر الذين دخلوا بلادنا وعاثوا فيها » . فدخلوا ، ثم قالوا لهم ، عندما خرجوا : « يقول لكم : هى بلاده ، إن شاء عمرها ، وإن شاء خربها » .

فـألحوا عليهم فى الدخول عليه ، وفى دعائه لهم على الططر . فقالوا لهم : « إنه لا يدعو لكم بأكثر ، وأما الدخول عليه فلا فائدة لكم ، فإنه عند رأس كل مائة سنة ينتهى فى الضعف إلى حالة الطفـل ، وتنقلع أسنانه ، وتنتتف حاجبـاه ، ويخفى كلامه ، ثم ينشأ كما ينشأ الطفـل ، وتزيد قوتـه ، وتنبت أسنـانه وشعره ، ثم يعود لحالة الضعف . هكذا عند رأس كل مائة سنة ، وهذا رأس مائة سنة » . فانصرف القوم وبقيت أنا هناك ألح فى الدعاء وطلب الدخول عليه ، حتى دخلت عليه ، وهو قاعد ، مغرقـاً فى لفـات قطن إلى عنقه » . وكلمته ، وكلمنى بكلام ضعيف ، لا أفهمه لضعفه ، ولا يحمله إلا من جعله الله أهـلاً لحمله . وانصرفت ، فكنت أسأل أهـل ذلك الإقليم عنـه ، فكلهم يقولون : « سمعنا أباءنا عن أجدادنا عن أبائهم عن أجدادهم أنه المعمر ، صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وأنه هو الذى دعا له بالتعمير يوم الخندق » .

(قال :) فلـما انصرفت لقيت فى طريقى الركب الذين جاؤوا فى طلب الدعاء من المعمر ، فقلت لهم : « ماذا زادكم ؟ » . قالوا : « نزل على الططر حجارة من السماء أهلكتهم ، وهذه أسلحتهم عندنا وأمتعتهم » . وأرونى من ذلك الحجارة ، فوجدتها برداً فاخراً . فقلت لهم : « هذا هو الغيث [١٧٢ ظ] فى بلادنا » . فقالوا : « نعوذ بالله من بلاد يكون فيها الغيث مثل هذا » . (قال :) ثم مشيت أياماً حتى خرجت ، بحكم الاتفـاق ، لزاوية الشيخ الذي قصدت زيارته أولًا بخراسان ، وهى على حد الصحراء ، لم أعدها يمينـاً ولا شمالًا . (قال :) فسلمت على الشيخ وعلى أصحابه ، وكانوا نحو ثلاث مائة رجل ، وكنت لا أفهم لسانهم الفارسى ، ولا يفهموننى . فأكرموا محـلي وبرونى . ثم أقاموا ثـلاثة أيام ، من يوم دخولى عليهم ، لم يتكلموا ، إلى أن ورد فقير يفهم لسانهم ، فقلت له : « لعلىّ أسأت الأدب عليهم فى دخولى ،

فغيرتهم ، فسألتهم[(١)] ، فإن كان من قبلى انقباضهم استغفرت الله وتأدبت بأدبهم » . فذكر لهم ما قلت له ، فقالوا : « والله ، ما صدر منه ما يكره ، وإنما رأينا انفرادنا دونه بطيب الكلام سوء أدب فى عشرته ، فوافقناه فى الصمت . وأما من اليوم فأنت لسانه لنا ، ولساننا له » . فكان كذلك .

(قال الشيخ — رحمه الله — :) ولقد عاينت عند ذلك الشيخ فقراء من الواردين عليه أكلوا عنده طعاماً ، ثم رغب منهم فى تقبيل أقدامهم ، فأبوا وقالوا له : « ما الحاجة لذلك ؟ » . قال لهم : هذا الطعام الذى أكلتم عندي كان رزقكم ، جعله الله على يديّ ، وأقامنى فيه واسطة ، وأنتم أقامكم الله فى مقام الرفق بى حتى صوّبتم أقدامكم ووصلتم لتناوله هنا . ولو كنت أتكلّف حمل رزق كل إنسان إليه فى بلده من العراق أو الشام أو المغرب وغير ذلك لعجزت بعد شدة التعب » .

قال مؤلفه : فالحمد لله الذى أرانا من رأى من رأى النبى — عليه السلام — ونفع برؤية الصالحين من أهل الإسلام وجعلنا من حزب المفلحين أهل الانقياد والإسلام .

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولعل صحتها : فاسألهم .

٤٢

ومن كراماته غيرة الحق له عند تغيره
وما فى طيّ اختصاصه بهذه القصة وتخيره

وذلك أنى كنت حدثت بهذه القصة أصحابنا من أهل ارينتيرة مرة ، ثم إنهم سألوه بعد ذلك ، وأرادوا سماعها منه . فتغافل عن ذلك وأظهر انقباضاً ، فنظروا إليّ كأنهم يقولون : « أين ما قلت لنا ؟ » . فقلت للشيخ : « أنا حدثتهم ما حدثتنى به ، وفهمت منهم الآن تكذيبى ، فلا تجعلنى أحضر لهم البيّنة [١٧٣ و] بسماع ذلك منك » . وما زلت حتى انبسط وذكر لهم ما ذكرت . ثم قال لهم : « ما جعلنى أعرض عن ذكر ذلك إلا ما كان من عاجل العقوبة يوماً لمنكر أنكر عليّ هذا الخبر . وكان من جملة طلبة غرناطة وفقهائها ، وغيّر خاطرى سوء أدبه ، وصدر منى جفاء لفظ فى جوابه بحكم الغير . فعند افتراق المجلس وانصراف أولائك الفقهاء ، وجاء ذلك المنكر ليركب على بغلته بالباب ، ركضته بغلته ، فكسرت ساقه . فقلت فى نفسى : « المذاكرة مع الفقهاء والفضلاء إنما القصد بها نزول الرحمة والتماس البركة . فإذا خرج الأمر بضدّ ذلك ، وأدّى إلى الضرر ، فترك ذلك أولى » . واعتقدت ترك الأخذ فى هذه القصة ، خوف عقوبة منكر لذلك » .

قال مؤلفه : إنكار المنكرين لهذه القصة يكون من جهتين : قوم من الأعوام يقولون : « لم نر قط من عاش فوق المائة إلا يسيراً ، فكيف عدة مئين من السنين ؟ » . وقوم ، من الذين ارتسموا برسم الفقهاء والطلبة ، يحتجون بالحديث الذى رواه البخارى ومسلم وهو قول النبي — عليه السلام — : « ترون ليلتكم هذه ؟ » . قالوا : « نعم » . قال : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » . وقال به طائفة من أهل الحديث ،

منهم ابن العربي . وقد سئل عن هذا الحديث الفقيه المحدث أبو العباس العزفى ، وقيل له : « كيف يكون الخضر حيًّا كما يقول الناس وهذا الحديث يرد على القـائلين بذلك ؟ » . فقال — رضى الله عنه — وقد ذكر النصوص الواردة فى وجود الخضر قديماً وبقائه إلى الآن ، قال : « لا يلزم الأخذ بظاهر هذا الحديث إلا على قول من يقول العموم ، ونحن إن لم نقل به انعكس علينا ، وإن قلنـا به خصصناه بمـا أوردناه . فكيف وصوب الحديث العظة بقصر الأعمار ، والتحذير من الاغترار ، والركون إلى هذه الدار ، والإنذار بوشيك النقلة إلى دار القرار ، والتحضر على حسن نظر المرء لنفسه بجميل الرأي وسديد الإيثار ؟ وإذا تبين جرى هذا القول فى هذه المضمار ، لم يكن صوبه إلا الإخبار بموت من بقى من أهـل القرون الخاليـة والأعمار ، وقد بيّن الراوى ذلك بقوله : « إنما يعنى بذلك انخرام [١٧٣ ظ] القرن » ، والله تعالى أعلم » .

قال مؤلفه : لو حمـل على العموم ، لبطـل ما رواه الشيخ أبو العبـاس العزفى ، يرفعه عن شيوخه إلى ابن عباس ، قال : « الخضر ابن آدم لصلبه ، ونسىء له فى أجله حتى يكذّب الدجال » ، وإن كان هذا الخبر موقوفـاً على ابن عباس ، فله حكم المسند إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — إذ مثل هذا لا يدرك بالقياس ، وقد قصر نظر على أنه الرجل المكـذب للدجال من يعتمد على مقاله من سروات الرجال . ذكره معمر بن راشد فى جامعه ، وعبد الرزاق وأبو إسحاق ، صاحب مسلم ، فى حديثـه ، وإليه كان يذهب ابن القاسم الطرابلسى ، وأبو الحسن القابسى ، وابن الدفاع ، وابن بشكوال . وقـد روى مكحول عن أنس رؤيته للخضر واجتماعه مع النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وحديثه معه ونزول السفرة عليهما بالطعام ، وأكلهما الثلاثة منها . . . (الحديث) . وهذا وغيره فى ذلك يكفى ، ولو كان الحديث الذى احتج به من قال : « يموت الخضر على العموم » ، هو وغيره من الأحاديث . لكنـا نقول بقول

من يطعن فى الأحاديث إذا حملت على ظاهرها وعمومها ، والعيـاذ بالله من ذلك . وإذا تخصص الخضر من ذلك العموم ، فليس ببعيد أن يتخصص هذا الرجل المعمر بتخصص الخضر — عليه السلام — .

٤٣

ومن اصطفاء أوليـاء الله له واستخلاصهم
وإنزال حوائجـه بهم واستنباطهم له واختصاصهم

حدثني — رحمه الله — قال : كنت بجبـل لبنان إذ جاءني رجل ، فقال لى : « يا عبد الملك ، قم معى تعاوننى على دفن ميّت » . فمشيت معه حتى دخل مغارة كان يأوي إليها ، ثم استلقى متوجهاً إلى القبلة ، وقال لى : « يا عبد الملك ، ادفنّي هنا فى ثوبي » . ثم تشهد وفاضت نفسه — رحمة الله عليه — . (قال :) فقلت فى نفسى : « هذه من حجر ، وليس لى فأس أحفر به له . فما أصنع ؟ » . ثم وقع فى خاطرى أن أحفر له بالعكاز الذى بيدى . فضربت به فى الموضع الذى أمرنى بالدفن فيه ، فإذا به كأنه تراب نثير . فحفرت له قبراً ، وغسلته ، وكفنته ، ودفنته . وخرجت فلقيت أحد المشايخ متوجهاً مع تلاميذه لحضور موته ودفنه فقال لى : « فزت بالأجر وحدك » .

قال مؤلفه : فانظر أحوالهم ، فى الممات وركونهم لأمثالهم [١] .

(١) إلى هنا تنتهى الورقة رقم ١٧٣ ظ ، أما الورقة ١٧٤ و فتشمل بقيـة الورقة ١٦٥ ظ (باب ٢٧) لأخطاء وقعت عند تجليد المخطوطة .

٤٤

[١٧٥ و] (١) ومن كراماته — رضى الله عنه — وزهده وخروجه عن متاع الدنيا فى حال جهده

حدثنى — رحمه الله — قال : لما انفصلت من آسفى ، متوجهاً لزيارة أبى بالأندلس ، كنت ماشياً على ساحل آنفي ، إذ وجدت على الساحل نحو قنطار من العنبر . فنقلته إلى حيث لا يبلغه الماء إذا امتلأ البحر ، وسقت معى منه زنة ربع درهم أو نحوه . فلما بتّ عند الشيخ أبى يعقوب بن محفوظ البنزريّ فى سلا ، جعلت فى النار ذلك الشيء من العنبر الذى سقته . فقال لى الشيخ أبو يعقوب : « أرى عندك ذلك العنبر ، أبا مروان » . قلت له : « ما تقول فى قنطار منه ؟ » . قال : « والله ، لا أفارقك إليه ، فإن ألف دينار عليّ ديناً » . (قال :) فخرج معى هو وابنه ، حتى أريتهما إياه ، وودعتهما وانصرفت .

قال مؤلفه : أخبرنى الشيخ أبو مروان أنه عوقب على نقله ذلك العنبر بأن يبقى مضطراً لم يأكل طعاماً ثلاثين يوماً . قلت له : « لأي معنى ؟ » . قال : « لأنى كنت فى ذلك الوقت لا التفت إلى شيء من متاع الدنيا . فلما اهتممت به ونقلته ، كنت ذلك التفاتاً إليه » . ثم قال لى : « لو وجدته اليوم ما زال من يدى ، فإن معى زكرياء وإبراهيم وفلانة وفلانة » (يعنى أولاده) .

قال مؤلفه : فسبحان المانع المعطى الآخذ بناصية من يطيع ويخطىء ويبادر للطاعة أو يبطىء .

(١) يقع هذا الباب من المخطوطة فى نهاية الباب ٢٧ الذى يشغل الورقة ١٧٤ ، وسبعة أسطر من الورقة ١٧٥ و .

٥٤

ومن كراماته كلامه على الخاطر فى الحين
وبرور قسمه على ما يكون قبل التكوين

وذلك أنى كنت رأيته قبل أن يشتغل بسبب الحرث والزراعة ، وهو قد أخرج [١٧٥ ظ] من داره بوادى آش قمحاً وأقرّ[ه] على دابة أو دابتين ، وكان متى احتاج إلى شىء باع قمحاً ، وكان يطحن منه فى كل شهر قدر حاجتـه له . فقلت فى نفسى : « من أين يجيء هذا القمح ، متى اشتراه ، من أعطاه له ؟ » . ولم أكن أعرف له فى الوقت بسط جانب لشرائه ، ولا كنت أعرف من يوجد له على وجه الفتوح منه إلا النزر اليسير . فرد الشيخ — رحمه الله — رأسه إلىّ وقال لى : « والله ، لا أزال أخرج من هـذه الدار قمحاً ما عشت هنا . وكذلك ، والله ، كان . ولقد صار الدار بعد ذلك أصلًا ، وما زال يخرج منها قمحاً حتى سافرنا لسبتة بعد أعوام كثيرة — رحمه الله ودركه رضاه .

٤٦

ومما حدثنى به من كرامات أمثاله وإعلامه بما يصير إليه آخر حاله

وذلك أنا كنا بارينتيره ، وأصحابه بها يحرثون له فى أزواج كثيرة ، وجمع منهم يقلعون الشيح خلف الأزواج ، وهو هناك — رحمه الله — ، إذ رأيته تبسم وقال : « كنت فى أسفارى ، إذا سمعت برجل صالح ، قصدته . فذكر لى بالشام رجل ، فقصدته ، فصادفته يقلع شيحاً ، وعبد له يحرث . فسلمت عليه وسألت منه الدعاء . ثم قلت فى نفسي : « هكذا تركت أهلى فى موضعى ، فما الزيادة عليهم » . ونظرت إليه بعين النقص . فنظرنى ، وقال لى : « ما[١] عليك أن تقلع من هذا الشيح » . فلما كان فى هذا الوقت تذكرت لقوله — رحمه الله ورضى عنه ونفعنا به وبأمثاله — .

---

(١) فى الأصل : ما ما .

٤٧

وحدثنى — رحمه الله — بمثل هذه القضيّة دلالة على شرف معــاشريه ورتبهم السنيّة

قال : كنا فى جمع من الفقراء نتذاكر طرق القوم وسيرهم ، وآدابهم ومذاهبهم ، فقام فقير كان معنا جالساً ، وكان متزوجاً ، يبيت فى منزله ويقعد معنــا بالنهار ، فتكلم فى التصوّف ذات يوم إذ وقع الكلام فيه . (قال أبو مروان :) فقلت أنا : « عجبــاً لقوم يبيتون متلذذين بين أفخاذ النساء ، ثم يتكلمون بالنهار فى التصوف » . فقــال لى : « لا عليك ، لله رجال ، لولا رضاعتك التى لم تكمل لزوجوك الآن ، لكن إذا كان فى وقت كذا سترى إن قدر أحد يخرجك[1] عن مثل ذلك » . (قال :) فوالله ، ما تعدى الوقت الذى حد لى حتى تزوجت ، وركنت بما قال — رحمه الله تعالى — .

[١٧٦ و] قال مؤلفه : كل إنسان ينفق مما عنده ، ويأخذ ما قسم له مالكه وحده ، سبحانه لا إله إلا هو لا شريك له وحده .

---

(١) فى الأصل : عزجك .

٤٨
ومن كراماته فيما رآه وشاهده
أيام راض نفسه فى الأسفار وجاهده

قال — رحمه الله — : سافرنا مع الركب الشامى فى نحو من سبعين فقيراً ، مع الشيخ أبى الحسن الأخلاطىّ ، وكلهم على ترك ما بأيدى الخلق متواطىء ، وكانوا إذا نزل الركب قال رشيد ، أخو الشيخ أبى الحسن ، وكان صاحب الزنبيل مع طول الزمن ، فتوضأ وركع ركعتين ، ثم شدّ وسطه بمنديل ، وخرج وفى يده الزنبيــل ، وتوجه نحو القبلة بالذكر مشتغلاً لله تعــالى بالحمد والشكر ، ظاهره للخلق متعرض ، وباطنه عنهم معرض ، الرأس منه مطرق ، والقلب بالمولى متعلق ، فيلقى له فى الزنبيــل من يلقى من حضر من أنواع المآكل . فإذا حطّ الزنبيــل المدروز السائــل ، مدّ صاحب السماط ، وأضاف الشكل منه إلى ما هو مشاكل ، فيأكل الفقراء ، والمدروز إلى ناحية منفصل . فإن فضل شىء وإلّا يجوع يومه بجوع مدّه متصل ، إلى أن أصاب أبا مروان يوماً ألم عطــل منه المشى على القدم . فرحل الركب ، وأقام الفقراء متوكلين على من بيده إرزاق العباد يرزق ، بسبب وغير سبب جرياً للمعتاد .

(قال :) ثم إنى رأيت الرشيد ثانى يوم فعل كما تقدم قبله ، فتوضأ وركع وشد وسطه ، واستقبل بالزنبيــل القبلة . فلم يكن إلا أن أبطأ ساعة علينا ، وأتى بما كان يأتى به إلينا . فمد منه السماط مثل ما كان يمد ، وظهر من الرشيد الصدق فى البــاطن مع الله والجد . فقال له الشيخ أبو الحسن أخوه : « ما هذه الفضيحة ؟ » . فقال له : « لتكن نفسك مستريحة ، أتظن أنه قط [1] لقلبى بمخلوق اعتلاق ؟ والله ، ما شهدت فى مصر والشام والعراق فى

(١) كذا فى الأصل .

إعطاء ولا أخذ ، إلا الملك الخلاق » . ثم إنه لم يزل كذلك دأبه مع طول الطريق حتى وصلنا إلى البيت العتيق .

قال مؤلفه : فانظر — رحمك الله — من يطعم هذا الطعام ، ويعاشر أولائك الأقوام ، كيف لا يسر بخدمة الخدام [١٧٦ ظ] وتصرف فى ذكر مآثره الأمدة والأقلام ، وترعى له المودة ويحفظ الذمام .

٤٩

ومن خواطره الصادقة فى هذا المعنى
وما له من الصدق فى خدمة أصحابه للمعنى

قال — رحمه الله — : دخلت قرية فى الشرق ، ونحن على فاقة ، فدروز الفقراء فلم يعطوا شيئاً ، إلى قرية أخرى كذلك ، إلى قرية ثالثة كذلك . فقال الفقراء : « ما أراد الله منا إلا الهلاك بهذا القبض الذى قبض علينا » . (قال :) فبينا نحن فى شعراء ماشين إذ مر بنا ظبى ، فوقع فى نفسى أن أتبعه . فرميت مسحي ، واتبعته حتى لحقته ، [و]قد غرق فى غثاء السيل ، وأخذته وحملته إلى الفقراء . فذبحوه وشووا لحمه واشتروا خبزاً بجلده ، وجهزوا به وقتهم . والحمد لله الباسط بعد القبض ، الآتى بعد الشد بالخفض .

٥٠

ومن كراماته مكاشفته بتمنى رفقائه وهو غائب وإطعامه لهم على نحو تمنيهم للأطعمة الأطايب

حدثنى أبو عبد الله السكان — رحمه الله — قال : خرجنا مرة من المرية ، نريد وادى آش ، أنا وابن عمى محمد وأبو جعفر بن أرقم وعمر الراعى السرقسطى ، وكانت الطرق مقطوعة بكثرة مواظبة الروم عليها ، وقصودهم إليها . فصادف خروج الشيخ معهم ، وكان الشيخ إذ ذاك فتى جلداً . فكان يتقدم أمامهم فى مواضع الخوف ، يتطلع عليها . (قال :) فتذاكرنا فى الطريق ، وهو على بعد كثير منا . وأخذنا فى أنواع الأطعمة ، وتمنى كل واحد منا ما اشتهى . فقال أحدنا : « كنت آكل بيضاً مقلوّاً مجعولاً فى خل » . وتمنى الآخر شريحة وجوزاً . وتمنى الآخر قسطلاً فى النار مشوّطاً ، وتمنى آخر دجاجة مُحمرة ببيض .

(قال :) فلما وصلنا ونزلنا عنده بيحانس ، قدم لنا شريحة وجوزاً ، وقال للذى تمناها : « كل ما تمنيت » . ثم أتى بقسطل وشوطه فى النار ، وتقدمنا إليه ، وأشار للذى تمناه وقال له : « كل ما تمنيت » . ثم أتى بالخبز والبيض فى الخل ، وقال لمن تمناه : « كل ما تمنيت » . ثم أتى بالدجاج محمراً بالبيض ، وقال لمتمنيه : « كل ما اشتهيت » . (قال ابن السكان :) فبقينا طول الطريق نقيّد ألفاظنا ، ولا نسرح فى [١٧٧ و] الخارج خوفاً منه الحاظنا .

[قال المؤلف :] تبارك الله الذى كاشف أولياءه بالغيوب ، وأنعم عليهم بدرك المطلوب ، وقدر على مثلى بكثرة العيوب ، واكتساب الذنوب .

٥١

ومن كرامات الله له وحفظه عن التلف ونجاته بصوت هـاتف به قد هتف

حدّثنى — رحمه الله — قـال : كنت ، إثر وصولى من المشرق ، أطلع من يحانس إلى جبل شلير ، وأغيب فيه ثلاثة أيام فى السياحة ، وأنتهى إلى أعلى الجبل الذي على غرناطة منه ، ثم أرجع إلى يحانس . (قال :) فكنت أمشى فيه ذات ليلة ، وأنا قبالة حصن ونجة ، بموضع يقال له السَّخْرة ، إذ سمعت نداءً على بعد : « خذ اليمنى ، يا عبد الملك ! » . فأخذت يمينـاً ، فلما رجعت بالنهـار ، نظرت الموضع ، فوجدته على حافة عظيمة ، وصخور عالية ، لو بدّلت قدماً لم أر أبداً .

قال المؤلف : فتعالى الله حافظ أوليائه ، ومنبههم على لسان من شاء من أهل أرضه وسمائه .

٥٢

ومن كراماته قعوده لزيارة الأبدال ووفودهم عليه من رؤوس الجبال

حدثني — رحمه الله — قال : كنت ، فى أول وصولى من الشرق ، قد خرجت ليلة من المسجد ببيحانس ، من صلاة العشاء الآخرة ، إذ شممت رائحة الشعراء قد ملأت المسجد ، ثم اعترضنى رجل بباب المسجد ، فسلم علىّ ، وصافحنى ، وعليه دلق . فمشى معى إلى منزلى ، وطلب منى التفرّد بى فى الوقت عن الغير ، فوافقته . فلما سألته من أين مقدمه قال : « من أعلى هذا الجبل » (يعنى جبل شلير) . فقلت له : « وكم لك به ؟ » . قال : « منذ سبعة أعوام » . قلت : « وما تصنع بالإقامة به ، وهو مثلج ، بارد ، مجدب ؟ » . قال لى : « أنا من قصر عبد الكريم ، جئت من المشرق إلى أن وصلت لقرية جرّلش زائراً بها للشيخ أبى العباس القنجايريّ . فلما رأيت حسن لباسه ، وضخامة حاله ، وكثرة ماله ، سلّمت عليه وقلت له ، بعد أن قعدت معه : « عهدي [١٧٧ظ] بالمشايخ يلبسون المسوح والدلوق ، وأنت أرى لك الخيل والأموال والاتساع فى الملابس والأخوال » . فقال : « قال الله تعالى : هٰذَا عَطَاؤُنَا ، فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) . فقلت له : « أرى إمساكاً ولا أرى مناً ، هذه مخازن مقفل عليها ، ومواش لا يقدر أحد أن يتوصل إليها ، وخيول مسوّمة وملابس معلّمة » . فقال الشيخ أبو العباس : « هذا هو مقامى ، أقامنى الله فيه فى هذا الوقت . وأنت ، ما الذى يحملك على الأسفار ، إذا كنت لا تلتفت إلى ما بأيدى الخلق ، ولا فى الوقت ممن تراه أهلاً لأن تأخذ منه فائدة ؟ فاطلع لذلك الجبل فأقم فيه حتى تلقى الله » .

---

(١) سورة ٣٨ ، آية ٣٨ .

فأخذت كلامه بقبول ، وطـاعت لهذا الجبـل منذ ثلاثة أعوام ، لم يشعر بى أحد ، حتى سمعت رعاء الغنم يتكلّمون عنك . فقلت فى نفسى : « هذا واحد من أصحابنا ، فنزلت إليك » . فبات عندى الشيخ تلك الليلة ورجع لموضعه .

(قال الشيخ أبو مروان ـ رحمه الله ـ :) ثمّ جاءنى رجل آخر ، كان مقيماً بكدية منتَناغر ، ما بين يحانس وبلذوذ ، كان له بذلك الموضع ثـلاثة أعوام ، ولم يكن يعرف لذلك الرجل الآخر الذى فى الجبل ولا درى عنه ، وكان بين الموضعين نحو سبعة أميال ، إلى أن سمع ذلك الرجل المذكور أيضاً عن الشيخ أبى مروان والصيادون يتكلمون عنه ، فـنزل إليه . (قال الشيخ أبو مروان :) فصنعت لهما طعامـاً [من] دقيـق درمك ، بتمر وزبد ، ووضعته بينهما بجشر طيوج تحت الطريق ، بمنصبّ الماء بين الشعراء ، وذكرت قـول الله ـ تعـالى ـ : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَـدُوا اللهُ عَلَيْهِ » . . . (الآية)[١] . فتذاكروا وطاب الوقت . (قال :) وكان أحدهما صوفيـاً والآخر فقيهاً . ثم رجع كل واحد منهما لموضعه ، وكانوا بعد ذلك يتزاورون فى مواضعهم إلى أن سافر الذى كان منهما بمنتناغر ، وبقى الآخر بجبل شلير يتردد إلى الشيخ والشيخ إليه ، مدة عامين ، فى خفية من الناس ، إلى أن جاء ذلك الرجل ليلة فألقى فى دار الشيخ عن خارج حطبات . فخرج فوجده ، وأدخله لغرفـــة ، على انفراد ممن كان فى الدار من الواردين [١٧٨ و] من وادى آش ، فطلب منه مصحفاً ينظر فيه حرفاً . فأعطاه ونظر فيه ، ثم قال له : « تفقّدْنى غداً فى موضعى من المغارة بالجبل وشاهد موتى هناك وادفنّى » . ثم رجع لموضعه على سبعة أميال . فلما أصبح سافر الشيخ مع أهل وادى آش ناسيـاً لعهد ذلك الرجـل . فلما كان على مقرب من خندق أوس تذكره ،

---

(١) سورة ٣٣ ، آية ٢٣ .

وقال لأهل وادى آش : « أنا أريد أن أرجع عن هنا لأمر أكيد كنت نسيته ، ومع ذلك الزبيب غال عندكم وأنا لا آكل إلا الزبيب ، وماذا عسى أن يقوم بى من الزبيب مع غلائه ؟ » .

(قال مؤلفه : ذكر لى عبد الرحمن بن القدح ، وكان سافر إذ ذاك معه إلى الحاج علي بن الحفار : كان الذى قال فى السر لرجل آخر « الزبيب عندنا غالٍ والشيخ لا يـأكل إلا الزبيب وماذا عسى [أن] يقوم به منه » فذكر الشيخ ذلك لما كوشف به على وجه التوبيخ لقائله) .

قال عبد الرحمن المذكور : وكـذلك كنت رأيت الشيخ وقد وقفت الشمس بفحص عبلة فى ذلك الطريق واشتدّ الحرّ وهو يقول : « اللهم ارفق بنـا » . (قال :) فجاءت فى الحين إلينا سحابة بلّتنا . قال الشيخ — رحمه الله — : فوصلت لذلك الرجل المذكور فوجدته يجود بنفسه . فلما قضى نحبه غسلته وكفنته بثيابه كما أمرنى ودفنته .

قال مؤلفه : لقد طلعت مع الشيخ مرة لقبره وكان عليه مثل التابوت من صفّاح أكحل وهو حجر ذلك الموضع . فلما ترحمنا عليه قال لى الشيخ : « اقلع هذا الصفاح والقه إلى ناحية » . ففعلت وعفى هو أثر القبر بيده . فلما كان بعد أيام سألته عن معنى ذلك . فقال لى : « رأيت ذلك الرجل فى النوم ، فسألته عن حاله ، فأخبرنى أنه فى النعيم » . (ثم قال للشيخ :) « إلا أنك أنت لم تنصفنى ، لأنى طلبت السترة بنفسى ففضحتنى » .

وكان الناس إذا وقع الوباء فى مواشيهم عمدوا لذلك القـبر فأخذوا من ترابه وسقوا فى المـاء منه مواشيهم ، فارتفع منها الوباء . رزقنـا الله بركتهم عند ذكرهم وحشرنا معهم فى جنة [١٧٨ ظ] الفردوس ، محل مقيلهم ومقرهم بمنه .

٥٣

ومن كراماته كفاية الله له عن وثوبه
والقاؤه بعد العجز عن صهوة مركوبه

وذلك أنى مررت معه مرّة على خندق ولد الحاج بشكَّيْرُجَه[1] ، فقال لى الشيخ : خطرت مرة على هذا الموضع وأنا راكب على بغل وتحتى حمل من التين ، وكان فى ذلك الموضع الثلج قد استعلى . (قال :) فنزلت وركعت الضحى ، ثم جئت لأركب ، فوجدتنى كأنى مقيّد ولم أطق على الركـوب بوجه من الوجوه . فقعدت بالأرض ، وأدخلت رأسى تحتى ، وبقيت أذكر الله تعالى . فلم أخرج رأسى من تحتى إلا وأنا فى وسط الدابّة راكبـاً ، ولم أدر كيف . (قال :) فجئت على الطريق بالبكاء حتى إلى قرية عبلة .

قال مؤلفه : رموا بالسلاح ، ففازوا بالفـــلاح ، وانقطعوا إلى الله ولم يستعينوا بأحد دونه ، فكفـاهم بفضله كل مؤونة ، ووثقوا به فكفاهم وأعانهم على مرادهم وأغناهم .

---

(١) الشكل موجود فى الأصل .

٥٤

ومن دلائل صدقه فى الإنفاق مع مولاه
وإنزاله البركة فيا خوّله تعالى [و]والاه

وذلك أنه كان عند مجيئه من الشرق ترد الأفواج من الخلق عليه ، يرحل قوم ويرد آخرون ، وهو قائم بخدمة الكل ومؤنهم من مال أبيه ، وكان لأبيه موضع بيحانس ، يعرف بالغرس ، كثير الفواكه(١) والأرزاق ، وكان مباحاً للواردين ، يتصرفون فيه كيف شاؤوا لخمسين رجلًا فى كل يوم ، وأكثر وأقل ، مع طول أيام العصير : قوم يأكلون وآخرون يقطعون ويتداعبون(٢) على طريق المباسطة كل إنسان وما اقتضاه خاطره .

وكان لوالد الشيخ — رحمه الله — ابن عم يعرف بعبد الله بن بشر ، وكان شيخ القرية وممازجاً للحكام وآخذاً معهم فى مآخذهم ، على نحو عادة أشياخ القرى ـ عفا الله عن الجميع ـ . فكان [١٦٩ و] يقول ابن عمى المسكين لو كان ولده عبد الملك من جملة العزاب المخلطين غاية غرمه عليه مع العزاب خمسون ديناراً فى العام خطيئة للحكام تراه ما يضم معه فى الغرس هذا العام تينة واحدة .

فلما انصرم فصل العصير جاء والد الشيخ لابن عمه المذكور فقال له : « قم معى » . فقام معه حتى وصلا للغرس المذكور وشيرات التين مرزمة فى البيت واحده فوق أخرى . فقال له والد الشيخ : « كم كانت إصابتى كل عام فى هذا الغرس من التين ؟ » . قال : « خمسون قفّة بمائة ربع » . فقال

---

(١) فى الأصل : الواكه .
(٢) فى الأصل : ويتراعون .

له : « عدّ هذه » . فعد اثنتين وخمسين قفة بزيادة قفتين على كل عام ولا يؤكل منه إلا بالمعروف . فقال له والد الشيخ : « والله ، ما فيه تينة من غير هذا الغرس » . فلم يكن لابن عمه حجّــة إلّا أن قال : « الذى أدرى أنا أنه إذا قطعت تينة من موضعها لا تنبت فيه إلا إلى العام الثانى » .

قال مؤلفه : هذا كلام مفقود ، عن[1] بصيرته موجود ، لا يتكلم إلا بما شاهده فى المعهود ، ولا يدرى أن خرق العوائد من الجارى فى الوجود .

---

(١) فى الأصل : عين .

٥٥

ومن كراماته أيضاً ودلائل إخلاصه وصدقه وضع البركة — رضى الله عنه — فى رزقه

كان له — رحمه الله — بيحانس ثمرات قسطل ، وكانت عند بعض أقاربه على وجه المساقاة[١] . فكان الناس يأتون لمحل الشيخ أفواجاً برسم الزيارة . وربما كان فيهم من يأتى بسلة فاكهة . فكان الشيخ يطعمهم منه الكثير مشوّطاً فى النار ويردّ عليهم أوعيتهم مملوءة منه ، وذلك مع طول شهر أكتوبر ، شهر القسطل ، ربما كان يخرج من القسطل فى اليوم الواحد قنطار ، وكان الشيخ يقول لقريبه المساقى المذكور : « إذا وقع لديك حبة أو حبتان القها فى المطمورة ولا تحقرها » . فيقول : « وما ينض من هذا وما خطره ؟ ، دعه يؤكل كله فى سبيل الله » . قال له الشيخ : « كم كانت إصابتك فيه أبداً ؟ » . قال : « خمسون ربعاً » قال له : « خذ مني خمسين ربعاً من ذلك المطمور » . فكان [١٧٩ ظ] يلقى فيه فى اليوم ما أجلتْ من يسير حبّات . فلما انصرم شهر أكتوبر فتحا المطمور فوزنا منه اثنين وخمسين ربعاً . فعجب المساقى وقال : « إنما البركة فى الاعتماد على الحيّ الباقى » .

---

(١) فى الأصل : المساقات .

٥٦

ومن كراماته وما يوجب له فى ماله الزيادة
استعداده فى المولد المبارك لأهل الوفادة

كان — رحمه الله — يستعد لمولد النبى — عليه السلام — ما يكفى الواردين من الطعام ، مع كثرة الترادف والازدحام ، حتى كان له فى بعض تلك المواسم ما يزري فى الاستعداد باحتفال الناس فى الأعياد ، وإن كان أولئك الورّاد يزيدون على عشرة آلاف بأعداد . فكان يذبح لهم ما يكفيهم من البقر والغنم ، فيأكل المحتقر والمحترم ، والفقراء يقتربون إليه من البلدان فيردون على أخصب ما كان من بشاشة وبرّ وإمكان ، فيبقى الإطعام والسماع فى كل ناحية ثمانية أيام متوالية ، وكل نفس من هجوم الدنيا سالية . فينصرف كل إنسان من أولئك الورّاد بما اشتهى وأراد ، كل ذلك من مال الشيخ على انفراد .

قال مؤلفه : إن من أعجب ما شاهدته من البركة أن جاء ثانى يوم من المولد عبد الله المجكسى الفقير . فقال للشيخ : « يا سيدي ، طلب لى فى الدار لعقة عسل ، على وجه البركة ، من بقية طعام المولد » . فقال الشيخ : « لعمري ، ما أظن بقى شىء ، فإن العسل كان اثنى عشر ربعاً ، أطعمنا منه مائة وخمسين مائدة ، على كل مائدة عشرة رجال » . عملنا حساب ذلك ، فوجدنا العسل لم يبق منه شىء ، وكان ذلك المولد فى هذه الغرّة ، ولم يصل من الناس إلا القليل . وما زال المجكسى يلح فى الطلب ، حتى قال الشيخ لخادمه محمد بن سكن : « ادخل ، عسى تلقط له شيئاً » . فغاب يسيراً ، ثم جاء بصحفة مملوّة عسلاً . فقال الشيخ : « وأرى الرزق كان باقياً » . قال محمد بن سكن : « المحبس الذى كان فيه العسل لم ينقص منه إلا يسير من وسطه » .

فطلع الشيخ ومن كان معه فملأوا ثلاثة عشر قلّة ، كل قلة فيها ثمانية وعشرون رطلاً ، من العسل بأزيد مما كان . وكذلك الدقّوشة التى أخذ منها الزيت للوقيد ، حسبنا كم أخذ منها من قدح[1] [١٩٨ و] فوجدنا ما لا تسع قدر ذلك ، وبقى فيها كثير من الزيت .

قال مؤلفه : وقد سمعت الشيخ — رحمه الله — ذات يوم يقول : « من تكلم من النـاس [عن] الإنفاق فهو إذاً عليّ واجب ، فإنى رأيت فيه من البركة كثيراً حتى أن عليّ من النعمة إنما هى من بقيّـة بركاته » . ثم إنه ذكر هذا للذي ذكر له من حديث العسل والزيت . ثم قال : « لم أكـن أذكر هذا ، وإنما أردت ذكر بركات النبي — عليه السلام — » .

ولقد جاء خدامه ذات يوم والناس يطعمون ، فقالوا له : « الناس كثير ، جاؤوا بثلاثة أضعاف المعتاد ، ربما طعم ثلث الناس ، وبقى ثلث الكعك » . فجـاء الشيخ ، فوقف على الوعاء الذي كان فيه الكعك ، ودعا برداء وفتحه عليه ، ثم قال : « خذو من تحته ، ولا تكشفوا عنه » . فأطعموا منه أزيد من ستة آلاف رجل ، وبقى كثير من الكعك .

ولقد أصابنى مرة كسل فى السماع ونعاس ، وذلك أول تعلّقى به ومعرفتى ، ثم إنى خرجت للمسجد ، فنمت فيه . فرأيت فى النوم قائـلا يقول لى : « من خرج عن هؤلاء ، فقد استوجب البـلاء » . فقمت للحين ، ورجعت إليهم وأنا فازع ممـا رأيت على مثلهم . فليبك من كان باكيـاً ، وأخبارهم فليحك من كان حاكياً ، فيا حسرتى أن قد فجعت بعقدهم ويا وحشتاي مما يؤنس شاكيـاً .

---

(١) لخطـأ وقع فى تجليد المخطوط ، انقطع السياق هنـا ووردت تتمته فى ورقة ١٩٨ و ، كما أوردناه فى المتن .

٥٧

ومن كراماته اعتقال من قصده بسوء وأراده وتأثير إخلاصه لله تعالى فى النسك والعبادة

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت فى أول وصولى من المشرق وينكر عليّ أهل المرية طريقى ، لكون صلحائها ، أصحاب أبي إسحاق البلفيقيّ — رضى الله عنه — ، لم يكونوا دخلوا البلاد ، ولا رأوا طرق المشايخ وسلوكهم ، ولا ألفوا الفقراء قطّ . فكانوا لا يرون أنه لا طريق إلا طريقهم . فاستدعى أحد المحبّين الشيخ ومن حضر معه ، فأطعمهم مجبّنات ، وقدم للشيخ صحفة من فول ، لكونه كان لا يأكل الخبز . فازدحم القوم عليه يطلبون منه لقمة[1] [١٩٩ ظ] على وجه التبرك به . فأخذ غرفة منه ورماهم بها ، وقال : « ليأكل كل واحد منكم من صدره وطوقه » ، وهو فى حال البسط معهم .

وانفصل الجمع ، فأنكر ذلك صلحاء المرية ، وتعصبوا فى ذلك ، وكتبوا فى الشيخ ثلاثة عقود ، أحدها يقتضى أنه كان يرقص فى السماع ، والثانى يلعب بالنعمة ، والثالث يلبس الشعر ، ورفعوا العقود لقاضى البلد أبي عبد الرحمن بن غالب . فقال لهم القاضى : « إذ كان وقت الصلاة ، يصلي أو يبقى يرقص حتى يخرج وقتها ويدخل وقت أخرى ؟ » . قالوا : « أوقات صلواته محفوظة عنده » . فقالوا لهم : « أين جاء فى القرآن أو فى الحديث : « من رقص فعليه كذا من الوزر » ، أو « يآيّها الراقصين ، عليكم كذا » ؟ » . قال لهم : « وأما لباس الشعر ، فقد جاء فى الصحيح عن عائشة — رضى

---

(١) الورقة رقم ١٩٩ و ، تحتوى ، بعد البسملة والتصلية ، على نص مختلف لا علاقة له بنص هذا الكتاب لأنها اندرجت خطأ لسوء التجليد كما أشرنا من قبل . وسياق النص يرد بعد ذلك فى الورقة رقم ١٩٩ ظ ، التى تبتدىء بكلمة « لقمه » المكررة وهى نفس الكلمة الواردة فى آخر ورقة ١٩٨ و .

الله عنها — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج ذات غداة باردة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود ، وقد لبسه عيسى وعلا[١] معه[٢] إلى السماء ، ولبسه يحيي بن زكرياء حتى تثقّب جلده ، فسألته أمه استبداله بجبّة صوف ، ففعل . فأوحى الله إليه : « يا يحيي آثرت عليّ الدنيا » ، فبكى ولبس مدرّعة الشعر ، ونزع جبّة الصوف » . ثم قال لهم : « وما هذه النعمة التى لعب بها ؟ » . قالوا له : « الفول » . قال لهم : « إنما النعمة القمح والشعير اللذان خلقا من نور وجه الله تعالى . وقد جاء فى الصحيح أن سودة بنت زمعة لطّخت وجه عائشة بالحريرة بحضرة النبي — صلى الله عليه وسلم — ، فأمر عائشة أن تلطخ وجه سودة ، وذلك على وجه المباسطة والمداعبة . وقد كان أصحاب النبي — عليه السلام — يترامون بالبطيخ . فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال » .

فلما لم يجد القوم عند القاضى مرادهم ، طلعوا للقصبة لابن الرميمي ، وقالوا له : « هنا فلان بن فلان ، وقد كثر عليه الجموع ، وهذا هو الذي يثور بوادى القصب كما يذكر . فخذه قبل أن يأخذك » . (قال :) فخرج الشيخ بحكم الاتفاق لزيارة قبر الباجي ، وجمع من الناس يتبعونه . فقوم يحسنون الظن ، وآخرون ينتقدون ، وناس يقولون : « ما هذا الجمع ؟ » . فرأى ابن الرميمى ذلك الجمع ، فسأل عنه . فقالوا : « هذا هو الذى قلنا لك عنه » . فقال : « ما ظننت أن الفعال الصناع من أهل المرية يحسنون الظن برجل صالح » ، وقطع الكلام عليهم . فلما[٣] [١٨٠ و] انصرفوا دعا ابن الرميمى صاحب شرطته ووجّهه عن الشيخ أبى مروان . قال ابن حمزة : « فلما وقع بصري عليه لم أقدر أن أبدّل قدماً لناحيته ، وكنت إذا أردت الرجوع عنه وجدتنى

(١) كذا فى الأصل وقد ورد فوقها رسم ط وفى الهامش حرف ر مما يفيد أنها طار .
(٢) فى الأصل : مع .
(٣) يعود سياق النص إلى ورقة ١٨٠ و .

مسرحاً ، هكذا مرة بعد مرة » . حتى رجع لابن الرميمى ، وأخبره بعجيب ما رأى فى نفسه . ثم إن الحاج أبا عبد الله بن شعيب ، قريب الشيخ ، ذكر له القصة ، فإنه كان حاضراً إذ ذاك بالقصبة . فخرج الشيخ من المرية ، ولم يعد إليها حتى دخلها بوساطتى له ، ورغبتى إياه ، فى ذلك بعد خمس وثلاثين سنة ــ رحمة الله على الجميع ، إنه مجيب سميع ، لا إله سواه ولا مثيب للمطيع ــ .

٥٨

ومن كراماته احتراق المستخفّين به المغيّرين[1] بكلامهم السيّء له ولصحبه

حدثني — رحمه الله — ، هو وغيره من صحبه ، قالوا : ورد الشيخ فى أول وروده من الشرق على سبتة ، وكان عام غلاء ومجاعة . فمرّ على ممر من ممرّات سبتة ذات يوم ، وهو مع جماعة من الفقراء ، فقام جماعة من الخبازين كانوا فى كوشة هنـاك ، فصاحوا بالشيخ وأصحابه الفقراء : « يا ما تعديون[2] من هذا الخبز . كم يقوم بكم منه ؟ أنتم أصل الغلاء ، ما أغلظ رقابكم » . . . ، وكلام هذا معناه . وكان فى جملة الخبازين علج أسير ، فقال لهم : « ما هجن دينكم . هكذا تصنعون مع العباد ؟ نحن خير منكم ، الذين نطعم رهباننـا والقسيسين الذين لنا » .

فلما كان الليل وقعت النار فى الكوشة ، واحترق الخبازون ، إلا العلج ، فإنه سلم تحت العجـل ، فأسلم وحسن إسلامه . وجيء بالمحروقين ستّ جنائز لجامع ابن عبد الصمد ، حيث كان الشيخ يرتب هو والفقراء ليصلى عليهم . فصلى عليهم وترحم — رحمنا الله أجمعين ، وجعلنا من المخلصين له المطيعين ، ولا جعلنا عن خاصة أوليائه من المنقطعين — .

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها : المعيرين .
(٢) كذا وردت فى الأصل .

٥٩

ومن كراماته تأكيد همته فى طلق[1] الوقت فيمن استحق لتغيير قلبه المقت

وذلك أن خديمه أبا إسحاق بن عيشون — رحمه الله — كان بيحانس هو وزوجه ، وكان [١٨٠ ظ] هو يتصرف فى حوائج الدار من خارج ، والزوجة تتصرف فى الدار وترضع بنت الشيخ ، إذ وقع عند ابن عيشون عزم على السفر لوادي آش بزوجته . فسلم له الشيخ ، وإن كان فى الباطن لم يرض سفره . وكان عليّ بن رباح ، من أهل وادي آش ، وكان من أصحاب الشيخ ، عزم أيضاً على الرجوع لوادي آش ، ببرذون كان له . فجعل إبراهيم بن عيشون أسبابه وزوجته على البرذون وانصرفوا . وجلس الشيخ ببابه ساعة من النهار ، فلما دخل داره وجد زوجته باكية ، بسبب مشي زوجة ابن عيشون ، وبقيت زوجة الشيخ منشوبة بالأولاد الأصاغر . فقال لها الشيخ : « الآن ترجع » . ثم خرج لباب الدار ، فقال للحاضرين : « أين هو ابن عيشون فى هذا الوقت ، على التقدير ؟ » . فقالوا : « بجشر طيوج ، على ثلاثة أميال » . فقال لهم : « من ثم يرجع ، ما يتعدّاه » . ثم بعد ساعة وصل إبراهيم وأسبابه إلى عنقه ، فرماها وقام فى الاستغفار . فأمر الشيخ من أقبل عليه ، وقعد . فقال له الشيخ : « من أين رجعت ؟ » . قال : « كنا عند دار القشتال من طيوج ، ونحن سائرون ، إذ وقف البرذون . فضربناه ، فلم نقدر عليه بوجه . وكنا إذا صرفنا وجهه ليحانس مشى ، وإذا رمنا به المشي لوادي آش أبى ، مع

---

(١) هكذا ورد رسمها فى الأصل .

الضرب والقود . فعلمت من أين هو الأمر ، فأنزلت الأسباب وزوجتي ، وضرب ابن رباح برذونه ، ومشى لوادي آش ، ورجعت أنا وزوجتي » . فرد الشيخ رأسه للحاضرين ، وقال لهم : « ألم أقل لكم ؟ » .

قال مؤلفه : لا غرو أن يطاع المطيع ، وتبذل المخلوقات في حوائجه جهد المستطيع .

٦٠

ومن كراماته[١] تعجيل نكبات المخالفين عليه المسببين نكبات المختلفين إليه

وذلك أن أبا الحسن الشيبانىّ ، وزير السلطان ، كان يتقرّب لصدر[٢] الشيخ بقضاء حوائج الضعفاء والمظلومين ويعينهم ، إذا كتب له فى حقّهم للسلطان ، إلى أن طرأت لأحد المتعلّقين بالشيخ عثرة بغرناطة . فوجه الشيخ أحمد المسليّ أن يؤدي عن ذلك الشخص ما ترتب عليه من حق ، وذلك من مال الشيخ . فسجن الشيبانى المسلى فى غير حق ، وأراد كشف المسألة [١٨١ و] التى سترها الشيخ ، وبقى المسلى فى السجن أياماً ، إلى أن كتب الشيخ للوزير يقول له : « إنما كانت معرفتنا لك شفقة منا عليك ، وأنتم تتوهمون أن الفضل لكم فى ذلك . ترانى قد رفضتك من صدري ، وتركتك ، لما أنت بسبيله » . ثم سُرح المسلى ، وسافر السلطان لمالقة ، وسافر معه الشيبانى . فلم يكن إلا أيام حتى جاء[٣] يشتكى بمالقة للسلطان يقول له : « إنى فقدت ابناً لى منذ ثلاثة أيام ، ولم أجد له خبراً ، إلى أن ذكر لى أنه فى دار الوزير الشيباني » . فركب السلطان فى الحين ، ودخل على الوزير على غفلة ، فوجد الصبي فى الدار . فضرب السلطان الوزير بدبّوز ، حتى أشفى على الهلاك ، وتركه مهجوراً . ورجع الشيبانى لغرناطة ، فى شدة عظيمة ، وهوان وإذلال ، حتى استعطف الشيخ بعد ذلك وتاب ، ولم يرجع للوزارة إلا بشريك فيها معه إلى أن مات — رحمه الله — .

---

(١) فى الأصل : كرامات .
(٢) فى الأصل : لمصدر .
(٣) سقط هنا الفاعل فى هذه الجملة .

وكذلك أبو الحسن الفريانى ، محتسب الطعام بغرناطة وأمين قيسريتها ، كان ممن أعان على قيام هذا الشخص للذى غرم الشيخ عنه المال ، ولم يحترم مثل هذا الشخص للشيخ وتعلقه به . فتغير الشيخ على الفريانى بحكم ما جنى . فنكبه السلطان وأغرمه وضربه بالسياط ولم يستعمله أبداً ، لا جعلنا الله ممن لهم قبله مطالبة ، فنكون ممن بارز مولاه بالمحاربة .

٦١

ومن كراماته بذله جاهه بعد مماته
كبذله له — رحمه الله — فى حياته

وذلك أن ابن الرامى السفّاح كان قد أخذ بسبتة فى القطائع . فترمى على الشيخ — رحمه الله — ، فوجه فى حقه للقائد أبى القاسم فسرحه . ثم إنه بعد موت الشيخ ذكره القائد أبو القاسم ، فخاف وجاء لأولاد الشيخ فترمى عليهم ، فوجهوا الحاج الفرذوخ للقائد فى حق ذلك الرجل فأسعفهم فيه فكان يرى الحاج للشيخ فى النوم ، ويشكره ، ويقول له : « اشكر عنى القائد فى حق قضاء حاجة الأولاد وتسريح ابن الرامى وحاضر أنا معكم » .

٦٢

ومن كراماته مكاشفته بعد الممات
[١٨١ ظ] وأمره لذويه بالرحيل قبل الأزمات

وذلك أن إحدى بناته كانت تراه فى النوم ، وتسأله عن حاله ، فيخبرها أنه فى النعيم . فكانت تقول له : « ونحن معنا هناك نصيب ؟ » . فيقول لها : « نعم ، إلا أنى ما[1] رأيت هنا ما لم أظن قط ، ولا خطر ببالى ، إلا لبنت عمى عائشة » ، (يعنى زوجة مؤلف هذا التأليف) . قالت : فكنت أقول له : « وما لها من الزيادة علينا ؟ » . فكان يقول : « بصبرها على أمراضها ، وكثرة ترابيها لأولادها » . وكان يقول لها : « اخرجوا من هذا البلد قبل الحصر » (يعنى من سبتة) . فكان سبب انتقالنا للغرب عام سبعين ، ثم كان الحصر لها [بعد] خروجنا منها بأشهر ، وهذا دليل على نفوذهم من خوف العقاب وفرحهم مما وجدوه من جزيل الثواب وحسن العاقبة فى المآب .

---

(١) اعتقد أن « ما » هنا زائدة .

٦٣

ومن كراماته إنفـاقه عند الحاجة من العدم
ووجوده لمـا يطلب به دون تصريف قدم

كانت مريم ، خادم الدار — رحمها الله — ، تقول إنها تأتيه بسبتة فى بعض الأوقات بالكوز ، فى وقت القبض ، فتقول له : « نحن بلا زيت » ، فيقول لها : « دعي الكوز » . (قالت :) فأتركه وأشتغل ، ونحن برابطة التوتة من البينـة ، ثم آتيه فأقول له : « يا سيدى ، الزيت ما عندنا منه شيء » ، فيقول لها : « احملى الكوز ، تري هذا الزيت » . (قالت :) وأحمله بالزيت . (قالت :) ووالله ما رأيت من جاءنا ، ولا كان عندنا من يتصرف لنـا .

قال مؤلفـه : لقد طُلب منه الملح ، ذات يوم فى الدار ، فخرج خارج الرابطـة ، فوجد على حجر بإزاء البحر نحو مدّيْن من الملح . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ويكيّف له باكتساب وبغير اكتساب .

٦٤

ومن كراماته الشهيرة عنه بوادي آش وسقيه من قُلّة فارغة لقوم عطاش

حدثني غير واحد من أهل وادى آش ، قال : كنا معه بائتين ، أيام مرض أخيه الحاج أبى يحيى زكرياء ، فى المرض الذى توفّى منه — رحمة الله عليه — ، فأصاب أحمد بن فرج العطش . فقام لقلّة فلم يجد فيها شيئاً . فتألم من شدة العطش ، واستغاث . [١٨٢ و] فقام الشيخ للقلة التى رجع عنها أحمد ابن فرج بالعطش فلم يجد فيها ماء . فقال له الشيخ : « ألا ترى القلة مملوءة؟ » . (قال :) فقلت له : « والله ، ما وجدت أنا فيها شيئاً » .

قال المؤلف : ولقد سمعت أحمد بن فرج المذكور يقول : كنت ملازماً المبيت مع الشيخ أيام مرض أخيه ، وكان مبطوناً ، فى فصل الحر . فقال لى أخي أبو عبد الله : « دع مبيتك مع ذلك المريض فى هذا الفصل ، لئلا تقع فى المرض » . (قال :) فوافقته على ذلك ، وبتّ عند بعض أصحابى . فوقع بينهما[١] ضراب ونكد ، وتفرقنا على كل طريق بالليل ، فلم أجد خاطري أين أمضى ، ولا ألهمنى الله إلا إلى الدار التى كنت أبيت فيها ، مع كثرة ديار الأصحاب هناك والإخوان . فضويت ، فقال لى الشيخ : « ألم يقل لك أخوك كذا وكذا ، فلم جئت ؟ ظننت أنك لا تساق على غير اختيارك » .

[قال مؤلفه] : فسبحان من اصطفاهم ، وعلى ما نوصيه جلّ وعلا فوفاهم[٢] ، فأعطاهم جزيل الثواب ووفاهم .

---

(١) كذا فى الاصل ، والأصح : بيننا .

(٢) هكذا وردت الجملة فى الأصل .

٦٥

ومن كراماته التي وجودها لديه معلوم
إنفاقه على أضيافه من غير معلوم

حدثنى أبو القاسم بن جودى — رحمه الله — قال : وردت عليه بقنجاير(١) ، فأردت أن أبكر للورسانة . فقام الشيخ لقفة صغيرة من دوم كانت فى وسط البيت معلقة ، فأدار يده فيها ليجد فيها بما يشترى ما يحتاج إليه ، فلم يجد فيها شيئاً . فقعد يسيراً ، وكان وقت قبض ، ثم قام فأدار يده فيها واستخرج منها دراهم خمسة ، فقال لى : « خذ بثلاثة دراهم خبزاً ، وبدرهمين علفاً » . قلت له : « وما أصنع بالعلف ، ولا دابة لى ، وما أصنع بخبز بثلاثة دراهم فى خمسة عشر ميلاً ، وأنا وحدى ؟ وغاية رغبتى لو بعث الله لى رفيقاً » ، وكان الطريق مخوّفاً . فقال لى : « على بغل تركب ، ومع رفقاء تمشى » . فلم يكن إلا يسير [١٨٢ ظ] حتى جاء قوم ، فقالوا له : « يا سيدنا ، هل لك من حاجة للورسانة ؟ معك ما نحمل ؟ فإنا وردنا على هذا الموضع الآن ، من موضع كذا ، ونحن نبكر للورسانة ، فجئنا نسلم عليك » . (قال :) فعشاهم من ذلك الخبز ، وأعطاهم علف الدابة ، ووعدهم للسحر . فلما أصبح أتوا إليه ، فركبت وانصرفنا . نفعنا الله بذكر الصالحين وجعلنا من خيرة المفلحين .

---

(١) فى الأصل : بقلجاير .

٦٦

ومن كراماته الواضحة البرهان الصحاح
تأثير همته — رضى الله عنه — فى النفوس الشحاح

وذلك أنه ورد عليه جماعة من الفقراء ، وهم أصحاب عيـال ، فنزلوا على الشيخ ، وطلبوا منه كراء دابة ، وكان الغالب على ذلك الوقت القبض . فإنه كان لا يقبل من الحكام ولا من المشتغلين ، ومن كان من أهل الأملاك أهلًا أن يقبل منه كان فى تعب مع كثرة المغارم ورخص الغلات . ولم يكن الشيخ بعد شرع فى حرث ولا سبب ، ولا كان من طريقه أن يسأل أحداً . وكان إذا ضمت ضرورة ذكرنى ، فكنت أتمشى على أصحابى ، طلبة البلد ، فآخذ منهم قدر ما يحتاج إليه . فقال لى ، على جري عادته إذا يحتـاج الشىء : « تمش على أصحابك الطلبة فيما يكترى به هؤلاء دابة ويتروحون . فقلت له : « حدّ لى كم يحتاجون » . فقال لى : « سق ما يخال الله لهم » . فأبيت إلا أن يعرفنى . فقال : « أربعة عشر درهما » ، واستعجلنى فى ذلك . فقلت له : « إنما عليّ تصريف أقدام ، وعليك أن يكون خاطرك معى خاصةً » . فلما انصرفت لم أجد أحداً فى البلد من أصحـابى ، إلا فى قراهم وأمـلاكهم فى الفحص . فمشيت لواحد من أصحابى ، فصادفت شاباً من أعيـان البلد فى بابه وهو أبو سعيد بن عزرة . فقام إلىّ وتلقانى ، وقال لى : « ما يصنع هنـا سيدى الفقيه أبو العبـاس ؟ » . قلت له : « أسعى » . قال لى : « كيف ذلك ؟ » . قلت له « اتفق وجرى » . فأدخل يده فى خريطته ، وأخرج لى كفاً من دراهم ، وقال لى : « يكفى هذا القدر ، أو أدخل للدار أزيد شيئاً آخر ؟ » . قلت له : « يكفى بعض هذا » . وطمع بى ، فأبيت وانصرفت ، وتركته وقلت له : « متى ما يحتاج شىء أخبرك به » . وكان ذلك الفتى من

طبعه مقبوض اليد . فأتيت الشيخ ، ودفعت له الدراهم ، وأخبرته . وسافر الفقراء [١٨٣ و] مجهزين ، ولعمرى ما قدرت بعد ذلك آخذ منه غير ثلاثة دراهم ، وما رأيت أن أكله بعد ذلك فى مثله حتى الآن ، وعلمت بعد سنين أن ذلك الإعطاء أولاً ، وجزالته ، إنما كان بخاطر الشيخ ، وبعد ذلك رجع المذكور لقبض اليد الذى كان طبعه .

[قال مؤلفه :] فسبحان من جعل خواطرهم حاكمة ، ونفوسهم من الرغبة فى الدنيا سالمة .

٦٧

ومن كراماته[(١)] إغاثة الركب بالماء على يديه وقد عجز الدليل وبارت الحيل فى طلبه عليه

قال — رحمه الله — : كنت فى الركب الشامى ، فمشى الناس أياماً حتى فقد زادهم من الماء . فلما نزلوا على أنه المورد الذي كانوا يؤملونه لم يجدوا ماءً . فقال لهم الدليل : « إن الماء قد انتلف عليّ » . (قال :) فكان الناس يموتون من الوهم . ثم إنى جعلت أذنى مع الرمل ، فكنت أسمع خرير الماء يجري . فحفرت بالعكاز فى الرمل ، فخرج الماء . ثم حفرت حفرة أخرى ، ثم أخرى ، وحينئذناديت فى الناس لئلا يقتل الناس بعضهم بعضاً . فلما ناديت أقبل الناس من كل مكان وجاء الدليل وهو يصيح : « يا فاعل ، يا ابن الفاعل ! ، تقتل الناس بالوهم ، والله ، ما سمعت قطّ أبى ولا جدّي يقول كان هنا قط ماء » . فلما وصل تعجب وسكت . فأقام الناس على ذلك الماء واستراحوا وتزوّدوا ورحلوا .

قال مؤلفه : تلك كرامة من الله أظهرها ، على يدي من زكى الله نفسه وطهّرها ، وشغلها به عمن سواه وعمرها ، فلم يتعدّ ما مدّ بها إليه مولاها وأمرها .

---

(١) فى الأصل : كرامته .

٦٨

ومن كراماته تغييره المنكر على الأمراء
واستغناؤه بالله عن الأعوان والظهراء

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت فى أول وصولى من المشرق حامياً من رابطة المنتجاب[١] ، خارج غرناطة ، إذ مررت على المصلّى فرأيت جمعاً كبيراً هناك حلقة . فقلت لمن كان معى : « أولئك إنما هم على منكر ، وأنا أغيّره عليهم ، فهل فيكم موافق ؟ » . قالوا : « ولعلهم على غير منكر » . فقلت : « لا بد لى أن أغير ذلك » . فقالوا : « ليست هذه طبقتها[٢] » . فأخذت من يد واحد [١٨٣ ظ] منهم عصاً ، وطلعت إليهم ، وفرّ أصحابى للبلد . فلما رآنى السوّاس ، الذين يحبسون خيل أولئك الفرسان ، ضربوا الكفّ عليّ . فطلعت إليهم بالدرج ؛ وكان الرئيس أبو الحسن بن هود ، صاحب غرناطة ، الملقب بالبعيـل[٣] ، قد ميّز جيشه فى ذلك اليوم ، وصرف عامته ، وأقام هناك مع خاصته على شرب الخمر مع جماعة كبيرة . (قال الشيخ :) فلما وقفت على الحلقة رأيت زجاجاً مملواً خمراً . فصحت : « الصلاة عليك ، يا محمد ! » . وضربت بالعصا ذلك الزجاج حتى تكسّر ، وهم فى خلال ذلك يصيحون : « خذوا هذا الفاعل ابن الفاعل ! » ، ولا فى القوم من يعينه الله عليّ فيأخذنى . ثم أسرعت لداخل البلد ، ولا من أعانه الله على لحاقى ، وهم يجرون خيلهم خلفي . فلـما قعدت بالجامع جاء قاضى غرناطة أبو يحيى عتبـة بن الجراويّ

---

(١) ترد هذه الكلمة بهذا الرسم .
(٢) كذا فى الأصل ولعلها طبقتنا .
(٣) كذا وقد تقرأ أيضاً الفعيل .

وقال لى : « حلف ذلك الجاهل أن يقتل كل مريد بالأندلس إن لم تحمل أنت إليه . فرددته عن غرضه الفاسد وقلت له فى ذلك ما يجب أن يقال ، حتى سكن خاطره » . وكفى الله المؤمنين القتال ، وحال من الظالمين والصادقين من الرجال ، وأرغم أنف الشيطان فيما أراد من الإهمال .

٦٩

ومن كراماته تأديبه فى استناده[١] إلى المعلوم ليتساوى فى ذات الله الموجود عنده والمعدوم

قال — رحمه الله — : كنت قد دخلت جربة ، وكان لى بها معارف وأصحاب ، وكانوا يأتوننى بأنواع الفواكه إلا الزبيب ، وكنت أنا قد عرضت لى فيه شهوة فى ذلك الوقت ، وقلت فى نفسى : « فى جربة آكله حيث هو كثير ومع الأصحاب هناك » . فكنت يساق لى أنواع الفواكه إلا الزبيب ، حتى طلبته لهم . فكانوا يعدوننى[٢] به ، ثم يأتوننى ، فيعتذرون عنه بأنواع من الأعذار . ثم انصرفت عنهم ولم أطعمه ، حتى كنت أمر على القشير منه وهو ييبس فى فصل العصير ، فأطلب منه لصاحبه فيقول لى : « أين العصير ، أين الزبيب ؟ » ، كأنه لم يره منذ مدة ، والزبيب بجربة ما له ثمن من رخصه .

ثم إنى كنت بعد ذلك بيسير أمشى فى الخلاء بإفريقية ، إذ وقعت فى حيّ من العرب منقطعين ، بقية قتـل وسباء ، [١٨٤ و] وهم مطلوبون من السلطان ، والجوع قد انتهى بهم إلى أن ذبحوا أناساً وأكلوهم . فآوتنى عجوز منهم وضمّتنى فى خيمتها ، وهم قد سلّوا أشفارهم لذبحي إذا خرجت من عند العجوز ، ولحمي يختلج مخافة وقع الحديد ، والعجوز تبكى وتقول : « يشبه هذا لابنى فلان المحبوس » . وهم ينتظرون خروجي من الخيمة ويذبحوننى ويأكلوننى ، والأم تبكى عليّ لشبهى عندها بابنها . ثم إنها أخرجت لى من مخبأتها كعكاً وزبيباً ، وقالت لى فى السر : « كل هذا ، ولا تشعر به منهم أحداً فوالله ، لو علموا به لذبحونى عليه وأنا أمهم ، وقد أكلوا هنا ناساً » . فلما أعطتنى

---

(١) فى الأصل : استياده .

(٢) فى الأصل : يعيدوننى .

الكعك والزبيب زال عنى ما فى باطنى من الخوف ، وتنبهت ، لأن الله أراد أن يؤدبنى ويعلمنى أنه زادنى حيث شاء ، ما شاء ، على يدي من شاء ، وكيف شاء . وأنه حرمنى حيث لا خطر للزبيب لكون تعويلي فيه على سواه ، ورزقنى إياه حيث كدت[١] أؤكل من الجوع . وقمت من ساعتى وخرجت من الخيمة فاراً أمامهم ، لا اتقى منهم لمـا فهمت المراد منى ، وجروا خلفى ، فلم يلحقونى .

قال مؤلفه : الحمد لله الذي سلم من سوء قصدهم ، وأراح ببعدهم ، ومنّ بطول العمر فى عافية من بعدهم .

(١) فى الأصل : كنت .

٧٠

ومن كراماته اتفاق موت مهينه تحت ردم بنائه
وذلك من دليل غيرة الحق تعالى لأوليائه

كان — رحمه الله — قد ورد مع قوم من الفقراء على قرية بنواحي بجاية ، وضرهم المطر والثلج طول النهار فى الطريق . فلما وصلوا مع الليل إلى مسجد القرية المذكورة وصلّوا به العشاء الآخرة أراد المؤذن إخراجهم . فرغّبوه أن يتركهم ، فأبى وتعاون على إخراجهم بإمام المسجد حتى أخرجاهم ، وثقفا الباب ، وبقوا تحت رف السقف والشتاء والثلج ينزل عليهم . فهمّ بعض الفقراء بكسر الباب والدخول للمسجد ، فمنعهم الشيخ عنه ، وقال لهم : « كذا أراد الله بكم » . ثم خطر عليهم رجل ، وفى يده شمعة موقدة ، فقال : « ما أنتم هنا ؟ » . فذكروا له القصة ، فتأسّف وقال لهم : « تركت لى بقرة فى الجبل ، [١٨٤ ظ] فادعوا الله أن يجرّها عليّ وأحملكم إلى منزلى » . ثم مشى عنهم يسيراً ، ثم رجع بالبقرة وقال لهم : « لقيتها جائية » .

فحملنا لداره وبتنا عنده . فلما أصبح سمعنا صياحاً ، فخرج رب المنزل ، ثم رجع فقال لهم : « بقى الإمام يسمر مع المؤذن فى داره ، فغرق المنزل عليهما فماتا ، وعليهما هو هذا الصياح » .

[قال مؤلفه :] رزقنا الله مع أوليائه الأدب ، وجعلنا ممن بادر بخدمتهم وانتدب ، وداوم على طاعتهم ودأب بمنّه .

٧١

ومن كراماته فى أول أمره وابتدائه مكاشفته بما سبق له فى طريق اهتدائه

حدثنى — رحمه الله — ، قال : أنا أعدى الناس على هذا البوق ، أكسره حيث وجدته ، وقال : به فتح عليّ . قلت له : « وكيف ؟ » . قال : كنت فى ضيعتى المعروفة بالغرس فى يحانس ذات يوم فى أول ابتداء توبتى وعرس تحت القسطلة التى تحت الساقية بحارة الجامع . فسمعت البوق ، فأصابنى لصوته حنان ورقة ، ثم أخذت فى البكاء ، وكاشف الله لى فى ذلك الوقت عن كل ما شاهدت بالمشرق بعد ذلك فى طول عيشى بها أربعة عشر عاماً ، وذلك قبل سفري للمشرق وخروجى من يحانس ، حتى رأيتنى والناس خروج للقائى .

قال مؤلفه : ولا غرو فيمن نوّر الله بصيرته نور بصره ، وأثنى عليه بألسنة خلقه وشكره ، وأشاع[1] فى الآفاق ذكره وخبره ، وأيده على من أراد ضره ونصره .

---

(١) فى الأصل : واشاق ، وما أثبتناه أكثر استقامة مع السياق .

٧٢

ومن كراماته إهلاك الذين عاملوه بالقهر وضربوه وسبّوه ورموا به بعد ذلك فى البحر

وذلك أنه طلع أول أمره فى سفينة فى البحر ، ولم يعلم البحريين ، فسبّوه غاية السبّ وألقوه فى البحر . فكان يتعلق بجانب السفينة وهم يضربون يديه بالدبابيز ، ويسبونه ويمنعونه الطلوع معهم . فلم تكن عليه إلا أن عام وخرج للبرّ . وأدخل رأسه تحته وبعد بالساحل . فغرقت السفينة على الأثر ، ومات كل من كان فيها .

فلما دخل الشيخ على أبى العبّاس الشاطبيّ الرأس قال له : « أيرضيك هذا الشغل ؟ أيعجبك [١٨٠ و] أن أهلك الله على يديك خمسة وستين رجلًا أن آذوك ؟ » . فقال له الشيخ : « وماذا صنعت أنا ؟ » . قال له الشيخ : « كان الصواب لما آذوك أن تنتصر لنفسك ، ولو بكلمة واحدة ، ولكنك تغيّرت ولم تنتصر . فغار لك الحق ، فأهلكهم . استغفر الله وصم شهرين متتابعين » . قال : ففعلت .

٧٣

ومن كراماته تخريب الدير على الراهب وإبطال تمويهه بأن مذهبه خير المذاهب

حدثني — رحمه الله — قال : كنت ماشياً بالصحراء التى على إسكندرية إذ وقعت فى دير الروم ، فدخلت إليهم . وكان الراهب الذى فى الدير فطره من نصف شهر إلى نصف شهر ، وكان مسناً . ثم إنه كانت تأتيه أنثى من المعز البرية يوم فطره كأنها ترضعه ، ويضمّها موضعه . فأغلظ الكافر فى ذلك وظهر ، وقرّ عيناً بالكفر الذى كفر . وظن بتلك الفتنة ، أنه من أهل الجنة ، وعمل على الكرامة ، ولم يدر أنه حرم ما رامه ، وحاد عن الرتبة السامية ، إذ جعله من الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة التى تصلى ناراً حامية ، وأراد الضالّ أن يعاشره الشيخ ويساكنه ، وتكون نفسه له بتلك الفتنة ساكنة . فلما أبى الشيخ أن يقيم معه ، وشعر الكافر أن نفس الشيخ على الرحيل عنه مزمعة ، قال الكافر : « خذ فى السفر إن أطقت مأخذاً » ، وسدّ عليه الفضاء حتى لم يجد منفذاً ، ورأى كأن السماء على الأرض مطبقة ، والآفاق قد أظلمت بعد ما كانت مشرقة . فرجع الشيخ إليه واطّباه ، واعتذر عن المقام الذي أباه ، وقال : « أنا شاب صغير ، وأنت شيخ كبير ، فدعنى فى طريقى أسير » . فحينئذ أطلقه وأراه الطريق ، ودفع الله منه ومن أصحابه شر فريق .

فلما دخل للشيخ أبى العباس الشاطبىّ الرأس ، أحد جلة الناس ، والمشايخ الأعلام ، الذائد عن حوزة الاسلام ، [قال أبو مروان :] فبادرنى بالكلام مذ ردّ السلام ، وقال لى : « هـلّا خربت على ذلك [١٨٥ ظ] [١] الكافر ؟ أين

(١) فى الأصل : على ذلك ، (مكررة) .

محمد . . .[١] ودينك الطاهر ؟ . ارجع إليه ، وخرب عليه ! » . فأزمع فى الحين السير ، حتى وصل للدير ، وتوعّد الكافر أن ما كان منه الرجوع ، إلا ليقتله بالجوع . فما زال الكافر بالجوع شاكياً ومن أليمه باكياً إلى أن فنيت أيامه وعاجله حمامه ، وخرب ذلك الدير ، وصار مأوى للوحوش وأوكاراً للطير .

(١) هنا كلمة غير واضحة ورسمها : نايك . ولعلها : بابك .

٧٤

ومن كراماته تعجيل العقوبة لمن غيّر قلبه وآذاه وصحبه بخلاف حقّ للصحبة

حدثني — رحمه الله — ، هو وجماعة من أصحابه الذين كانوا معه إذ ذاك ، قال : لما سافرت للمشرق السفرة الثانية مع جماعة من أهل وادي آش ، وغيرهم ، وحللنا بمالقة ، التصق بنا فتى خرّاز ، ورغب فى السفر معنا للحج ، ودفع لى خرقة فيها أربعون درهما وقال لى : « هذه زادي ، خذها » . (قال :) فدفعتها لابن خالى محمد بن صاحب الصلاة ، الملقّب بالجاموس ، وقلت له : « دعها عندك ولا تنفق منها شيئاً » . (قال :) فأمسكها[١] عنده وعاشرنا لمربلّة .

فلما كان يوم جمعة ، والناس خارجون من الصلاة ، قام ذلك الخرّاز وصاح : « يا معشر المسلمين ، هذا الفاعل الصانع أخذ دراهمي وأنفقها ، هو وأصحابه ، وهو يشتغل بالصبى ، وقد هرب بهذا الشاب » . (قال :) فاجتمع الناس ورمونا بالأحجار ، وحفظنا الله . (قال :) وأنا برأسي تحتى فى الجامع ، أنتظر فعل الله فىّ وكان ابن عبيد الله قاضياً بمربلة إذ ذاك . فكان يخبر والى البلد عنّى بخير ، ويصفنى له بالخير . فصادف خروجهما من القصبة لزيارته فى ذلك الوقت بإثر الصلاة ، بينما هما فى الطريق ، إذ رأيا الخلق على ما وصفنا ، وسمعا العجيج والصياح . فسأل الوالى فذكرت له القصّة . فقال الوالى للقاضى : « هذا هو الذى ذكرت لى عنه أنه ولىّ من أولياء الله ؟ » . فقال له القاضى : « الآن صح ما وصفته [١٨٦ و] لك ، فإن أولياء الله لا يخلون من المحن » .

(١) فى الأصل : فامسها .

(قال :) فوصلا إلىّ وفرّق الناس وقال لذلك الخراز : « ما أصابك ؟ » . قال : « أكلوا مالى » . (قال :) فقلت له : « كم مالك ؟ » . قال : « أربعون درهماً » . (قال :) فدعوت ابن خالى ، فأخرجها فى خرقتها ، كما كانت . فأخذ الخراز دراهمه وانصرف . فقال له الشيخ : « شغلك الله بنفسك » .

فلم يبرح من الموضع حتى اسودّ وجهه ، وخرج لسانه على صدره ، وجعل يجرى فى الأزقة والأسواق ، ويرمى النـاس بالحجارة ، ثم ركب دابة ، وفرّ بها إلى أن لحقه الناس ، وضرب بحجر وجرح . ثم أتي به للشيخ ، ليدعو له ويغفر له ، وبقى يبكي وهو ممنوع الكلام وأنا أرقيه وأدعو له . ثم سافرنا ومشى هو فى اتباعنا ، طمعاً أن يرفع الله ما نزل به ، وما زال كذلك وأنا أسأل الله فى عافيته وأرقيه حتى فرج الله عنه بعد ثلاثين يوماً أو نحوها .

قال مؤلفه : ولقد حدثنى القاضى ابن عبيد الله المذكور بسبتة هذه القصة بعد موت الشيخ — رحمه الله — بمشاهدته لذلك . فعاشر — رحمك الله — هؤلاء القوم وحالفهم ، وفى الظاهر والباطن لا تخالفهم ، ولا تكن نفسك بهم ساخرة ، واتق الله فيهم فهو الثائر لوليّه فى الدنيا والآخرة .

٧٥

ومن كراماته تسخير المشايخ له بالتبشير
وتأنيسه بحلول الفرج والتيسير

حدثني — رحمه الله — قال : سافرت مرة فى البحر إلى أن هال علينا هولاً عظيماً ، واندقّ لوح من جانب المركب . فقلت لنواتى الجفن : « هذا المسح الذي علىّ هو كاللوح ، فشدّونى فى موضع الخرق ، وأشدّه لكم » . (قال :) فشدونى فى الموضع ، وبقيت الأمواج تضرب بى ، وأنا أتوسل إلى الله بالنبيّين والمشايخ والصالحين ، إلى أن رأيت أبا الحسن الأخلاطى قد ضرب بعصا الحديد الذى فى جانب [١٨٦ ظ] الجفن وقال لى : « فزعت ، جاءك الفرج » . فقمت وقلت : « أين الشيخ أبو الحسن الأخلاطى ؟ » . فقالوا : « ما لك تهذي ؟ ، أين أبو الحسن الأخلاطى هنا ؟ » . (قال :) وكنت إذا سألت الله بالأولياء وأسمّيهم واحداً واحداً أجد فى نفسى وقفة من أبى الحسن المذكور ، فلا أسأل الله به لكونه كان يستعمل الحشيش ويأكله . (قال :) فلما رأيته فى المركب أخذ كفاً من الحشيش ، ونفخ فيه حتى طار فى البحر ، وقال لى : « هذا هو حجبك عنى ، جاءك الفرج » . (قال :) فسكن البحر من حينه ، حتى صار كالزيت .

(قال :) ثم إنى كنت بعد ذلك ذات يوم مع الفقراء بجامع مصر ، إذ قام الفقراء لباب الجامع مسرعين ، يسلمون على أبى الحسن المذكور ، وقد ورد من السفر . فقمت إليه ، وسلمت عليه فى الجملة . ثم جذبنى لناحيته ، وقال لى : « لا تتغالط بى ، الصفة التى رأيت منّى ليست صفتى ، إنما كنت

رسول القوم الذين توسّلت بهم إلى الله وخديمهم ، وجّهوني إليك لأبشرك بالفرج » .

قال مؤلفه : وهذا قول حسن ، وتواضع من الشيخ أبي الحسن ، رضى الله عنهم ، ولا أخلانا عن البركة منهم .

٧٦

ومنها إنجاء الله له من الغرق فى البحور
وقد يئس أن يرجع إليه المركب أو يحور

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت مسافراً فى البحر إذ هدأت الريح ، فأرسينا بجانب جزيرة ظهرت هناك ، عند حصر الماء . فنزلت فى الجزيرة أتمشّى فيها ، وأعتبر بقديم آثارها . ثم هبّت الريح وامتلأ البحر ، فأقلعوا ونسونى هناك ، ولم أدر عنهم حتى غابوا . وبقيت هناك ، وما زال الماء يطلع حتى وصل إلى نصف ساقى . ثم رأيت جفناً آخر على بعد . فجرّدت مسحي وأشرت عليهم . فقالوا : « ما ذلك الواقف فى الماء ؟ » . واختلفوا ، فقوم يحضّون على الوصول إلىّ وأخذى ، وآخرون يقولون : « دعنا مما لا فائدة لنا فيه » . وفى خلال ذلك أسقطهم الماء عندي دون قصد منهم ، فأخذونى وجعلوا ينبسطون [١٨٧ و] بألسنتهم ويقول بعضهم لبعض : « هذا فتوح عظيم ! ، كم يحصل لواحد منا على ربح هذا ؟ » . وذلك لما رأوا من فقري وقلة ذات يدي ، وأنا ساكت . فلما كان وقت الغداء دعونى لأتغدّى معهم ، فأبيت . فقالوا : « لعله صائم » . فتركونى . فلما أمسوا دعوني للعشاء ، فأبيت ، ثم إلى اليوم الثالث كذلك ، لم أطعم طعاماً . ثم إنهم أشرفوا على مصر وجمعوا خمسة دنانير بشارة ودفعوها إلىّ ، فلم ألتفت إليها ، وقلت لهم : « لا حاجة لى بها ، فإني فقير لا أهل لى ولا ولد ، ما أصنع بها ؟ أعطوها لغيرى » .

(قال :) فلما دخلنا مصر عظموا خبري ، وتحدّث فيّ الناس . ثم وصل القوم الذين تركونى بالجزيرة بعد وصولى ، فحدّثوا بتركى هناك ، وهم متأسّفون . ثم دخلوا البلد ، فوجدونى فيه . فقالوا : « إنما مضى على الماء » . وشاع ذلك بمصر ، فكان الناس يزدحمون عليّ . فقال لى أبو ملوكة ، أحد جلّة أصحاب

الشيخ أبى مدين : « ما الازدحام ؟ » . فقلت له : « اتّفق لى كذا ، وجرى[١] لى كذا » . قال لى : « غيّر فى وجوههم » . قلت له : « وكيف ؟ » . قال لى : « كل من نلقاه دروزه ، وسق لى أتزوج به » . وكان أبو ملوكة كثير الزوج . (قال :) فكنت إذا لقيت أحداً من وجوه الناس دروزته ، فأتيت الفقراء بمسانيح[٢] وأخباز ، وأتيت أبا ملوكة بنحو أربعين ديناراً . فصار الناس يقولون : « هذا غريب ، خفيف الروح : زهد فى خمسة دنانير ليأخذ مئين » . (قال :) وصرت غريباً عند الناس ، وأراح الله من تعبهم . وما أسرع انقلاب الناس وأكثر اعتراضهم على هؤلاء الأجناس ، إذ لضعف بصائرهم وتوسيخ سرائرهم يعتورهم الالتباس ، وعلى أمثالهم يصدر منهم القياس .

---

(١) فى الأصل : أو جرى .
(٢) كذا فى الأصل .

٧٧

ومن كراماته وكرامات من شاهد من المشايخ
ما يدلّ على معاشرتهم له على قده الشامخ

قال — رحمه الله — : سافرت مع الشيخ حفيد عبد الرحيم إلى الكوفة فمررنا على شعراء . فقال لى : « يا عبد الملك ، اقطع ثلاثة عشر مقراعاً » . [١٨٧ ظ] (قال :) فقطعتها . ثم خرج علينا ثلاثة عشر فارساً من العرب ، فقالوا له : « ما عندك يا شيخ ؟ » . قال لهم : « ستون ديناراً » . فقالوا له : « اطرحها » . فأبى ، وقال لى : « يا عبد الملك ، كن معى » . فقلت له : « ما عندى ما أقاتل عليه » . (قال :) فرمى الشيخ حفيد عبد الرحيم كل واحد منهم بمقراع ، أسقطه به عن سرجه ، وتركناهم بالأرض دون جرح ولا قتل ، وانصرفنا . (قال :) فقلت له : « لم أخبرتهم بما عندك ؟ » . قال : « سألونى ، فلم يمكن لى الكذب ، وأرادوا أكل المال بالباطل ، فقصرتهم ومنعتهم عنه ، (١) ولم يكن لهم إليه ضرورة ، ولو أنهم سألونى من أجل الله ذلك المال لأعطيته لهم(٢) ، وكان عندى من أين أؤدي ذلك المال لأربابه » .

[قال مؤلفه :] فانظر — رحمك الله — حنانهم ورفقهم وكيف وافق فقههم وصدقهم ، وردّ الله أهل الباطل بباطلهم ووفى أهل الحق حقهم .

(١ — ٢) العبارة التى وردت بين هذين الرقمين كتبت فى الهامش .

٧٨

ومن كراماته معاشرة هذا الرجل المذكور
وما كان شهده له من السعي المشكور

قال الشيخ أبو مروان — رحمه الله — : سافرت مع هذا الشيخ المبارك حفيد عبد الرحيم ، فخطرنا على بغداد . فخرج إليه أهل البلد ورغبوا منه السكنى معهم ، وقالوا له : « ما نتركك إلا أن تساكننا حتى ننال من بركاتك حظوظنا ، كما نالها غيرنا » . فنزل الشيخ ، والبقر على دجلة ، وأهل بغداد لناحية ، إلى أن رأينا ثوراً قد عام فى دجلة ، وخرج إلينا . فأمر[1] الشيخ حفيد عبد الرحيم بذبح الثور . فذبح ، واشتري بجلده خبز أكل بلحم الثور ، وأمر عند أكله أن يخرج منه قطعتان ورغيفتان لناحية . وتناول هو وأصحابه الباقى . فقام أهل بغداد وصاحوا : « الحجر لهؤلاء الزنادقة ، الآكلين أموال الناس بالباطل ! » . (قال :) ورأيت الحجر يجيء كالشتاء فى اليوم الشديد الريح ، وعصم الله منهم .

ثم رأينا رجلين يعومان فى دجلة إلى أن وصلا إلينا وسلما علينا ، ثم قالا للشيخ : « يا سيدنا ، نحن من خفاجة ، ونشأت فتنة بيننا وبين بنى فلان ، ولم يقدر أحد على الصلح بيننا ، فقال وجوهنا : « اعلفوا ثوراً واهدوه للشيخ حفيد عبد الرحيم ، واستوهبوا منه الدعاء أن يطفيء الله هذه النائرة الواقعة بيننا » . فعلفنا الثور منذ كذا وكذا . فلما كان البارحة فقدناه من مربطه [١٨٨ و] فلم نجده ، وكنا على الوصول به . فجئنا إليك معتذرين عن القوم

---

(١) فى الأصل : فأمره .

وراغبين فى الصلح بدعائك لهم » . فأمر الشيخ [حفيد عبد الرحيم] بإخراج الرغيفين وقطعتي اللحم ، فوضعت أمامهما ، وقال لهما : « كلا حظّيكما من الثور . قد وصلنا متاعنا ، أتعرفان جلده ؟ » . قالا : « نعم » . فوقفتهما عليه فعرفاه . فلما عاين أهل بغداد هذا ، قاموا فقبّلوا يدي الشيخ ، وقالوا له : « اغفر لنا ، وطيّب قلبك علينا » . فاستغفر لهم ودعا وفارقهم مودعاً ، وترك نار الشوق فى قلوبهم مودعاً .

٧٩

ومن مشاهده مع هذا الشيخ الجليل
وفاء الخليل عند الاختبار مع الخليل

قال : كنت مع حفيد عبد الرحيم إذ ورد فقيران ، فسلما وقعدا ، وكانا شابين . فقال لهما الشيخ : « أبينكما نسبة ؟ » . فقالا : « نحن أخوان فى الله » . فقال لى : « أرأيت دعوى هذين » . قلت : « نعم » . ثم استأذن أحدهما صاحبه فى أن ينزل للعين يغسل به طاقيته » . فأذن له . ثم أمر الشيخ بمدّ السماط على طريق الاختبار ، فأكل الفقراء وأحد الفقيرين الواردين المذكورين . فلما رفع الفقراء أيديهم قال الشيخ لذلك الشاب : « كل عن أخيك لقمة » . فأكل . فقال له : « كل أخرى » . فأكل . فقال له : « كل ثالثة » . فقال : « والله ، ما أجد لها مسلكاً . والله ، إن أكلتها لينشقّ فؤادي » . فرفع السماط . وكان قصد الشيخ بذلك اختبارهما . ثم وصل الذى كان منهما فى العين ، ونفسه قد ضاقت ، وهو يقول : « يا أخى ، والله ما وجدت للثالثة مسلكاً ، والله لو أكلتها لانشقّ فؤادى » . (قال :) فصاح الشيخ وأصابه حال . ثم قال : « أين الذين يقولون : « ذهب المتحابون فى الله ؟ » ؟ » . ثم كتب بذلك لمشايخ البلاد يعلمهم بوجود مثل هذين اليوم فى العباد ، إذ قليلاً ما يوجد مثلهما فى الصالحين والعباد ، نفع الله بذكرهم وجعلنا من العارفين بقدرهم .

٨٠

ومن كراماته كفاية الله السبع عن أذاته
وقلة مبالاته به وهو مطيل لمحاذاته

قال : كنت أتوضّأ بوادى القصب لصلاة العشاء الآخرة حتى وجدت بللًا على رأسى ، فنظرت فإذا هو لعاب الأسد . فأتممت وضوئى ، وقلت فى نفسى ، خوفاً منه : « أليس وقت صلاة العشاء الآخرة متسعاً ؟ فدعنى حتى يفارقنى هذا الأسد » . ثم [١٨٨ ظ] عزمت على الصلاة فى ذلك الوقت ، فصليتها وهو أمامي ، وعيناه كأنهما جمرتان . ثم لقد كان وردي خمسين تسليمة ، أقول فى كل ركعة بفاتحة الكتاب ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ »[١] ، عشر مرات . فقالت لى النفس : « اذهب فى الأرض ، فعسي يفارقك هذا الأسد ، وستلحق وردك مع طول الليـل » . (قال :) فعزمت على أن صلّيت وردي وهو يقابلنى . فلما انصرفت تبعنى كالمشيّع لى . ثم رجع من قرب العمران .

[قال مؤلفه :] فسبحان الكريم المنّـان ملقي العزم فى قلوب أوليائه ، على قضاء ما التزموه مع شدة الخوف واستيلائه .

---

(١) سورة ١١٢ .

٨١

ومن كراماته نصرته للنبي عليه السلام
ومخاطرته بنفسه غيرة على الإسلام

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت جالساً عند منار الإسكندرية إذ جاءنى رومي ، فسلم علي وجلس بجانبى ، وكان هناك أهل البلد بجمعهم يهدمون السور ، فإن أهل الإسكندرية يرون أنه إذا تم سورهم بالبناء يدخله الروم فهم يبنون ، فإذا قارب التمام هدموه ، هكذا دائماً . فقال لى ذلك الرومى : « يا مسلم ، لم حرّم نبيّكم الخنزير ؟ » . قلت له : « بالله ، سر عنى » . ولويت عنه وجهى ، فدار وقال كذلك . فأعرضت عنه ، وسألته أن يطلب العافية ويتركنى ، فأبى . ثم قال لى : « إنما دفن نبيّكم ماءً فى الرمل ، حيث لا يوجد الماء ، وأراد أن يظهر بذلك لأصحابه آية إذا عجزوا هناك عن الماء ، فجاء الخنزير ، فاستخرج تلك الظروف وخرقها وسال الماء [1] . فلما جاء لطلبه لم يجده . فحرمه لذلك حين علم به » . (قال الشيخ — رحمه الله — :) فقمت فغرفته ورفعته فوق رأسى ، وألقيته على رأسه فى أسفل صخور كانت هناك وحافات لم يصل لمستقرّه إلا ورأسه أجزاء . ثم اجتمع الروم والمسلمون عليّ ، وحملت مُلبباً للوالى ، والخلق فى اتباعى . فلما رآنى الوالى عرفنى ، لكونه كان مجاوراً معى بمكة سنين . فقال : « ما هذا ؟ » . قالوا : « قتل رومياً بموضع كذا » . فقال : « أنا أعرف هذا الفاعل » ، يوهم الناس بذلك ، وأمر بطلوعي للقبة حيث كان . فلما خلا معى ، قال لى : « يا سيدى ، ما هذا ؟ » . قلت له : « طرّ وطرأ ، ولا بينة عندى ، وأنا أعرف موجب الشرع عليّ إذ الأحكام جارية

---

(١) فى الأصل : المال .

على الظاهر ، وأنا فى هذا الوقت ما عندى [١٨٩ و] خبر من موت ولا من حياة ، ولا أريد بوصفى لك إقامة برهان » . (قال :) فقال لى : لا تبال بما يصدر منّى لك من ظاهر سوء المعاملة فى الظاهر ، فإنى لا يسعنى غيره » . ثم قال للشرط : « احملوا هذا الفاعل الصانع للسجن وثقّفوه حتى أستشير الملك كيف يقتل . احملوه بالزق » . (قال :) فحملت ، ثم شيع من فوق الناس ، ولحق الشرط ، وأمرهم أن يسرحونى . فسرحت قبل وصولى للسجن ، ولم ألق شراً والحمد لله .

[قال مؤلفه :] فاعتبر — رحمك الله — فيما تبصره ، واعلم أن الله ناصر من ينصره .

٨٢

وفى مثل ذلك من محنته بالكفرة الملحدين
ونصرته لجانب النبوة كما يجب فى الدين

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت بالشام فى بعض الطريق إذ لقيت قسيساً . وكان الموضع ضيقاً ، من الجانب الواحد الجبل ، ومن الجانب الآخر الحافة ، وألجأته أنا للحافة امتثالًا للأمر الوارد بإلجاء أمثاله إلى أضيق الطرق . (قال :) فردّ القسيس وجهه إلىّ ، وظهره للحافة ، وركز عكازه بالأرض ، وجعل رأس عكازه فى صدره ، وتوكأ عليه ، وقال لى ، بعد أن سلم علىّ : « يا فقير ، من أين جئت ؟ » . (قال :) فقلت له : « من الحجاز » . (قال :) فقال لى : « وزرت محمداً ؟ » قلت : « نعم » . (قال :) فضرط لى وقال لى : « يسوى لك » . (قال :) فأخذت بزجّ عصاه ، ودفعت بها فى صدره ، ورميت بالقسيس فى الحافة ، فلم يصل منه عضو مع آخر ، ومشيت فى طريقى . ثم لقيت أصحابه فى جماعة : فسألونى عنه ، فقلت لهم : « هو أمامكم على طريقه » ، ومشيت فى كنف العافية .

[قال مؤلفه :] فاصدق يا هذا ، تجن ثمرة التصديق ، ويجعل الله لك من قوته خير معين ورفيق .

٨٣

ومن كراماته إسلام الشاب الرومي بين يديه حين كوشف بوقت إسلامه فقبّل بين عينيه

سمعته — رحمه الله — قال : كنت ببعض بلاد الشام التي على البحر ، فورد مركب ، فخرجنا ننظر فى جملة الناس ، ونجدد الوضوء . فرأينا شاباً من الروم ، قد نزل من المركب ، من أحسن الناس صورةً . فنظرنا إليه فى جملة من نظر ، فغمزنا الناس ولكز بعضهم بعضاً ، وأشاروا إلينا وقالوا : « يودّ الفقراء لو خدمهم هذا الشاب » . [١٨٩ ظ] وذلك كله ازدراءً بنا لكون الفقراء فيهم من يخدمهم الشباب . (قال الشيخ :) فقام منا فقير وقد عاين النور المحمدي بين عيني ذلك الشاب ، فمشى إليه الفقير وجمع بحضرة الخلائق أصابعه على شدقيه وهمّ بتقبيل فمه ، ثم قبل عينيه . فقال الشاب من حينه والحاضرون يسمعون : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . (قال :) وانصرفنا والناس متعجبون . ثم صاح الشاب : « مالى ! مالى ، فى المركب ! ، لى فيه مائة ألف دينار » . فطلب الفقراء منى أن أساعدهم على طلبه . فقلت لهم : لا تعرجوا عليه ، فنقص فى طريقكم طلبكم له . دع المال يحمل لوالده » . (قال الشيخ — رحمه الله — :) كنت أسمع عن ملوك الشام والديار المصرية استعمالهم للشباب ، فلم آمن عليه أن أتركه فى زاوية من زوايا مشائخهم فحملته لزاوية الشيخ شليل بن ميّاح ، فتركته بها لكونه لم يكن بينه وبين الملوك معاملة .

قال مؤلفه : عرفت من عادة الشيخ — رحمه الله — أنه كان إذا استغرق يصف عن نفسه ، وإذا صحا يقول : « جرى لفقير كذا وكذا » . ثم أسأل الذين سافروا معه فأجده هو ذلك الفقير فسبحان الملك الحق الذى جعل هدايته على يدى من شاء من الخلق ، ولم يجعل أخلاق المغاربة كأخلاق أهل الشرق .

٨٤

ومن كراماته معاشرة من يطعمه من الكون
ويأتيه بما ليس فى الوقت بلون بعد لون

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت بدمشق بالجامع إذ مر بى شيخ لم أكن قط أعرفه . فقال لمن معى من صلحاء البلد : « من هذا ؟ » . قالوا : « شاب على طريقة كذا وكذا » . فقال : « يا ليت لى منه خرطمة ! » (يعنى قبلة) ، وسار على طريقه ولم يلتفت . (قال :) فبقى فى خاطرى من كلامه تشويش ، ثم عزمت أن أبيت تلك الليلة فى المغارة التى قتل فيها كامل العابد ، وهى خارج البلد ، مقطوعة فى الحجر ولها أبواب من نحاس محكمة العمل ، فى نهاية من الوثاقة والتحصن . (قال :) فوصلتها مع المغرب وليس فيها أحد ولا معى أحد . فثقفت الباب [١٩٠ و] وقمت أصلى بعد العشاء الآخرة متنفلاً . ثم أحسست بشخص لجانبى ، فلما سلمت نظرت ، فإذا هو الشيخ الذى قال « يا ليت لى منه خرطمة ! » . فقدمته للصلاة فقرأ قراءة لم أسمع مثلها ، وسلم من ركعتين قرأ فيهما نصف القرآن . (قال :) وأصابنى فى خلال صلاته جوع وشهوة شديدة للطعام . فقلت فى نفسى : « يا رب ، فى هذه الليلة أصابنى هذا الجوع الذى شغل بالى » . فلما سلم ذلك الشيخ قال : « ما هذا الجوع الذى بك ؟ » . ثم خرج وجاء بضوء ومائدة فيها أنواع من المطاعم ، حتى السمك والرمّان وغير ذلك ، وقال لى : « كل ! » . (قال :) ثم رجع لصلاته حتى أصبح .

قال مؤلفه : وكل إنسان يدل باطنه عليه ، وشبه الشىء منجذب إليه .

٨٥

ومن كراماته البسط منه فى غير مواضعه
ليسقط من أعين الخلق وذلك دال على تواضعه

قال — رحمه الله — : حضرت ليلة فى مجلس الخليفة أبى جعفر المستنصر[1] ببغداد ، برسم حضور السماع مع الفقراء والمشايخ . فوضع للفقراء طعام مما يليق بهم ، وقدم لى أنا روز ، وقعد بين يديّ مملوك وفى يديه شمعتان برسم الخدمة . فقال : « يا سيدى ، اجعل فى فمى مغرفة ، على وجه البركة » . (قال :) فجعلت المغرفة فى فيه ، وتركتها فيه ، ولم تكن له حيلة فى زوالها ، لكون يديه مشغولتين بحبس الشمعتين . فضحك لذلك من حضر ، وكان النجم ، الشاعر المتصوّف ، هناك ، وكان كثير البسط على الفقراء ، فقال لى قبل دخولنا : « دع البسط فى هذا المحل ، فإنا بحضرة الخليفة » . (قال :) ثم ازدحم علي الناس ، يطلبون المشاركة فى ذلك الطعام على وجه البركة . فقلت لهم : « وماذا عسى يحصل من هذا للواحد منكم ؟ » فأخذت لقمة بيدى من الروز ، ورميتهم بها ، وقلت لهم : « يأكل كل واحد منكم من طوقه » . فطار منه بعض لعنق الخليفة ، وهو فى بهوه على انفراد مع خاصّته . فقال : « الحمد لله رب العالمين ! ، كان لى قصد فى مشاركة هذا الرجل فى الطعام ، وكنت أقول : « كيف يتفق ؟ » ، إن دعوته دون الفقراء والمشايخ ، كان سوء أدب معهم ورعونة النفس . وخوف الحشاشية يمنعنى من النزول إليه » . فأطعمنا الله ما أردنا دون تكلف » .

[قال مؤلفه :] فانظر — رحمك الله — لعزة من أهان نفسه فى الطاعة ، وتابع انفراده بالله وانقطاعه ، ولم يتخذ غير مجاهدة النفس فى رضى مولاه بضاعة .

---

(١) فى الأصل : المنتصر .

٨٦

[١٩٠ ظ] ومن كراماته رؤيته فى صغره لمن جل مقداره ففاضت عليه بملاحظته بركاته وأنواره

قال — رحمه الله — : كنت أقرأ فى صغرى على قريبى جوديّ بن جودى القرآن بيحانس . (قال :) فعملت يوماً ما أوجب ضربى ، فقال : « ارفعوه أضربه » . ثم جثا على ركبتيه ، وقال ، والدرة فى يديه : « إن ضربى لك فى هذا الوقت هو بشهوة ، فـلا أعاننى الله عليك » . فلما رفع يديه بالدرة طارت الشوكة وبقى العود فى يديه ، فألقاه وبقى مطرقاً .

وكذلك قال إنه جاء ذات يوم إلى أم الشيخ فقال لها : « يا ابنة خالى ، معكم دقيق ؟ » . قالت : « نعم » . قال : « اعجنوا خبزاً كثيراً ، واعملوا من الجبن طاجناً كبيراً ، فإنه يصلكم الليلة(١) ثلاثة رجال ، فيهم أسود فطره من سبعة أيام إلى مثلها ، فحيث حان فطره يأكل ما وجد » . (قال :) ففعلت ما أمر به ، ثم وصل مع بقية الثلاثة الذين ذكر ، وفيهم الأسود . فنظرت إليه عند الأكل ، فوجدته كما قال .

ثم سافر جودي المذكور للحج ورجع حاجاً . فلما كان عند تنّس توفى — غفر الله ذنوبنا بذكر أوليائه — ، وعند دفنه قال المؤذن : « يا عبد الله ! : لا تنس ما كنت عليه فى دار الدنيا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » . فقال من القبر : « كلا ، والله ، لست بفاعل ! : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ررسوله » . فلما وصل الشيخ أبو مروان من الشرق عرّف بقبره وذكرت له قصته ووجد عقداً مكتوباً بكلامه فى القبر

---

(١) فى الأصل : الليه .

رداً [1] على المؤذن الجواب المذكور وهو قوله : « كلا ، والله ، لست بفاعل أن أنسى ! ، أشهد أن لا إله الله وأن محمداً عبده ورسوله » . وهم يسمون القبر قبر النـاطق وقد بنيت عليه قبة وهو مزار إلى اليوم . (قال :) وفي العقد تسعون شاهداً ، وهم الذين حضروا جنازته وسمعوا كلامه من القبر . لا خيّب الله من بركة وصفهم الجميل ، وبلغنا من موافقتهم فى الجنان غاية التـأميل .

---

(١) فى الأصل : رد .

٨٧

ومن رعايته لنفسه عند ركونها لغير مولاها
وسكون المـاء فى المحاولة المكتسبة ألاها (١)

قال — رضى الله عنه — : هال البحر علينـا مرة وخفت الغرق خوفاً شديداً . (قال :) ثم قاربنا البرّ بأميال ثلاثة أو نحوها . فرأيت نفسى قد سكن خوفها ، فنظرت سبب ذلك ، فلم أجد إلا قرب المسافة التى بينى وبين البر ، وكنت أقدر على قطعها بالعوم . فكان ركون النفس [١٩١ و] إلى حولها وقوتها ، ولم تلاحظ مولاها فى تدبيرها . (قال :) فأخذت شريطاً كان عندى وشددته على يديّ ورجليّ ، وقلت لها : « ما ذا بقى لك إلا الله ؟ » . (قال :) فلما وصلنا المرسى رآنى بعض أصحابى ، وأنا أحل رباطى ، فقال لى : « ما تصنع ؟ » . فذكرت له القصة كما اعترت ، ومن الواجب أن يبصّر(٢) بمن فرّط وقصر ، وغير تدبير مولاه أبصر ، وعن لزوم للرضى بحكم القضاء أقصر .

---

(١) وردت هذه العبارة فى الهامش وبخط غير واضح .
(٢) فى الأصل : ينصر . وما أثبتناه أكثر استقامة مع السياق .

٨٨

ومن مجاهدته والعمل على قطع العلائق
والوقوف فى تصفية الباطن مع الحقائق

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت أمشى مع الركب ، وأنزل أمامه بميل ، لئلا أكون متعرضاً للسؤال ، إذ كنت لا زاد لى ، ولا أسأل ولا أتعرض ولا أتكلم . ولقد دخلت الصحراء منفرداً ، دون زاد ، ونويت أن لا أسأل ولا أتعرض ولا أتكلم ، ولا أمد يدي إن أعطيت . (قال :) فبينا أنا أمشى بالصحراء ، إذ رأيت ركباً مقبلاً . فنكبت عن الطريق ، لئلا يكون تعريضاً منى ، إذ رأونى دون زاد ، فتبعونى حتى لحقوني . فاستلقيت بالأرض ، فكلمونى فلم أكلمهم ، فقالوا : « هذا قد اختلّ من كثرة الجهد ، ولذلك هرب منا ، وتراه لا يطيق الكلام » . فأعطونى الخبز ، فلم آخذه . فقالوا : « ليس فيه ما يأكل الخبز » . فأتوا بالسمن والعسل وسخنوه ليسقوه لى . فلم أفتح له فمي . فجعلوا السكين بين أسنانى وأشدّوا عليّ حين شدد[ت] أسنانى بعضها على بعض . فلما خفت كسرها فتحت فمى وضحكت . فقال بعضهم : « ما يضحك ، وهو على هذه الحالة ، إلا لاختلال عقله من الجوع » . (قال :) فقلت لهم : « والله ، ما أضحك إلا للطف الله بى ورفقه ، حيث فررت من رزقي ، وهو يطلبنى على هذه الحالة » .

[قال مؤلفه :] فسبحان من قوّاهم وأعانهم ، فى طلب مرضاته على اتباع هواهم ، وسكنوا الفيافى ليكون الخلد بفضل الله مأواهم (١) .

---

(١) فى الأصل : ماوهم .

٨٩

ومن رياضته للنفس — رحمه الله — وتأديبها
وإبطال دعوتها لقلة الصبر على الجوع وتكذيبها

حدثني — رحمه الله — ، وقد سألته عن سبب تركه للخبز والماء ، فقال : أما الماء فكنت قد خرجت من الصحراء فى نهاية العطش ، فطلبت الماء ، فأتتنى به خادم وأنا قائم فى الصلاة . فأخذت من يدها الماء فشربت . ثم انتبهت أنى كنت فى الصلاة وأنى أسأت [١٩١ ظ] الأدب مع الله لالتفاتى للماء فى حق نفسى وخروجى من بين يدي الله . فقلت لنفسى : « أخرجتنى من بين يدى الله فى حق شهوتك ، وعزّة ربى لا سقيتك ما شاء الله ! » . وأما تركى للخبز ، فكنا قد وردنا فى جمع من الفقراء على مكة ونحن جياع ، ففتح الله فى دقيق ، عجن منه خبز وطبخ ، وخرج بعض الفقراء فى طلب إدام للخبز ، وخرج آخرون فى حوائجهم . فأكلت أنا فى خلال ذلك خبزة ونصف خبزة . فلما اجتمعوا ووجدوا الخبز قد نقص قالوا : « من أكل هذا ؟ » . قلت لهم : « أنا » . فقام فقير من أكبر من فيهم فوبّخنى على ذلك واستنقصنى . فقلت لنفسى : « وعزة ربى ، لا أطعمتك خبزاً ما شاء الله ! » . (قال :) فبقيت كذلك تسعة أعوام .

فلما كان فى سهيل وهو ماش فى السفرة الثانية للحج ، وهو [فى] جماعة من أهل وادي آش ، يعاينونه ولونه يصفرّ ، وهو يتمايل ويقول لهم : « هل تسمعون شيئاً ؟ » ، فيقولون : « لا » . فقال لهم : « إنى أسمع الشجر والحجر والمدر يقول : « اشرب الماء يا عبد الملك ! » . فلما كان فى ماء سهيل كان يشاهد النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه العشرة يأمرونه بشرب الماء وأكل الخبز ، فشرب هناك . فلما وصل إلى استبونة بات عند أحد المحبين

فيه ، وكان من دعائه إلى الله أن يجعل الله أول أكل الشيخ للخبز فى داره . فلما قدم ذلك الرجل الخبز لأصحاب الشيخ مدّ الشيخ يديه فأكل معهم . فبلغ صاحب المنزل غاية سروره وعمد الى غريض من البقر ، فذبحه وأطعم أهل القرية فى حق أكل الشيخ عنده للخبز .

[قال مؤلفه :] ومن ترك حظ نفسه فى حق مولاه ، أولاه من الثواب والكرامة ما أولاه ، ورفع قدره فى الدارين وأعلاه ، وقلده الثناء العجيب وحلاه .

٩٠

ومن مكاشفاته مصاب من استغرق فى طلب إمارته وتنبيهه إياه فلم يتفطن إلا بعد ذلك لإشارته

وذلك أنه وصل — رحمه الله — للأمير أبى يوسف بن عبد الحق ، وهو محاصر لمراكش أيام المرتضى ، مستنفراً للقبائل فى شأن الغزو لبرّ الأندلس . فاتفق أن استهل هلال رجب فى تلك الليلة ، فقال الشيخ للأمير أبى يوسف : « هذا شهر من الأشهر الحرم . اقلع من هنا ، وارفع الفتنة ، واحقن دماء المسلمين ، يكن لك فى ذلك خير ، وإلا أخاف عليك تلحقك الندامة » . وجرّ [١٩٢ و] الشيخ يده على لحيته . فاعتذر له أبو يوسف ، وسافر الشيخ ثانى يوم . فلم يصل الشيخ لسلا إلا وعبد الله بن الأمير أبى يوسف قد لحق ميتاً ليدفن بسلا ، قتل[١] على مراكش — عفا الله عنه — ، ثانى يوم من انفصال الشيخ — رحمة الله عنهم — . فحينئذ تفطن أبو يوسف ، وقال : « لذلك جر الشيخ يده على لحيته » . وقال : « إن لم ترحل وإلا تندم » .

[قال مؤلفه :] رحمنا الله بذكر أهل الخير ، ووقانا ببركاتهم المكروه والضير ، ولا آخذنا بما نذكره فى حق الغير ، وحملنا على منهاج الصالحين فى المصير إليهم والسير .

(١) فى الأصل قمل (كذا) .

٩١

ومن كراماته — رضى الله عنه — إبراؤه للمجانين وملاطفته بالضعفاء والعصاة والمساكين

وذلك أن أحد الفقراء كان به جنون ، وكان ينقلب فى أكثر الأوقات . فاتفق اجتماع الشيخ به وهو قد جنّ ، فكلمه الشيخ ، فكلمه الجان وقال : « إنى مؤمن ، وهذا الفقير كثير الوقوع فى المعاصى الكبار » . فقال له الشيخ : « خلّه ودعه » . قال : « على شرط التوبة ، وإن عاد ، عدت إليه » . ثم تركه ، فلما أفاق ذكر له القصة . فتاب وأراحه الله من الجنون . ومن يرِ الله تأديبه ، يقيّض له وليّه وحبيبه ، ليكون سبب توبته وليزيح[١] الله به تعذيبه .

---

(١) فى الأصل : وليريحه . وما أثبتناه أوفق .

٩٢

ومما يطابق هذا المعنى أيضاً ويشاكله
ويقرر صحته لدينا أعماله البرة وفضائله

وذلك أن صبية من أقاربي بارينتيره أصابها فى عقلها أمر لم ندر ما هو ، هل جنون أم يبس . وكانت تقول من القبيح أمراً كثيراً بالصياح ، وكانت قبل هذا من أعقل البنات . فأتينا بها الشيخ — رحمه الله — ، فقرأ عليها فتكلم على لسانها جانّ ذكر أنه لم يلبس قلبها بعد . فكلمه الشيخ أن يتركها ويذهب ، فوعده أن يفارقها عند انقضاء ثلاثة أشهر ويرحل إلى مرسية . فعاهده أن يسلم قلبها . فكان ، والله ، كما قال . وبرأت الصبية وتزوجها الخطيب أبو عبد الله بن الفقيه ، إلى أن ماتت عنده وهى من أعقل الناس — رحمها الله — .

وكذلك اتفق له بيحانس عند مجيئه من المشرق مع مجنون من أهلها ، هدده وتوعده ، حتى خرج منه الجان ولم يعد . حدثنى بذلك أهل يحانس . وكذلك بنت أبى يحيى بن نوح ، زوج [١٩٢ ظ] إبراهيم بن طاهر ، كان لها مدة أشهر مقعدة . فدعاه زوجها لداره ، وسأل منه أن يرقيها . فرقاها ، وكانت قريبته . فقامت من يومها ، ومشت . والحمد لله على ما به منّ علينا ، و[ما] جره من الخير على يدي أوليائه إلينا ، وأودع محبتهم بفضله وكرمه لدينا .

٩٣

ومنها مكاشفته بجيرانه عند دخول حصنهم واستنزالهم قسراً من محل دعتهم وأمنهم

وذلك أنه كان عام أربعين بوادى آش ، ينبسط مع أصحابه ، إذ أدخل رأسه تحته ، وانقبض ، وتفرق عنه أصحابه وبقى كذلك إلى اليوم الثانى ، حتى دخل عليه عبد الرحمان [بن] القدح . فقال له الشيخ عند دخوله : « أخذ جماعة أهل يحانس » . قال له : « نعم » . ثم وصل الروم بالأسرى ، فقاطع عليهم أهل وادى آش ، وفدوهم بألف وسبعمائة دينار وردّوا إلى مواضعهم وما زالت حالهم ببركة جاهه تنمى ، وسحب الخيرات عليهم إلى الآن تهمى .

٩٤

ومنها مكاشفته بغرق بعض أجفان المسافرة
ونزوله بعد دفع الكراء إذ رأى نفسه للسفر منافرة

وذلك أنه أراد الطلوع فى جفن ، عند سفره إلى المشرق ، فطلب منه فى الكراء دينار . فلم يكن عنده ، فقعد . فجاء رجل فدفع عنه دينار[اً] وانصرف . (قال :) فلما جاء للطلوع فى الجفن وجد فى باطنه ظلمة ، فلم يركب فيه ولا سافر . ثم إن صاحب الدينار لقيه ، فقال له : « لم لم تسافر ؟ » . قال له : « لأنى لم أجد فيه خاطرى » . فقال له : « كذا أنتم : لم أجد خاطرى ، لم أجد خاطرى . . . » . فقال له : « إن كنت أعطيته لله فقد بلغت قصدك ، وحسبك » . (قال :) فلما كان بعد يوم أو يومين ألقى البحر رائس الجفن ميتاً ، وصح أن الجفن غرق . فجاء صاحب الدينار واعتذر من قوله . ومن كان قلبه مع الله صادقاً ، لم يزل خاطره للباطل مفارقاً ، وللصدق موافقاً .

٩٥

ومن كراماته صلاح ذريته فى الصغر ونجابتهم
وسرعة إقبالهم على الفضل والدين وإجابتهم

[١٩٣ و] وذلك أن أولاده كان منهم أول ولد اسمه زكرياء ، توفى من سبعة أعوام ، وكان يتكلم على الخواطر بأغرب الكلام ، ويبشر بإقبال الفتوحات ، قبل الكون ، فيكتم والداه ذلك عن الناس ويصونانه أى صون . ولو عاش لكان رقعة من اللون ، لكن مثل ذلك لا يعيش بهذا الزمان ، ولو بذلت فيه الدنيا ثمنـاً من الأثمان . فأكرمه الله بالممات ، وجعل وفاته لوالديه من أجلّ الكرامات . فمن قدم مثله من البنين فليهنئه الأجر المتين . ألحقنا الله بمن أهّل للخير وطريقه ، وجعلنا من حزبه الفاضل وفريقه ، بمنه ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره .

٩٦

ومن مكاشفاته بما ينطق به اللسان
ويقوله فى داره بظهر الغيب الإنسان

حدثنى أبو القاسم بن جودى قال : ورد عليّ الشيخ — رحمه الله — ، مع فقراء ، (قال :) فطلبت إداماً ، فلم أجد شيئاً حاضراً يقرّ عينى ، فأتيت بما أمكن الوقت ، ودخلت دار أختى ، فوجدت عندها طاجناً من قنلية[1] ، فقلت لها : « أسلفنى[2] هذه القنلية ، أجهز بها غداء الشيخ فى الوقت » . فقالت : أتقى أن ينكرنى زوجى ، إذا جاء » . قال لها : « ترانى أخرج وأشرى لك فى الحانوت قنلية ؟ » . قالت له : « ومتى يوجد فى السوق هنا قنلية للشراء ؟ » . قال : فأخذت الطاجن ، على غير اختيارها ، وخرجت به ، فقدمته للشيخ وأصحابه . فلما أكلوا مدّ الشيخ يديه لجانبه وأخرج قنلية فى جلدها وقال : « احمل هذه للسيّئة الظن التى قالت : « ومتى توجد هنا فى السوق قنلية ؟ » . ما أصعب القنلية بيقين[3] » . (قال :) فحملتها لها ، وذكرت لها قول الشيخ ، ففرحت وطابت نفسها وانشرحت .

---

(١) هذه الكلمة من اللاتينية وتطلق على نوع من الأرانب .
(٢) كذا ، وصحتها أسلفينى .
(٣) كذا فى الأصل ؛ وكلمة القنلية فى هذه الجملة غير واضحة ورسمها : القلسا .

٩٧

ومن كراماته إيثاره لنفسه على معارفه
وحسن احتماله عمّن ليس بعارفه

وذلك أنّا كنا بيحانس بدار الحاج محمد بن هشام فى غرفة له وسمرنا كثيراً ، وكان معنا فقير دكالى ينتمى للشيخ أبى محمد صالح — رضى الله عنه — ، ويزعم أنه من تلاميذه . فجرى كلام فى ذكر أهل وادى آش ، فجعل ذلك الدكالى يذمّهم ويصفهم بالبخل ، والشيخ يقول له : « الله يحشرنى معهم » ، وأنا أعضد أهل بلدى وادى آش وأصف [١٩٣ ظ] خيرهم ، وطال التردد فى هذا . ثم قام الشيخ لينزل للدار فى تجديد وضوء ، فاحتول بعتبة الغرفة من تحت رجله قبقاب كان لى ، وحاف من أعلى درج على رأسه . وصادف أن كان فى أسفل الأدراج مطمورة للقسطل مفتوحة كما أخرج[١] منها القسطل ، فجاء الشيخ على رأسه فى أسفل المطمورة . فجريت فأخذت بيده ، وقام ولم يصبه إلا أن تسلخ طرف من جبهته ، على قدر الظفرة . وسلم الله ووقى .

فلما كان ثانى يوم دعانى وهو فى منزلى بأثر وضوئه ، فقال لى ولأبى جعفر ابن شعيب — رحمه الله — ، وكان من جملة من حضر معنا عند وقوعه ، فقال لنا : « أنتما من قرابتى ، أقول لكما ما كان سبب الوقوع : وذلك أنه لما قال ذلك الرجل من أهل وادى آش ما قال ، علمت أنه لا بد من عقوبة تصيبه على ذلك . فسألت الله أن يجعل العقوبة مختصّة بى ، إن عاقب على ذلك . فلم يكن إلا أن بدلت قدمى واحتولت على رأسى فى الحين » .

---

(١) وردت في الأصل على شكل : اخوج .

٩٨

ومن ذلك إلقاؤه البلاء بنفسه عن أهل تصافيه
ورغبته فى أن ينفذ عين المتكلم إن نفذ دونهم فيه

وذلك أن أصحابه من أهل ارينتيرة[١] اجتمعوا وطلعوا لأغنامهم بجبل شلير فى زمن الصائفه ، بالفقراء والمسمّعين والطيّبات من المآكل ، وطلع الشيخ معهم . فمرّوا على قوم من أهل القرية ، وهم جلوس . فقال أحدهم لآخر : « يا أخى ، هؤلاء ربحوا الدنيا والآخرة » . فلما سمعه الشيخ قال لهم : « إن نفذ عين هذا فاجعله فىّ دونهم » . فوالله ، ما هبطوا من الجبل إلا والشيخ مصلب على دابته من وجع أصابه فى ساقه ، ورجع أصحابه وهم سالمون ، وظهرت الإجابة فى دعائه وتحمل البلاء عن أحبابه وأصفيائه .

---

(١) فى الأصل : ينتيرة .

٩٩

ومنها مكاشفته بعقد الأيّل وسوقه للأولاد قبل أن يخرج الصيادون من القرية للاصطياد

وذلك أن أبا القاسم بن جودى حدثنى أن الشيخ — رحمه الله — كان بلورسانة [١٩٤ و] بأهله وأولاده فى جنان ابن جودى أيام العصير . فخرج ذات يوم أهل لورسانة لصيد الأيل وجاؤا إليه يستأذنونه فى ذلك . فقال له أولاده وأهله : « وددنا أن لو ساقته الأقدار لأسفل الجنان حتى نراه » . فقال لهم الشيخ : « كأنى بأيل فى أصل تلك الثمرة قد أهدى لكم مذبوحاً » . فلم يمض إلا ساعة حتى أرهق القوم أيلاً وعقدوه بأسفل الجنان ، وأهله وأولاده ينظرون إليه . ثم اجتمع رأي الجماعة أن أتوا به هدية إليه ، وجعلوه فى أصل الثمرة التى أشار إليها — رحمه الله — كما قال ، دون توان ولا اعتقال ، والحمد لله على كل حال .

١٠٠

ومنها أمره للرئيس فى حال استعلائهم بالإقلاع ومؤاتاة هوائهم المنتظر فى غاية الإسراع

حدثنى الحاج عبد الملك الجزيرى النجار ، المعروف بابن بليطة ، بدار الصنعة بسلا ، قال : يقال لى أنا الحاج عبد الملك ولليحانسى الحاج عبد الملك ، وكم بيننا ! (قال :) كنت مسافراً معه فى سفينة من سبتة للخضراء ، وأخذنا فى الاستعلاء ، فبينا نحن نحاول أمر الاستعلاء ، والهواء غير مساعد للاقلاع إذ قال الشيخ أبو مروان للرائس : « افتح القلاع ! » . قال له الرائس : « يا سيدى ، ليس هذا هواؤنا » . قال له : « افتح القلاع ! » . (قال :) فامتثل الرائس أمره لمعرفته بحاله ولم يعوّل على معرفة نفسه ، وفتح القلاع . فإذا بالريح قد هبت مع آخر فتحه ، ومشينا فى كنف السلامة إلى أن وصلنا بحمد الله .

١٠١

ومن كراماته مكاشفته ودعاؤه المجاب فيمن ركب فى طريق زيارته المعصية وقال خرق الحجاب

وذلك أن أحد أهل مالقة قصد زيارة الشيخ بيحانس ، وجاء معه فتى ، من أهل وادى آش ، يعرف بأبى يحيى بن عامور . فلما وصلا إلى أرجبة أو قدمر — أنا أشك فى ذلك — ، جاء إنسان إلى المسجد فدعاهما ليتعشيا عنده ويبيتا . وكان ذلك المالقى ينشد نشيداً طيباً . فلما أكلا أنشد المالقى [١٠١ ظ] إلى أن أتى رب المنزل بخمر ، وجعلها أمامهما . فدخل ابن عامور خلف رف كان مسنداً للحائط . فقال له المالقى : « خرق الحجاب » ، وشرب مع ربّ المنزل . فلما أصبحا رحلا إلى الشيخ ، وكان فى ذلك الموضع من ينكر على الشيخ طريقه فى ذلك الوقت من الصلحاء الذين لم يدخلوا البلاد ولا عرفوا طريق الشيخ وهو أبو الحسن بن باقى ، خطيب ذلك الموضع . فجاءه الرجل الذى شرب معه فى منزله ذلك المالقى وقال له : « شرب معى البارحة رجل من أصحاب اليحانسى » ، وتكلموا فى ذلك .

قال أبو يحيى بن عامور : « فعند دخولنا على الشيخ أبى مروان وسلامنا عليه ، تقدم ذلك المالقى للكلام[1] بإدلال منه ، حسبما عهده قبل ذلك . فقال له الشيخ : « قم عنى وخرق الحجاب كما قلت وفعلت فى موضع كذا ، شغلك الله بنفسك » . وقال لأبي يحيى بن عامور : « اقرب أنت الذي دخلت خلف الرف » (قال :) « والله ما فارقت الحمى المالقى ستة أشهر » .

[قال مؤلفه :] نسأل الله السلامة من غيرهم على من عاملهم من غير طريق الاستقامة ، ونعوذ به من ارتكاب طريق التوبيخ والملامة .

---

(١) فى الأصل : للام ، ولعل صحتها كما أثبتناه فى المتن .

١٠٢

ومن كراماته اللائقة بأهل الطريق
إلصاقه بريقه بعد الخلع أنبوب الإبريق

وذلك أنه كان مريضاً ، وكان يشرب الماء فى إبريق مالقى أخضر ، فأخذته زوجته بأنبوبه ، فانخلع فى يدها . فتأسفت لذلك ، وأخذ ابنه يدخل فيه الحلفاء ويلعب فيه ، فلما طلب الشيخ الإبريق ليشرب به — وكان من المرض بحيث تدعو الضرورة الماسة إليه — ، أعلمته به وهى متأسفة[١] عليه بسبب الحاجة إليه . فأخذ الأنبوب ، ولعبه بريقه ، ووضعه فى موضعه الذى انخلع منه ، وقال : « دعوه » . فصار كما كان قبل انخلاعه ، صحيحاً ثابتاً وبقى يتخذ أعواماً بعد ذلك . ومن خرق العادة مع الله خرقها معه ، وأراه العجائب وأسمعه .

---

(١) فى الأصل : متسفة .

١٠٣

[١٩٥ و] ومن كراماته مراعاته لأوقاته
وتأديبه للنفس ليبلغ بذلك غاية مرقاته

حدثني — رحمه الله — قال : كنت بالمغرب فسمعت بأن طائفة من المريدين بمعدن عوام ، فقلت فى نفسى : « أدخل أتجسس عليهم ، حتى أرى ما هم عليه ، وأعرف كيف طريقهم » . (قال :) فلما دخلت الباب ، أخذت عن جاسوس ، وثقفت فى البرج ، وبقيت أحاسب نفسى وأقول : « يا رب ! ، من أين أتيت ؟ ما هذا التجسس الذى رميت به ؟ جئت من حج بيتك ، [و]من زيارة قبر نبيك ، والمشايخ والصالحين ، [و]أوخذ عن جاسوس » . ثم ألهمنى الحق سبحانه : لقولى فى نفسى « أتجسس عليهم » ، فاستغفرت الله تعالى . ثم وصل من الصيد وزير السيّد الذى أمر بسجني ، فأخبره بخبرى . فجاء الوزير فعرفنى . فلم يزل يعتذر لى . ثم رجع إلى السيد فأخبره . فأمر أن أصل إليه . فأبيت ، حتى جاء إلىّ فاعتذر لى ، وحينئذ خرجت .

قال مؤلفه : يا أخى ، حاسب نفسك تسعد ، ولا تصحب البطالة والغفلة فتطرد وتبعد .

١٠٤

ومن كراماته تأديبه — رحمه الله — وتنبيهه إذ كان قبل محاسبة نفسه بمشرك تشبيهه

حدّثنى — رحمه الله — قال : كنت بالمغرب ، فأردت السفر للأنداس . فقلت فى نفسى : « إن مشيت على الجبل وجدت المـــاء والعمران ، وإن مشيت على الفحص وجدت الخلاء وقلّة الماء » . ورجحت المشى على الجبل : وركنت للمخلوق . فبينا أنا أمشى بالجبل ، إذ لقيت قوماً من البربر ، فقالوا ، « المشرك والمشرك ! » . وحبسونى ليقتلونى وهزّوا عليّ الرماح . ثم قال بعضهم : « دعوه حتى يجيء آمغار يأخذ غزوة (يعنون بذلك شيخهم) . وكان يجيء على أثرهم ، وأنا محبوس بأيديهم ، واقف ، أحاسب نفسى على هــذا اللفظ الذى نسبوه إلىّ ، ومن أين جاء . ثم تنبهت ، وقلت : « ألم أفرق نظري ورجّحت العمران على الفقر ؟ من هنـا دخل الشرك عليّ » . ثم استغفرت الله تعالى . فلما وصل شيخهم ، وأنا محبوس ، قالوا له : « المشرك والمشرك ! » . (قال :) [١٩٥ ظ] فجـاء وقبّل بين عينىّ فقال لهم : « لا ، والله ، إلاّ المؤمن والمؤمن » . (قال :) فجعلوا ينتفون شعر المسح الذى كان عليّ ، على وجه البركة .

قال مؤلفه : من راعى الأوقات فى طـاعة إلاهـه ، روعي فى مثل هذا وأشباهـــه .

١٠٥

ومن كراماته تأديبه بالمرض فى عكّة
حين اعتراه الشك فى الأمر(١) الذى قبل لم يشكه

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت دخلت عكة لأزور بها مسجد شعيب — عليه السلام — ، (قال :) فلما ركعت فيه قلت : « ما دعانى لدخول هذا الموضع ؟ أرأيت إن مرضت هنا من يمرّضنى ؟ » (قال :) فما أتممت كلامى ، حتى شكوت المرض ، ولم أقدر على الخروج من الموضع . ولا كان لى إلى أين أخرج . فبينا أنا هناك ، إذ مر على المسجد نصرانيّ طبيب . فأدخل رأسه ، ورآنى ، فدعانى للباب ، فإن الروم يحترمون ذلك الموضع ويكسونه بالحصور ، ويوقدون فيه القناديل ، ولا يمتهنونه بالدخول إليه والخروج . (قال :) فانجررت للباب ، فجس نبضي ، ثم أتانى بفيّاشة من شراب ورد[يّ] ، فقال لى : « خذ من هذا » . قلت له : « أنا لا يحل لى فى دينى » ، (وأنا أتوهم أنه لا شراب إلا الخمر ، لكونى نشأت فى البادية وخرجت منها صغيراً) . فلما أخبرنى أنه عسل شربت منه . ثم أتانى بصبى وصبية كانا عنده أسيرين أخوين ، من ميورقة . فقال لى : « هذا الصبى يذبح لك الفراريج ، وهذه الصبية تخدمك » . فلما استرحت قال لى : « قد استرحت ، فاذهب حيث شئت » . فقلت : «ما أنصرف حتى تسرح لى هذين اللذين خدمانى » . فسرحهما وخرجا لبلاد المسلمين .

قال مؤلفه : فانظر رفق الله بعبده ، وتأديبه لئلا يستند لما ليس من عنده ، وليذيقه طعم ثمرة الوفاء بعهده .

---

(١) غير واضحة فى الأصل ، ولعل ما أثبتناه يستقيم به المعنى .

١٠٦

ومن كراماته عقاب مسيء الأدب معه
ومجازاته بما من القول القبيح أسمعه

حدثنى — رحمه الله — قال : قصدت قرطبة وقت حصارها برسم الرباط بها ، فلم يمكن لى ذلك من شدة الحصر . فدخلت إشبيلية ، فسألت بها عمّن يشار إليه من أهل الدين والفضل . فذكر لى فتى يعرف بابن منظور كان [١٩٦ و] كمشاً(١) على صون طهارة واجتهاد ولم يربّه شيخ ، وخرق الله له من العوائد ما لم يسع فى عقله ، بل كان عليه وبالا ، إذ لم يلق للذى أحلّ(٢) عليه المفسدة بالاً . فوقع عنده أنّه هو صاحب الوقت ، وطمع فيما استوجب به عاجل العقوبة والمقت . فلما دخلت وسلّمت عليه ، كلّمته بعد ما جلست إليه . فقال : « أنت يعرفك أهل بلاد الأندلس ، وأنا رأيت أن صلاح هذه الأمة إنما يكون على يدي . فبايعنى يبايعك أهل الأندلس نائباً عنى فى ذلك » . (قال :) وقلت : « وفي كريم علمك أن هذا المذكور إنما يكون من بنى هاشم وبيت الشرف ؟ » . فقال لى : « رأت امرأة من أهل الشرف أنّى شريف » . (قال :) فلما رأيت منه ما رأيت ، قلت له هازئاً به : « امدد يمينك ! » . فمد يمينه ، فجعلت فيه قبطالى وهو مجمع المرفق مع الذراع ، وذلك مما تتشاءم به اليهود . (قال :) فقال لطلبته : « خذو[ا] هذا الفاعل الصانع ! » . وكان على يمينه واحد منهم ، كأنه وزيره . فهمّ الشباب الذين كانوا معه بأخذى فمررت فيهم ، فلم يقم منهم أحد . فلما خرجت للمحجة أخرج رأسه وسبّنى ، وقال : « والله إذا تمّم الله هذا الأمر

---

(١) فى الأصل : كشا ، ولعلها ما أثبتناه فى المتن .

(٢) هاتان الكلمتان رسمها فى الأصل : للدواحل .

لا بدأت بشيء قبل ضرب عنقك » . (قال :) فانفصلت من إشبيلية . فلما حصلت بالجزيرة الخضراء وجدت خاطرى فى سبتة فجزت إليها فى زورق . فلما وصلت وجدت الناس فى صلاة العصر وخاطرى يحملنى لجامع الربض . فمشيت فصليت به العصر ، ووجدت أخى زكرياء قد وصل فى ذلك اليوم من الحج ونزل فى ذلك الجامع . فسلمت عليه وسافرنا ليحانس .

قال مؤلفه : فسبحان الذى صقل خواطرهم حتى شاهدوا فى أوائلهم أواخرهم وخلد فى الكتب مآثرهم الحميدة ومفاخرهم . قال الشيخ — رحمه الله — : وفى سبتة كنت حتى بلغ خبر قتل ابن منظور وصلبه على باب المؤذن فى السور كما جرى عليه المقدور .

١٠٧

ومن كراماته صدق فراسته واطـلاعه
ودليل عـلو مكانه عند الله وارتفاعه

حدثنى — رحمه الله — قال : كنت ساكناً بسبتة بالعيال إذ وصل إلىّ إخوتى ، هم وزوجاتهم ، عند ضيق أحوالهم ، وسلب الروم لمواشيهم وأموالهم . [١٩٦ ظ] وكانوا تسعة أنفس كما وصلوا من الأندلس ، وسبتة لا تحتمل الزحام ، ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام .

فصدر منه ذات يوم خلق غير محمود ، وطبع النفس لا بد أن يكون فى بعض الأحاين موجود . فقال لهم : « متى تموتون واحداً بعد واحد ، فأستريح منكم بالجوى[١] لو غرقتم فى البحر فبلغنى الخبر[٢] عنكم » . فكانت كلمة صادفت مقدوراً وتمنّياً أبرز من الغيب أموراً . فوقع عزمهم على الحج ، وركبوا فى لجاجهم غير الطريق النهج . فزودهم وأكرى لهم ، وبلغهم فى ذلك قصدهم وآمالهم . فلما صاروا على ظهر البحر وأقلعوا ، فى الحين أصاب الشيخ — رحمه الله ورحم جميع المسلمين — ، بكاء عليهم وشوق إليهم وحنين . فقالت له أم أولاده : « ما لهذه الدموع تسكب ؟ » . فأعلمها بما فى خاطره من غرق المركب . وبعد ثلاثة أيام بلغ الخبر بصحة ما لباطنه من ذلك خطر ، وبقى فى قلبه منها حسرة ، ردّد ذكرها المرّة بعد المرة .

---

(١) فى الأصل : بالجوا .
(٢) فى الأصل : الخبرا .

١٠٨

ومن كراماتـه تصريفه فى الوجود بكل ما يهوى
وتمنّيه الإقامة فى جوف الجمّيزة ففتح له فيه مأوى

حدثنى — رحمه الله — قال : مررت على النيل ، نيل مصر ، فرأيت جرم ثمرة من الجميز على النيل . فوجدت فى خاطرى أن أقعد فى وسط جرمها لو اتفق . (قال :) ففتح الله لى فى جانبهـا باباً بمـا يلى النيل ، وصارت الجمـيزة كالبيت . فقعدت فيه أربعين يوماً . (قال :) وصادف يوم دخولى فيها أن نزل حرّاث فى فدان بإزاء الجميزة ، يزرع ببقره خياراً . فلما جاءنى لرأس أربعين يوماً بأربع من الخيار فى يده ، دفعها إلىّ ، وقال لى : « لم أرك خرجت من هذا الموضع منذ نزلت أنا هنا » . (قال :) فأكلت الخيار ، وسافرت عنه .

قال مؤلفه : فتأمّل همم الرجال الكبار ، وما رزقهم الله على بطونهم من الاصطبار ، وخروجهم عن موضع ألفوه بحكم الاختيار ، هروباً من ركون النفس لمجاورة الجبار .

١٠٩

ومنها مكاشفته فى علته التى توفى فيها برؤيا رأى الصحابة زائرين له وأمره له بأن يكون يخفيها

وذلك أن عبد الله بن خليفة القصريّ الأصم المحدّث كان ربما يعترض عليه ، وينافره فى باطنه . فلما كان الشيخ فى مرضه الذى [١٩٧ و] توفى فيه ، قبل موته بثلاثة أيام ، دخل عليه الشيخ زائراً له ، ولم تكن عادته . فعند دخوله عليه ، أشار إليه الشيخ بالكتم ، ووضع أصبعه على فمه ، فقعد معه يسيراً . ثم أمر الشيخ من يدفع له عشرين درهماً ، وقال له : « افد بها طاشورك » .

(قال ابن خليفة : « وكان طاشورى مرهوناً عند بعض الناس فى عشرين درهماً منذ مدة ، ولم يعلم بذلك أحد ») . فلما خرج وفدى طاشوره وتوفى الشيخ — رحمه الله — ، سأل بعض أصحابنا لابن خليفة عن الشىء الذى استكتمه الشيخ إياه . فقال : « كنت نائماً ، فرأيت فى النوم أبا بكر وعمر وجماعة من الصحابة — رضى الله عنهم — ، فكنت أقول : « من أين يجيئون أو إلى أين يمشون ؟ » . فيقال لى : « لزيارة عبد الملك البحانسيّ » . فكنت أقول : « ويسوى هذا القدر ؟ » . فيقال لى : « نعم » . فجئت إليه لأخبره ، وكان معه بعض ناس . فأشار لى بالكتم ، وقال لى : « الحق ستار » ، وأمرنى بلا أمر » . فسبحان من اختصهم بالعلى والجاه فى مآلهم شهرهم بصالح أعمالهم ، وهم يطلبون مع ذلك التستر بأحوالهم .

١١٠

ومن كراماته — رحمه الله — ، توريته بالمزاح كعادته عن إظهار الحق الصراح

وذلك أنى كنت معه — رحمه الله — ذات يوم بزقاق ابن نارون ، بباب داره بسبتة ، إذ جاءه محمد بن العدبّس الحرّار ، فقال له : « مات البارحة صهرى صالح ، رحمه الله » . فترحم الشيخ عليه ، ثم قال : « قليل العقل هو عندى من يموت فى أيام العصير . والله ، ما أموت أنا فى أيام العصير » . فحملت ذلك على عادته من المزاح ، وإذا هو قد تمت أيام العصير ومات — رحمه الله — . فسبحان من أنطقهم بالحق الذى عاشوا عليه ، وحملهم على الطريق السنىّ الذى قربهم إليه .

١١١

ومن كراماته — رحمه الله — أن جعل له زوجة صالحة لم تخنه قط ولا عدت فى خدمته مصالحه

وذلك أن زوجته ، بنت عمه ، كانت إذا ورد عليه الفقراء وغيرهم يذبح لهم أو يشترى من السوق اللحم ، فيساق إلى زوجته ، فتتناول طبخه وعمله ، وتقدّم كما هو للواردين ، ولا تتمسك هى منه بشىء ، والشيخ لا يدرى[1] ، بل يعتقد أنهـا تأكل حظها منه ، إلى أن رأى فى النوم أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — ، يقول له : « أخرج حظ زوجتك من الطعام أو الإدام ، فإنها لا تتناول منه شيئاً ، وإنما هى من الجملة ، الواردين والفقراء ؛ فاعمل حسابها فيما تحاوله » .

[١٩٨ و] فسألها عن ذلك ، فأخبرته بكف يدها عما تخدم فيه الواردين ، إلا ما كان من لعق أصابع ، أو مص عظم ، أو شبه ذلك . فأمرها من ذلك العهد أن تخرج حظها مما تطبخه . وذلك من نعم الله عليه وحظوته لديه ، نفع الله بذكرهم الجميل ، وبلغ من جوارهم فى دار النعم غاية التأميل .

---

(١) فى الأصل : يدى .

[خاتمة الكتاب]

قال مؤلفه : هذا ما حضرني من كرامات الشيخ أبي مروان — نفع الله به وبأمثاله وتداركنا بالوقوف عند أمره والتوفيق لامتثاله — ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم وآله . ولو استقصيت الأخبار من أصحابه وتبعتها ، وبالغت فى طلب الروايات وأشبعتها ، لما حصرتها فى ديوان ولا أوسعتها ، لكن لم أقصد إلا إلى الاختصار ، ولذلك كان منى على ما فى حفظي اكتفاء واقتصار . ولو ذكرت ما له من الأخلاق الرضيّة ، والأفعال السنية ، وكثرة الملاطفة والإيثار ، والأخذ فى ذلك بصحيح الآثار ، وملازمة الاحتمال عن السفهاء والجهال والتواضع للفقراء ، والزهد فيما فى أيدى الأمراء ، وعذوبة لفظه وجميل بسطه ، وإعطائه لكل إنسان من ذلك بميزانه وقسطه ، وبذله لجاهه عند الحكام ، وإدخاله المسرة على جميع الأنام ، لأفنيت فى ذلك الأمدّة والأقلام ، وقطعت فى جمعه الليالى والأيام ، لكن المسك النثير ، إنما يقصد به الرائحة لا التكثير ، وأنا أبرأ إلى الله فى ذلك من غلط يوجبه سوء الحفظ ، ومن سوق حكاية على المعنى لا على اللفظ ، وأسأله تعالى ذا القدرة والامتنان ، والعظمة والسلطان ، أن يجمعنا وإياه فى جنة الرضوان ، وألا يحجبنا عنه غداً بما أسلفناه من العدوان ، وأن يقينا من اللهب والنيران ، وأن ينفعنا بالإسلام والإيمان ، وصلى الله على محمد نبيه بالفضل والإحسان ، الآتى بالهداية والبيان ، وعلى آله وصحبه الجلّة الأعيان ، صلاة متّصلة الدهور والأزمان ، وسلم تسليماً .

كمل كتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب

على هامش ديوان ابن قزمان

– ١ –

تحية تقدير وإكبار أهديها خالصة إلى الأستاذ
الجليل والصديق العزيز إميليو جارثيا جومث
لما بذله من جهد رائع فى عمله الكبير الجامع
حول ابن قزمان ؟

عبد العزيز الأهوانى

سأقتصر فى هذه المقالة الأولى على ما جاء فى ديوان ابن قزمان من ألفاظ وجمل أعجمية — وأبدأ بما أعتقد أننى اكتشفته منها ، مما لم يشر إليه من سبقوا إلى دراسة هذا الموضوع — ثم أناقش بعض ما اكتشف منها من قبل ، وخاصة ما انفرد به الأستاذ إميليو جارثيا جومث فى كتابه الأخير[1] .
Emilio García Gómez, Todo Ben Quzmān - Editorial Gredos
Madrid 1972.

---

(١) يقع الكتاب في ثلاث مجلدات ضخمة — ١٥٠١ صفحة — تشتمل على نص الأزجال كلها ، ما وجد فى الديوان وفى غيره ، مكتوبة بحروف لاتينية ، وترجمة اسبانية منظومة ، وتعليقات كثيرة . كما ألحقت به دراسة مستفيضة عن قضية الأوزان والألفاظ الأعجمية .

١
فى مقدمة الديوان

جاء فى مقدمة الديوان أثناء حديث ابن قزمان عن الزجال السابق له زمناً أخطل بن نماره ، أن أورد له هذه المقطوعة ، مظهراً إعجابه بها :

قَــدَّرَ الله وســاقُ الوسواس
(أمُــكرَّت) على عيون الناس
ولعبنــا طول النهار بالكاس

وجا الليل وامتد مثل القتيــل

وكان لفظ (أمكرت) فى أول الفقرة الثانية غامض المعنى عندى ، وقدرت من قبل أن يكون اللفظ مشتقاً من المادة العربية (بكرّ تبكيراً)[1] .

وكان ابن سعيد قد أورد هذه المقطوعة فى المغرب نقلا عن خطبة ديوان ابن قزمان — كما صرح بذلك — وأثبتها هكذا :

إلى دارى على عيون النـاس[2]

وواضح أن بين اللفظين — إلى دارى وأمكرت — من البعد رسما ما يمنع أن يكون أحدهما تصحيفاً للآخر[3] .

---

(١) الزجل فى الأندلس ص ٦٣ هامش ٤

(٢) وردت الكلمة فى المغرب المطبوع ج ١ ص ١٦٨ (الطبعة الأولى) : إلى وادى — وهى تصحيف من المحقق .

(٣) رسم الأستاذ جارثيا جومث (ص ٨٨٠) هذه الفقرة على هذا الوجه : أن نكون [بعيد] عن عيون الناس . ومجاهرة الشاعر بأن زاره حبيبه علانية (على عيون الناس) لها نظائر فى الشعر العربى ، وإن كثر عكس ذلك .

وهنا افترضت أن يكون لفظ ابن سعيد ترجمة للفظ أعجمى هو الذى ورد فى الديوان . واعتقد أن هذا الفرض صحيح ، وأنه يستقيم لفظاً ومعنى . وان ابن نماره قد استخدم اللفظ الأعجمى ، الذى هو Cuarto فى الاسبانية الحديثة وأضاف إليه الضمير mi وجعل أمامه - a - التى بمعنى إلى . فإذا رسم هذا فى الشكل الاسبانى الحالى كان A mi cuarto (أَمِكُوَرْتُ) أى (إلى غرفتى) أو بيتى أو دارى كما وردت .

ولما كانت mi هذه تنطق وترسم فى العربية — كما ترد فى الخرجات الأعجمية للموشحات — ميا مضمومة (مو — meu) . كانت ضمة الميم الموجودة فعلا فى نسخة الديوان مستقيمة مع هذا النطق . ولما كان النطق الأندلسى أيضاً يحدث نوعاً من الادماج في نطق مثل هذه الكلمات . كان الرسم فى المخطوط بحروفه وضبطه وافياً (أَمُكَرَّت) . والكلمة تتألف وزناً من أربعة مقاطع ، فإذا شدّدت الراء كما رسمت فى الديوان سكنت التاء ، وإذا سكنت الراء ضمت التاء .

وهذا اللفظ الاسبانى من اللاتينى Quartus . ولا يزال اللفظ موجوداً فى أكثر من لغة من اللغات الرومانسية[١] .

ولنا أن نتساءل هل قام ابن سعيد بترجمة اللفظ ليكون مفهوماً من المشارقة الذين أخرج لهم المغرب فى صورته الأخيرة ، أم أنه نقل ما رآه فى نسخة من ديوان ابن قزمان لم تصل إلينا ؟ أرجح أن يكون هو الذى قام بهذا التغيير المقصود . على أن خلافاً آخر بين نصه المنقول وبين النص فى الديوان ، هو أنه استخدم لفظ (الخناس) حيث ورد فى الديوان لفظ (الوسواس) فى الفقرة الأولى . وكلاهما بمعنى الشيطان ، وهو الذى ساق المحبوب إلى الشاعر .

---

(١) انظر معجم *Meyer - Lübke* رقم ٦٩٣٦

٢ و ٣ و ٤
فى الزجل رقم ٢١

[فى الحديث عن هذا الزجل لم يتح لى أن أطلع عليه فى كتاب الأستاذ جارثيا جومث لظرف خارج عن إرادتى ، وهو أن الملزمة رقم ٩ سقطت خطأ فى تجليد الكتاب الذى تفضل فأهداه إلىّ المؤلف وكررت بدلا منها الملزمة رقم ٨ . وبذلك لم أطلع على ما اشتملت عليه وهو القسم الأخير من زجل ٢٠ والأول من زجل ٢٢ فضلا عن الزجل ٢١ كاملا . ولكن بمراجعة آخر الجزء الثالث فى الرومانسيات يثبت أن المؤلف لم يستخرج أعجميات من هذا الزجل ٢١ إلاّ لفظ (يا) فى موضعين . ولفظ (برشا) فى المقطوعة السابعة] .

أولا : يتحدث ابن قزمان فى هذا الزجل عن تجربة فاشلة له فى الزواج ، انتهت بالطلاق ، ويصف ما لقيه فى الزواج من عذاب وضيق فيقول (المقطوعة الرابعة) .

دَعْن يا خي أناهُ صَدرَ الهُموم
إنّ (شاشْتُه) عَرَض عليَّ النُّجوم
وليالى جَرعتُ فيها السُّموم
حتّى لسْ كان نَجدْ فى فمّى لُعابْ

ونقف عند كلمة (شاشته) فى الفقرة الثانية لنسأل عن معناها . ولا نجد فى المعجم العربى ولا فيما بين أيدينا من العامية الأندلسية ما يجعلها تتفق والسياق . والسياق كما قلنا تعبير عن العذاب الذى لقيه الزجال من الزواج . وعبارة (عرض عليّ النجوم) معروفة الدلالة . وقد استخدمها الزجال فى الزجل ٣٨ (المقطوعة ٨) فى الحديث عما لقيه المسيحيون من هزيمة على يدى يوسف ابن تاشفين فى معركة الزلاقة حيث يقول :

رَجَعَ الله مَنْ جاهَدَ الكفّار
والكواكب عَرَض لهم بالنهار

والجملة فى صيغ مختلفة لا تزال تسمع فى العاميات العربية . وكلها تقريباً تربط بين رؤيـة النجوم وبين النهار ، كما هى هنـا . أو على التخصيص بين النجوم وبين الظهر ، أى وقت الظهيرة ، حيث الشمس أسطع ما تكون . وذلك كله للتعبير عن المستحيـل دلالة على شدة النكاية ، وقد نبه الأستـاذ جارثيا جومث فى تعليقه على هذا الموضع من الزجل ٣٨ إلى أن هذه العبارة مثل عربى . ورجح أن يكون أصلا للعبارة الإسبانية Hacerle ver a uno las estrellas وهى تحمل نفس المعنى العربى ، إلا أنها تخلو من الاشتمال على كلمة (النهار) أو ما فى معناها (١) .

ومن هنا نفترض أن كلمة (شاشته) فى نص الزجل ٢١ هى كلمة أعجمية تساوى النهار أو الظهر . فإذا اتجهنـا هذا الاتجاه وجدنا الكلمة الاسبانية (Siesta) تؤدى الغرض لفظاً ومعنى . وهى هنـا مضافة إلى ضمير الغائب الذى يعود على (الزواج) ولهذا ضمت التاء التى أصلها الفتح فى اللفظ الأعجمى ، والهاء ساكنة بغير شك . ولئن كانت الضمة فى مخطوط الديوان جاءت فوق الهاء فصوابها أن تزحزح إلى التـاء ، وكذلك يجب تسكين الشين الثانية (شَاشْتُـهْ) .

ويذكر معجم الأكاديمة الاسبانية أن لفظ Siesta مأخوذ من اللاتينية Sexta hora وهى ساعة الظهيرة ، ويذكر أن الكلمـة فى الاسبانية معنـاها « وقت ما بعد منتصف النهار حيث يشتد الحر » ونجد اللفظ فى معجم Alcala

---

(١) فسر معجم الأكاديمية العبارة الاسبانية بأنها إشارة إلى البريق أو (التجيهات) التى يراها الانسان حين يتلقى ضربة قوية . أما المثل العربى فهو كما قلنا دلالة على المستحيل ، وكأن لفظ (النجوم) فيها تحمل المعنى الحقيقى لا المجازى وإن كانت الجملة كلها كناية عن العذاب والألم .

ص ٣٩٧ حيث يترجمه بالكلمة العربية (قائلة) مع توضيح اللفظ الاسبانى بأنه تعبير عن منتصف النهار Siesta en el medio dia .

ومن الاتفاق أن لفظ (قائلة) فى العربية هو الظهيرة وهو النوم فى الظهيرة أيضاً وكذلك مقابله فى الإسبانية له نفس المعنيين كذلك .

ولا يخفى أن ورود كلمة شاشته فى المقطوعة يقيم التوازن بين الفقرتين الثانية والثالثة لورود كلمة (ليالى) فى الأخيرة . وكأن الزجال يقول « إن الزواج أرانى النجوم ظهراً أو نهاراً وجرعنى السموم ليلا » .

أما (أناهُ صدر الهموم) فنحن نقبلها كما هى مقدرين أن معناها أننى (احتضن أو احتضنت) الهموم فأوت إلى صدري . وإن يكن فى النفس شيء من هذه الفقرة كلها . ولكننا فى صدد الكلمات الأعجمية وحدها .

ثانياً : ونمضى مع ابن قزمان فى هذا الزجل نفسه (٢١) فنجده فى المقطوعة التالية مباشرة لهذه التى تحدثنا عنها يقول ماضياً فى الحديث عن مساوىء الزواج والزوجة .

ثمّ نُشْتَم (للمفه) اذْ نَلتهم
ما كفى الغَيْرَ إلاّ عاد الشَّتَم
وانا لسْ نخلّى هذا الأسَم
إلى يوماً يُلقى عليّ الترابْ

والكلمة الثالثة فى هذه الفقرة الأولى لم ينقط منها غير الفاء ، ووضعت فوق الفاء فتحة طويلة . ونعتقد أن الفقرة كلها تتحدث عن النبيذ ، وأن ابن قزمان يُشتم من الزوجة لعكوفه على الخمر ، وأنه لا يمكن أن يتخلى عن هذه الرذيلة — مقدرين أن (الأسم) هو (الإثم) — إلا وقت أن يدفن فى قبره . فإذا صح هذا السياق كانت الكلمة المشكوك فى أمرها إحدى كلمات الخمر باللغة

العربية أو الإسبانية . ونرجح أنها كلمة (Vino) الاسبانية معرّفة بأل العربيـة مجروره باللام التى تعود على الفعل التـالى لها ، وهو نلتّهم بمعنى نشرب أو نبتلع . وبناء على ذلك نضبط الكلمة ونرسمها هكذا (لِلْبِينُه) ولا نحسب أن هذا الرسم يبعد كثيراً عن الرسم فى المخطوط ، وأن نقطة البـاء التبست على الناسخ فحسبها (فاء) وكلاهما فى الخط المغربى بنقطة من أسفل الحرف ، ونقطة ما قبلهـا على الوضع الذى ذكرناه ، وهو ما لم ينقطه الناسخ ، مع زيادة سنة لحرف آخر . ويكون المعنى (ثم نُشتّم [من الزوجة] إذ نلتّهم للبينه) .

حقـاً إن لفظ Vino ورد فى الديوان فى الزجل ٩٠ والزجـل ١٤٨ وأنه رسم هنالك (بينُ) بما يجعل رسمه هنا باضافة الهاء مخالفـاً . ولكنه فيما نرى خلاف لا ينفى الافتراض . ولهذا نظائر فى رسم مثل هذه الكلمات الأعجمية التى تنتهى بهذه ال (ه) .

ومسألة أخرى هى أن فعل (يلتّهم) فى اللهجة الأندلسية تجيء بمعنى (يتذكر) هكذا أوردت فى معجم القالا وفى Vocabulista . وخاصة إذا تعدى فعلها باللام[١] . ولكن لفظ يلتّهم فى العربيـة يؤدى معنى (يبتلع) . ومع ذلك فنحن لا نجد أن مجيئها حتى بهذا المعنى الأندلسى يفسد الافتراض . فالشاعر يُشتّم حين يذكر أو يتذكـر النبيذ ، وهذا أبلغ فى الدلالة عنده على العدوان .

وقد رجحنا أن تكون (الأسم) هنا هى رسم (الأثم) لما ذكر فى الديوان من قبل زجل ١٦ المقطوعة الأولى (شرب الأَثَم) وإن كنا لا نمانع فى أن تحتفظ كلـة (الأسم) بمعنـاها الذى تحمله حين ترسم بالسين . يريد اسم الخمر وهو هنا (البينه) .

---

(١) انظر معجم دوزى مادة (لهم) ج ٢ ص ٥٥٣

وقد خطر بالبال أن تكون الكلمة موضع الشك اسم عَلَم لعشيقة ، وهنا يتحتم أن يكون لفظ (يلتهم) بمعنى يذكر . ولقد وجدنا ابن قزمان يذكر فعلا فى زجله (١٤٤ المقطوعة الثانية) اسم (ليفه) فى قوله :

يَرَوا قُطوع قلبى مريم وليفه[١]

ولكن هذه العشيقة كانت بعيدة فى غرناطة !

وكذلك خطر بالبال أن تكون الكلمة هى (الأليفة) العربية ، ولكن الرسم لا يشجع عليه . ومع ذلك فلا نزال نرجح أنها ما ذكرناه .

ثالثاً : ونمضى مع ابن قزمان فى نفس الزجل (٢١) فنجد المقطوعة التالية لهذه التى تحدثنا عنها قد رسمت هكذا :

(فاح وطمدُو) نَموت وَرَاه بالصيَاح
وحَــلاوه تَطيب عَلَيــهِ الرمَاح
وتجِى بالِخضاب اديْـه المِــلاح
ومِلاح يَذّ إذ يَزول الِخضابْ

وعندنا أن أول الفقرة الأولى ينبغى أن يكتب (فَاجْ رُطُنْدو) وأنهما الكلمتان الأعجميتان Faz أى وجه ثم Rotondo أى (مُدوّر) .

أما اللفظ الثــانى منهما فقد ورد فى موضع آخر هو — الزجل ١٩ — المقطوعة ١٠ — حيث رسم هنالك (رطنط) ، ووُصف به المثقال :

ولا مِثْقال رُطنط ما نُرسِل[٢]

---

(١) اعلن الأستاذ جارثيا جومث شكه فى تعليقه (رقم ٤ ص ٧١٥) فى هذا العلم .
(٢) نبه إلى أعجمية اللفظ سيمونيت ص ٤٨٦ من معجمه — ونيكل فى نشرته لديوان ابن قزمان . وناقش جارثيا جومث المسألة فى الرومانسيات — الباب الرابع الفصل ١١

وكونه رسم فى هذا الموضع بالدال فى آخره بدلا من الطاء لا يغير شيئاً . وإنما خفي اللفظ فى هذا المكان من الزجل (٢١) لأن الراء فى أوله رسمت واوا فتحولت الأفكار عند القراءة إلى تخريجات جعلت اللفظ عربياً ، زيادة على أن اللفظ فى رسمه بالمخطوط غير منقوط .

وأما اللفظ الأول (فاج) فهو أيضاً غير منقوط بالأصل . ولم يظهر فى موضع آخر من الديوان — إلى الآن على الأقل — وإنما جاء لفظ (فجيره) وهو أيضاً أعجمى Facera من نفس الأصل اللاتينى Facies غالباً ، وقد نبه إليه من درسوا الديوان [١] .

وكون ابن قزمان يستخدم اللفظين (فجيرة) و (فاج) وهما من أصل واحد ولمعنى يثير مشكلة وتساؤلا حول وجود اللفظين معاً فى اللهجة الأعجمية ، وهل يختص أحدهما بما لا يختص به الآخر ؟ أن لفظ (فجيرة) اختص بالوجه الإنسانى عند ابن قزمان ، وذلك فى قوله — الزجل ١٤٠ مقطوعة ١

وَفَجِـيرَه مثـلَ الهلال [٢]

أما (فاج) فى استعمال ابن قزمان فالمراد به هنا هو وصف الدينار كما سنرى [٣] .

ومهما يكن من شىء ، فإن رسم الكلمتين فى المخطوط لا يجعل فى هذا التخريج تعسفاً من ناحية الشكل . وبقى أن نراه من ناحية المعنى . إن نزوع ابن قزمان — كسائر الشعراء — إلى تشخيص ما هو جماد شائع لا يحتاج إلى دليل . فكونه يتصور الدينار ويخاطبه ويصفه كأنه وجه مستدير لمحبوب يسعى

---

(١) انظر قسم الرومانسيات — الباب ٤ — فصل ٢

(٢) يرى جارثيا جومث أن ضم الفاء (وهى غير مشكولة فى الأصل) بإرادة التصغير خطأ لغوى .

(٣) ورد لفظ Figura فى معجم القالا ص ٢٥٢ بمعنى الصورة والشكل . ولم أعثر فيه على لفظ (Facera) أو (Faz) ولكن هذا اللفظ الأخير موجود فى معجم الأكاديمية ومنصوص على أنه من اللاتينى Facies والكلمة الشائعة فى الإسبانية حالياً هى Cara للدلالة على الوجه .

إليه ويموت فى حبه ليس بمستنكر . وإنما الشك يجىء حين ننظر إلى الفقرات التى اشتملت عليهـا المقطوعة ، وهل هى حديث عن الدينار أو حديث عن إنسان معشوق ؟ إن الفقرة الثانيـة :

وحَـلاوَه تَطيب عَلَيـهَ الرماح

تحتمـل الأمرين . وكلمة (الرماح) هنا تبدو قلقلة ، ويبدو أقرب منها للمعنى كلمة (الرياح)[١] لشيوع استعمال (طابت الريح) بمعنى حسنت الأمور . اللهم إلا أن يريد (يستعذب فى سبيل هذه الحلاوة الطعن بالرماح) أما الفقرتان الثالثة والرابعة . والحديث فيهما عن الخضاب ، فيبدو أنه يرجح أن المراد الشخص المعشوق ، ولكننى مع ذلك أرى أن الخضاب ، وهو أحمر ، يراد به العملة الذهبيه ، وأن زوال الخضاب حيث اللون الأبيض يراد به العملة الفضية . وإنما جعلنى أتجه هذا الاتجاه هو أن المقطوعة التالية ترجح الرجحان كله أن يكون الحديث عن الدينار لقوله :

بشعـاعُ يُهيّـا كلّ شغَـل

ومهما يكن من أمر المتحدث عنه : الدينار أو المعشوق الآدمى ، أو حتى كأس الخمر ، وهى كل الاحتمالات فان الوصف بوجه مُدوّر يصلح لها جميعاً .

(١) شك الأستاذ نيكل فى الرماح وتساءل هل هى الرياح : انظر تعليقاته فى آخر الديوان .

٥ و ٦ و ٧

فى الزجل ٦٧

جاءت المقطوعة الثانية من الزجل ٦٧ على هذه الصورة :

الذى نموت فى شَانُ ، كلّ يَوم وكلّ لَيْلَه
(يذقل) ذا الغَزاله ، (ابك الّى) ذا الُحجيله
يا عَلَى تَعنيقَه فى العام ، يا عَلَى فالعـام قُبيله
أى عُنَيق لُ لتعنيق ، فُمَيَم هو للَمص

أما موضوع المقطوعة فواضح ، وهو الحديث عن العنـاق والتقبيل ، من معشوق وصفه بالغزالة والحجيلة . والإشكال بالرغم من استعصائه طويـلا مع سهولته ، يقع فى رسم وضبط الكلمات التى جاءت فى الفقرة الثانية (يذقل) ثم (ابك الّى) .

وحل الإشكال هو أن الكلمة الأولى هى الكلمة الأعجمية التى ترسم فى الإسبانية حالياً Cuello ومعناه العُنُق . والثـانية هى التى ترسم Boquella ومعناها فُميمة أى الفم boca مصغراً . يضاف إلى ذلك كلمة أعجمية ثالثة هى y التى بمعنى (و) حرف العطف فى العربية رسمت ألفـا (إ) وتقدمت كلمة (بُكَ الَّى) التى ألفنا رسمها فى الخرجات الأعجمية للموشحات على هذه الصورة (بُكالّه)[١] — أما الأولى فهى (قُلُّ) ضبطاً . وما قبلها (يَذّ) فهى الكلمة التى ترد كثيراً فى أزجال ابن قزمان ، والتى لا أعرف على وجه الدقة أصلها — ولعلها (يا) متصلة بـ (ذا) — والتى يبدو فى مواضع عديدة أنها ليست

(١) انظر : E. García Gómez, Las Jarchas Romances · Madrid 1965 فى ص ٤١٣ حيث يذكر أن اللفظ هو bucca مضاف إ' علامة التصغير ella .
وانظر نفس الموضع عن حرف العطف E ثم y وأصله اللاتينى Et . وانظر فى ص ٤١٩ لفظ Cuello وأصلها اللاتينى Collum .

أكثر من أداة للتنبيه لا تختل الجملة معنى باسقاطها . واستبعد أن يكون (يذ) فى هذا الموضع من فعل الكينونة ser ، كما استبعد أن تكون مصحفة عن (هو) . وهكذا ترسم الفقرة : يَذّ قُلُّ ذَ الغَزَاله ، إِبُكَ الّى ذَ الُحَجَيْلَه — والفقرة كلها خبر للمبتدأ وهو (الذى) فى أول الفقرة الأولى .

وتشبيه عنق الحبيبة بعنق الغزال شائعة فى الشعر العربى ، ولكن إضافة الفم إلى الطائر الحجله لم أجده فى الشعر العربى ولكنه موجود عند زجال أندلسى آخر . فقد أورد ابن سعيد فى المقتطف[1] ما نسبه إلى اليعيع تلميذ ابن جحدر قوله :

بالنبي انْ ريت حبيبى
افتل اذْنُ بالرُّسَيلا
لانّ اخذ عنق الغزّيل
وسرق فمّ الُحجَيلا

يبدو أن الكلمتين الأعجميتين لا يوجدان فى ديوان ابن قزمان فى غير هذا الموضع .

---

(١) نشرت النص فى كتاب (أعمال مهرجان ابن خلدون) طبع القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٨٦ — ونقل ابن خلدون النص فى مقدمته .

الزجل ٧٥

ختم ابن قزمان الزجل ٧٥ بهذه المقطوعة :

اعْمَل اَشْ ما يَطيبْ لكَ ان تَعمل
عَبْـدَ انا بينْ يَديـك
لَسْ نَرى فى البَشَرْ لمن نَرفـع
عَـينى إلاّ إليـــك
الذى هُ تَـدْرِنِ اَشْ نَـطـلبْ
لَسْ نبيّن عليـــك
كلّ خـيراً تُرِدْ لى قـط زُرْنى
(كنت طـلى دهيب)

ونقف عند هذا الجزء الأخير من هذا القفل ، أو من هذه الخرجة بعبارة أخرى ، فنجده بالرغم من وضوح رسم الكلمات ، غير واضح المعنى . ذلك أننا نقرؤه على افتراض أنه ألفاظ عربية لها دلالات معروفة . ويزول كل نوع من الغموض دون أن نبعد عن حدود الرسم الموجود ، فتصبح الجملة بالكلمات الأعجميـة : Que no te tuelle de mib ومعنى هذه الجمـلة (لا تبتعد عنى) وبذلك يستقيم النص معنى ولفظا ووزنا أيضاً فيضبط هكذا : كِنُتِ طُلّي دِ مِيبْ .

ولن نجد عنـاء فى تفسير الكلمات أو فى شرح صيغها ، فقد جاءت من قبل هذه الكلمات فى خرجات أعجمية كانت موضع دراسات سابقة .

وأول ما أعرفه عنها ما جاء فى خرجة أعجمية من موشحة عبرية نظمها توضروس ابو العافية ، ونشرها الأستاذ S. M. Stern ورسمت فى شكل هو ،

حين نضع الحروف العربية مكان العبرية « نون تيطولجش د ميبى[١] » وتكاد الجملة أن تكون نفس الجملة . وقد حولها شتيرن إلى حروف لاتينيـة : non te tolgas de mibi وترجمتها : لا تذهب عنى . ثم جاء الفعل مسبوقاً بالكاف فى موشحة عربية من مجموعة ابن بشرى على هذه الصورة :

(كتـال) من ما المـه

ورسمها الأستـاذ جارثيـا جومث Ki Tuelle وذكر أنه الفعل Toller وأنه نفس الفعـل الذى وجد فى الموشحة العبرية[٢] . وترجم النص بمـا يفيد أن معنى الفعل (أبعد) أو (نزع) ثم عالج الأستاذ جارثيا جومث المسألة مرة ثانية فى كتابه عن الخرجات الرومانسية[٣] حين عرض للمـوشحة العربيـة السابقة ، ولأخرى وردت فى جيش التوشيح منسوبة لابن رحيم حيث رسمت : نن ت طلجش دميب .

وأخيراً فان الوزن يستلزم أن يكون هذا الجزء من ستة مقاطع ، مما يرجح أن الرسم فى نص ابن قزمان إما أن يكون (كِنُنْ طُلّي دميب) أو (كِنُتِ طُلْ دميب) .

---

(١) Al-Andalus عدد ١٣ ص ٣٢٨ (سنة ١٩٤٨) .

(٢) انظر Al-Andalus مجلد ١٧ ص ١٠٦

(٣) انظر الصفحات ١٠٦ ، ٣٦٤ ، ٤٢١

فى الزجـل ٩

فى المقطوعة ٣١ من هذا الزجل الطويل (٩) يقول الزجال مخاطباً ابن زهر الممدوح بقوله :

(١)

اَنا انسان كما ترى بسَقَيْن
و (بشيش) واذرَعَيْن وادّيْن
اشقَرَ اللحْىَ ازرَقَ العينين
نشرب المـا إذا بلعت اللـقَمْ

ونقف عند الكلمة الأولى من الفقرة الثانية ، إن المادة العربية التى يستخرج منها مثل هذا الرسم هى مادة (بشّ بشاشة) وهكذا اعتبرها الأستاذ جارثيا جومث ، ولكننى أعتقد أن السياق يرجح ، وإن صحت هذه القراءة ، أن يكون اللفظ اسماً لعضو من أعضاء الجسد ، وعلى هذا الافتراض أخرج لفظ (الباء) باعتبارهـا حرف جر مثلها فى اللفظ السابق (سقين = ساقين) فيبقى بعد ذلك (شيش) التى لا نعرفها فى العربية بالمعنى المقصود . فلم يبق إلا أن نفترضه لفظاً أعجمياً . وفى الإسبانية لفظان أحدهما Seso من اللاتينى Sensus ومعناه المخ ، ولكن الأصل القديم يفيد العقل . والثانية Sieso من اللاتينى Sessus من فعل الجلوس Sedere (كما نص معجم الأكاديمية) ومعنى الكلمة هو الشَّرَج أو كما ترجمها معجم القالا (ص ٣٩٧) سوءة وسرم . ونحسب أن هذه الكلمة الأعجمية هى التى وردت فى نص ابن قزمان .

واللفظ بغير شك مجاف للذوق ، ولعـل هذا هو الذى دفع ابن قزمان لاختيار اللفظ الأعجمى ، ليكون أقل مجافاة فى آذان المستمعين ، ولكنه قريب من السيـاق ، خاصة بعد ورود لفظ الساقين . واللفظ لم يضبط فى المخطوط ،

وأحسب أن الاحتفاظ بالضمة الممدودة على الشين (شيشُ) يكون أقرب لملاءمة الوزن ، ويعفى من إضافة حرف لإقامته ، وأن الشين الأولى مفتوحة مع سكون الياء غالباً .

(٢)

وإذا وقفنا عند هذا الزجل ، نحب أن نناقش الأستاذ جارثيا جومث فى لفظ فيه جعله أعجمياً وهو فيما نرى عربى . ذلك هو لفظ (لب) فى المقطوعة ١٤ وفيها يهاجم ابن قزمان الزجالين الذين ينافسونه ويتهمهم بالجهالة والعجز فيقول عن كل شخص فيهم :

لَسْ لُ فايــدَ ولا لهُ عِشْرَ
يَقرا سُورَ وقــد نسى عَشْرَ
وهو يطمع فى حدْقَــة البَقَره
والطبيــعَ ترد لُبُّ جَــزَمْ

لقد جعــل الأستــاذ جارثيا جومث كلة (لب) فى الفقرة الأخيرة اللفظ الأعجمى Lobo أي (الذئب) . ولا يتناسب ذلك مع سياق الكلام فى شىء ، لأن : (لب) هنا بمعنى العقل والفهم ، وهى عربية .

وإنما التبس الأمر على الأستاذ لأنه قدر أن لفظ (بقرة) فى الفقرة السابقة هي الحيوان المعروف ، وأن (حدقه) يراد بها العين ـ pupilas de vaca ـ على حين أن المراد هنا سورة (البقرة) ثانى سور القرآن . أما (الحدقه) فهى (الحذقه) العربية بالذال ومعناها اللغوى الإجادة والاتقــان ، من الفعل حذق الشىء والأمر أى اتقنــه . واللفظ فى اصطلاح مقرئى القرآن ومعلمى الصبيان هو ختم القرآن أو ختم بعض أجزائه ، وكانوا يحتفلون بهذا ، ويدفع الآباء

أجوراً للمعلمين ويقدمون لهم الهدايا[١] . وأظن أن اللفظ والاحتفال لا يزالان يمارسان فى المغرب العربى حتى الآن .

وواضح أن ابن قزمان قد استعار كلمات تحفيظ القرآن للتعبير عن مراده . وأما لفظ (جزم) بالزاى لا الذال — فهى بمعنى (القطع) أى أن طبيعة المهجو تخذل صاحبها وتصيب لبه بالقطع والعجز . وهى غير (الجذم) بالذال التى أخذ منها (الجذام) اسم المرض .

وبناء على هذا أرى أن تنقط كلمة (حذقه) فى نص ابن قزمان .

(١) انظر كتاب : التعليم فى رأى القابسى — تحقيق أحمد فؤاد الأهوانى — القاهرة ١٩٤٥ — ص ٢٨٣ .

فى الزجل ١١٧

يتحدث ابن قزمان فى مطلع الزجل (١١٧) عن آلام الهوى ومشقاته ، وعن قلب العاشق يقع أسيراً فى يدى المعشوق ، فينقض عليه أعوان المعشوق ، أى جنوده وقواه ، ينكلون به . يقول :

وترى أعَوان هَواه ، يَجدو إليك سَبَبْ
يَنْشروا قلبك كما ، يَنشر النـاس الخَشَب
وِتَرَاهُمْ يَحسِبُوه ، كلٌّ فى شَان الحطب
والزَّنَدْ (والاشك باه) ، والحجَر بَشْ يوْقَدُ ؟

والوقوف هنـا عند الكلمة الثانية من الفقرة الأخيرة . أحسب أن الزجال وقد جاء بالألفاظ المتصلة بقدح النار ، قد قصد بهذه الكلمة أحد هذه الألفاظ . وإذا استخدم الزند والحجر وهما آلتا القدح ، فالسياق يستلزم أن يوجد معهما اللفظ الذى يدل على المادة السريعة الالتهاب التى يتعلق بها الشرر فيتحول إلى نار تغذى بالخشب ، الذى هو قلب العاشق ، كما تشير الفقرتان الثانية والثالثة .

وهذه المادة عندنا — فى مصر — هى من القطن ، وأظنها من الكتان فى بـلاد أخرى . ولهذا أفترض أن هذا اللفظ إما أن يكون Stuppa اللاتينية والتى هى فى الاسبانية Estopa ومعناها خيوط مشعثة من الكتان أو القنب ، وهو ما يقابل فى العربية (مُشاقة الكتان) .

وقد وردت كلمة Stupa فى Voc ص ١٨٦ وجعـل ترجمتها العربيـة (مُشاقة [١]) . ثم عاد فى ص ٥٩٤ وجعـل مقـابلها العربى لفظ (اشْتُبّ) زيادة على لفظ (شُحج) . فهل يكون اللفظ فى نص ابن قزمان (اشْتُ بَاه)

(١) جاء فى القاموس المحيط : والمشاقة كثمامة ما سقط من الشعر أو الكتان عند المشط — مادة : مشق . وقد فتحت الميم فى voc .

هو رسم (اشتب) التى وردت فى المعجم اللاتينى العربى ، انفصلت إلى جزئين ، وجاءت تاؤها مصحفة فرسمت كافا .

وإما أن تكون الكاف غير مصحفة فيكون المقابل الأعجمى لها Escaba وهى كلمة أرجونية كما نص معجم الأكاديمة الإسبانية ومعناها فضلات الكتان كما شُرحت . وبذلك يبقى الرسم عند ابن قزمان غير مصحف ، الا غرابة الفصل بين جزئى الكلمة (١) .

وقضية أخرى ؛ هل لفظ (اشتب) الذى ذُكر فى .Voc باعتباره مستعملا بين ناطقى العربية هو من اللاتينيـة دخل إلى العـامية فى الأندلس ، أو هو عربى أو معرب فى المشرق ؟ لقد جاء فى كتاب اللخمى عن لحن العامة ما يلى « فأما مُشاقة الكتـان فيقال لها أُصْطَبّه والجمع أُصْطُبٌّ . حكاها أبو عمر الزاهد فى كتاب الياقوته . وقول عامة زماننـا أُشْتُب لحن والصحيح ما قدمنـاه (٢) » .

وقد أشار دوزى فى معجمه إلى الكلمة وذكر أن مقـابلها فى الاسبانية Estopa وأنها وردت فى معجم القالا على صورة (أُشوب) (٣) .

---

(١) أثبت الأستاذ جارثيا جومث الكلمة (لا شك باه) بمعنى (لا شك فيه) وحذف الواو التى قبلها لإقامة الوزن . فاذا قرأت على الوجه الذى نذكره لم تحتج وزناً إلى حذف الواو . فضلا عن أن عبارة (لا شك به) قلقة فى هذا المكان .

(٢) مخطوط الاسكوريال ورقة ٢٢ .

(٣) تكملة المعجمات العربية ج ١ ص ٢٤ .

فى الزجل ٨٣

هذا الزجل (٨٣) فى رثاء ابن حمدين . تطرق فيه ابن قزمان إلى الأدعياء من الناس وقلة وفائهم بما يعدون ، وتهربهم حينما يطلب إليهم الانجاز . فيقول عنهم المقطوعة ٨

فكما نرجَع لوَعْدُ عَشيَّه
ثمَّ هُ قال نمض انا للقُرَيّه
بالله لَو انُّ يحفظ (البربليّه)
ان مَشَى الاّ ببُرْنُس مُقَنَّع

والاشكال فى الكلمة الأخيرة من الفقرة الثالثة . وربما كانت نقطة الباء الثانية غير واضحة تماماً فى المخطوط لالتصاقها بطرف الراء . ومن هنا قرأ الأستاذ جارثيا جومث الكلمة كلتين هما (البرّ ليه) أى (البر لى) من (برّ يبر) . وأحسب أنها كلة واحدة ، وأنها تصغير لفظ Barba الاسبانى بمعنى اللحية . وعلى ذلك ترسم وتضبط (البَرْبَليّه) .

والمعنى المراد أن من كان شأنه الكذب وإخفاء نفسه عن الناس تهرباً من الوفاء بالوعد يجب أن يستر لحيته ، باعتبار أن اللحية مظهر للرجولة أو للصدق والتقوى . ويؤيد هذا المعنى وينسجم معه ما جاء فى الفقرة الأخيرة من الحديث عن التقنع بالبرنس أى جعله قناعاً أو حجاباً على الوجه . وربما كان البرنس المقنع خاصاً بالنساء فى مصطلح الأندلسيين .

ولفظ Barba كان فيما يبدو شائعاً على ألسن الأندلسيين . وقد جاء فى كتاب النبات الذى استخلص منه آسين بلاثيوس الألفاظ الأعجمية[١] ما نصه

(١) Glosario de Voces Romances, Madrid, 1943 فى ص ٢٩ .

« بَرْبَه دى قُنِلْيُه أى لحيـة القنليه . وبعض النـاس يسميه بارْبه ذِ لابر أى لحية الأرنب » .

أما عن صيغة التصغير لهذا اللفظ فقد جاءت فى كتاب النبات المذكور هكذا « . . وبالعجمية بربالّه معناه لحية صغيرة » ثم جاء بعد ذلك فيه مباشرة « بَرْباْلَيْهْ وهو اسم مشترك . . . (١) » فالتشديد كما رأيناه على اللام إذا حذفت الياء ، وتسكين الـلام إذا تلتها اليـاء . والرسم فى ديوان ابن قزمان جاء كما رأينا بتشديد الياء لموافقة القافية ، مما يستلزم تخفيف اللام .

(١) ص ٣٠ . وقد ذكر آسين بلاثيوس أنماط التصغير للكلمة فى اللغات الرومانسية .

فى الزجل ٣٤

اختتم ابن قزمان الزجل ٣٤ بهذه المقطوعة متحدثاً عن زجله مشيراً إلى تفوقه فى هذا الفن :

قُلتُ على الرغْبَ والأمـل
وجَانى زَجَـل مثلَ العسَل
لَسْ فيها وحْدَ من النحَـل
الاّ تَقُـلِّى خُـذْ (بسّنى)

والكلمة الأخـيرة ، لم تضبط فى المخطوط ، ولكن الوزن يحتم تشديد السين ، فهل الكلمة من الفعل (باس[1]) بمعنى (قبّـل) ؟ على هذا الوجه أثبتها الأستاذ جارثيا جومث ، وهو أول ما يخطر بالبال لشيوع الكلمة ولاستعمال ابن قزمان لها فى مواضع أخرى . وان يكن تقبيل النحل مما يخشى لسعه .

ولكن النظرة الثانية تجعل الكلمة من أصل رومانسى لا فارسى . وتردها إلى أصل لاتينى .

فقد جاءت المادة فى بعض النصوص العربية بمعنى أكثر تخصيصاً ، إذ اتصلت بالطب والأدوية . جاء فى طبقات الأطباء لابن جلجل[2] متحدثاً عن جواد الطبيب النصرانى « كان فى أيام الأمير محمد ، وله اللعوق المنسوب إلى جواد ، وله دواء الراهب ، والبسونات المنسوبة إليه وإلى حمدين . وبسون حمدين مائة عقير وعقير ، كلها شجارية » وواضح أن اللفظ هنا اصطلاحى يراد به دواء يشرب . وقد فطن محقق الكتاب إلى اختصاص الكلمة بأهـل

---

(١) جاء فى القاموس : البوس التقبيل فارسى معرب .
(٢) تحقيق فؤاد سيد — القاهرة ١٩٥٥ — ص ٩٣ .

الأندلس [١] . فإن كانت هذه هى الكلمة المستخدمة هنا فهى (بسُّون) مضافة إلى المتكلم ، وحقها أن تضبط (بُسُّنى) .

حقاً إن سيمونيت ودوزى يرجعان الكلمة إلى اشتقاق من مادة (سم أو شراب مسموم) [٢] لورودها بهذا المعنى عند ابن القوطية . ولكن نص ابن قزمان فيما يبدو يقف بها عند معنى الشراب أو الدواء فقط ، لأنه يتحدث عن النحل والعسل . والكلمة فى الاسبانية الحديثة Poción لا تفيد معنى المسموم . ومع افتراض ان كلة (بسون) عند الأطباء جاءت من مادة تفيد معنى السم فهل يمنع ذلك أن يكون الاستعمال العامى لها خالياً من هذا المعنى بحيث يصبح أقرب إلى مادة (Bibère) التى جاءت منها الفرنسية Boisson لا الفرنسية Poison ؟ .

---

(١) أحال المحقق إلى دوزى جـ ١ — ٨٧ وإلى سيمونيت ص ٤٦٢ .

(٢) أشار سيمونيت لى Ponzoña ثم Pozon فى القشتالية وإلى الفرنسية Poisón .

فى الزجل (١١١)

جاءت المقطوعة الثانية من الزجل ١١١ على هذه الصورة :

هَذا المَـلول كـنّديد نَدْري أواخِرُ
اليوم زَمَنْ لى ذابَ نَنْقُر فى حافِرُ
وكلّما ضَرب الانسَان (مَسَاطِرُ)

اخرج لُ من يَحمل فى التوديع[1] : اقطعْ رَجَاك

هذه المقطوعة تصور محاولة الزجال لمعرفة حقيقة العلاقة بينه وبين من يحب ، وكيف تنتهى وإلى أين تصـل . وعبـارة (ننقر فى حافرُ) وإن لم نجدها فى موضع آخر ، فان فيها دلالة على التفتيش والاستكشاف . وقد جاء فى زجل (١١٠) قوله :

أى حُفّرَ نَحفُر أخبـارُ من ذَاب لَمَـام

وهى قريبة من عبارتنا ، وأحسب أن (ننقر فى حافر) تساوى ما يقـال فى العربية (نقتص أثره) أى نتابعه ونتعقبه . و هى هنا تشير إلى الماضى وفى زجل ١١٠ تشير إلى المستقبل (من الآن إلى أمام) . وتبعاً لذلك تفهم عبارته (وكلما ضرب الإنسان مساطِرُ) بما يدل على نفس المعنى أى أن (ضرب المساطر) تعبير اصطلاح يفيد الفحص والاختبار .

فإذا فحصنا عن كلمة (مسطره) وهى مفرد (مساطر) وجدنا من معانيها ما يعرفه تلاميذ الوطن العربى كله من هذه الآلة الخشبية المستطيلة التى يسطرون بها الأوراق ويقيسون الأبعاد على الورق . وهى التى يسميها الأوربيون Regla .

(١) كذا فى الأصل . وأحسبها مصحفة ، وأن صوابها (التوقيع) لأن مثل هذه العبارة التالية تشبه باختصارها وقطعها ما يحمله أدب (التوقيعات) من خصائص يتحدث عنها أصحاب النثر العربى .

ويظهر أن استعمال هذه الكلمة فى هذه الدلالة حديث عندنا . وكنا دائماً نتصور أنها من المادة العربية (سطّر) لصلتها بسطور الكتابة .

وقد وردت كلمة (مَسْطَره) بفتح الميم فى معجم القالا فى موضعين (أثبتهما دوزى فى معجمه)[(١)] الأولى فى ص ٣٧٤ فى مقابل Rasero de medida وتطلق على عصا تمسح المكيال ، أى تمر فوقه لتسقط ما هو زائد من الكيل[(٢)] . وفى ص ٣٧٧ وجعل مقابلها Regla de Carpintero أى مسطرة النجار ، ولا أعرف ما دلالتها .

وجاءت الكلمة فى القاموس اللاتينى العربى Voc ص ١٨٦ ، ٥٥٧ وجعل مقابلها Regula وأردفها بالكلمات العربية أو المعربة قُبْطَل — مَحْوَق — ونجد لكلمة (قبطل) هذه عند ابن ليون حسبما نقل النص سيمونيت ص ١١٨ ودوزى ج ٢ ص ٣٠٢ استعمالا عند البنائين لآلة تقاس بها المستويات ، تشبه ما نسميه عندنا بميزان الماء ، وتشبهها فى المعنى أو تقرب منها لفظ (محوق) تطلق على خيط أو حبل دقيق مثقل برصاص لتقاس به الأبعاد[(٣)] .

وخلاصة هذا كله أن المسطرة اسم لآلة تستخدم فى قياس الأبعاد عند النجارين والبنائين . ونعتقد أنها بهذا المعنى وردت فى نص ابن قزمان ، وإن كنا لا نعرف بالدقة تحديد استعمالها وعن أى من المهنتين أخذها . أما الفعل الذى استخدمه وهو (ضرب) فإنه يتسع فى العربية[(٤)] فيستخدم فى مثل هذا

---

(١) تكملة المعجمات العربية ج ١ ص ٦٥٢ .
(٢) مادة Rasero فى معجم الأكاديمية الاسبانية .
(٣) انظر : دوزى ج ١ ص ٣٣٨ نقلا عن Voc وعن Alc. .
(٤) انظر : مادة ضرب فى أساس البلاغة . وانظرها أيضاً فى دوزى ج ٢ ص ٥ .

الاستعمال الذى يتصل بالآلات اليدوية . مع تقدير أن الضمير فى (مساطرُ) وهو الهاء المعبرة عنها الواو تعود ، لا إلى المحبوب ، وإنمـا إلى لفظ (الإنسان) الواردة بالنص والتى يراد بهـا ابن قزمان نفسه ، فكـأن المساطر مضافة إليه هو لا إلى محبوبه .

وأخيراً هل هذا اللفظ عربى الأصل . أم مأخوذ عن أصل لاتينى أو يونانى . لم أجد اللفظ فى المعاجم العربية ، مما يرجح أعجميته . فهل يكون من المـادة اللاتينية Mésurare ؟ .

فى الزجل ٨٩

جاءت المقطوعة ٧ من الزجل ٨٩ على النحو التالى مع التزام الرسم وضبط الكلم فيه .

بالِ فَالدقيق مَشْغُول وَىْ عَقَل يَبْقَى لِ ان فاتْ
قَدْ رَجَع كَلاَمى كُلّ مَلاَمِنْ دَالَةْ وقَافَاتْ
وَمَا ادْقَكُمْ (ببنيَات) مَنْ يَدُقنى ندق لَكمَات
وركَاض لَغَسَل كِسَا وصُفَيعَاتٍ صَفِيقَهْ

ونحن نرى أن الكلمة الثالثة من الفقرة الثالثة هى اللفظ الاسبانى Puño فقد جمعت جمع التأنيث . ومعنى الكلمة فى الاسبانية هو قبضة اليد ، أو ما تتسع له قبضة اليد وهو من اللاتينية Pugnus حسبما نص معجم الأكاديمية . والكلمة فى نص ابن قزمان تتفق تماماً مع كلمة (لكمات) التى فى آخر الفقرة . وكأن المعنى (ما أدقَّ هذه البُنْيات) أى ما أحكمها وأقدرها على تسديد اللكمات . والبنيات التى يتحدث عنها هى غالباً بُنْياتُه هو . والضمير (كُمْ) خطاب لها . ويحتمل أن يكون الضمير (كم) لمخاطبين أمامه يصفهم بقوة القبضات وحسن تسديدها ، فكأن الصيغة (وما أدقكم ببنيات) أى ما أحذقكم بها .

والأمر فى هذا المعنى أو ذاك يدور حول (الباء) التى فى أول الكلمة هل تثبت أو تحذف ، فالمعنى الأول يرجح الحذف ، والمعنى الثانى يرجح الإثبات . على أن الأمر يتجاوز المعنى إلى الوزن . واضح من وزن هذا الزجل أن الفقرة الواحدة تنقسم وزناً إلى شطرتين تشتمل كل شطرة على ثمانية مقاطع . فإذا

جمعنا هذه المقاطع فى تفعيلة عروضية عربية قلنا إنها (فاعلاتن) تكرر فى الشطرة مرتين [١] ، أى أربع مرات فى الفقرة .

وقد ضبط الأستاذ جارثيا جومث الشطرة الأولى (وما أدقكم نِيّات) فجاءت ثمانية — هكذا قرأ اللفظ الذى نزعم أعجميته على أنه عربى ، جمع نِيَّة — ، وشدد دال (أدقكم) وإن كان المخطوط جعل سكوناً على الدال واقتصر بفتحة على القاف — والمخطوط لا يعتدّ دائماً بضبطه ، فضلا عن أن الفعل (دق) مشدد فى العربية .

وعلى هذا ، فلو اعتبرنا عدد المقاطع وجب أن تكون الكلمة التى نناقشها (بنيات) دون باء لتكون مقطعين وتصبح الشطرة ثمانية مقاطع . أو أن نحذف (الواو) التى فى أول الشطرة ونثبت الباء فتكون (ما ادقكم ببنيات) فتكون الشطرة ثمانية مقاطع أيضاً .

ويلاحظ أن فى حذف هذه الواو الأولى يستقيم الوزن على (فاعلاتن فاعلاتن) .

(مَا / اَدَ قْ / قَ // كُمْ / بِبُنْ / يَاتْ)

ولو التزمنا ضبط المخطوط وحروفه لاستقام أيضاً على (فاعلاتن فاعلاتن) .

(وَ / مَ اَدْ / قَ // كُمْ / بِبُنْ / يَاتْ)

وإنما استطردنا إلى هذا لكيلا يستبعد افتراض هذا اللفظ الأعجمى لضرورة الوزن ، ولنؤكد إمكانية الوزن فى حدود الرسم الموجود بالأصل .

---

(١) قضية الوزن فى الموشحة والزجل أكثر تعقيداً من أن نخوض فيها الآن ، خاصة بعد الذى كتبه الأستاذ جارثيا جومث عنها باستفاضة . ولكننا نقول كما قال ابن سناء الملك إن بعض هذه المنظومات (له وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق) وهو يريد بذلك سمع وذوق من ألفوا العروض العربى والشعر العربى وهذا الزجل فيما نحسه بسمعنا وذوقنا العروض يدخل فيها . أما البعض الآخر فنكتفى فيه حالياً بعدد المقاطع ، فكل حركة مفرده انتهت بسكون أو لم تنته به مقطع . ولنا عودة فى المستقبل إلى هذا الموضوع .

أما عبارة (الركاض) فالمراد بها الركل بالقدم وهى فى العربية بهذا المعنى ، أما التشبيه بغسل الكساء فصورة شعبية ، حيث تطأ الغاسلات على شواطئ المياه بأقدامهن الأكسية ، أو حيث يضربنها بما يشبه المطارق ، لتتخلص من الأوساخ .

كلمة عربية

جاء فى الزجل ٦٨ المقطوعة السابعة لفظ (قصّة) وناقشها الأستاذ جارثيا جومث فى قسم الرومانسيات ، الأول الفقرة ٧ فجعلها اللفظ الرومانسى Casa بمعنى المنزل ، وأنكر على الأستاذ نيكل أنه جعلها اللفظ العربى (خُصّ) بمعنى الكوخ . وقد أخطأ نيكل فعلا ، ولكن الأستاذ جارثيا أيضاً لم يصب فى رد هذه الكلمة إلى أصل أعجمى .

والمقطوعة التى وردت فيها الكلمة هى :

قِصَّتى صَارتْ طَرِيفَه يابَعَدْ لس ماعِ قِصّة
ولا مَا نُعطِى فى حَمَّام ولا ما نعطى فى قَصَّه
افْتِنِى فَلى فى فَتْواك فى طَريق الجِدّ رُخْصه
عَارِف اتْ بذى المَسَايل ، وانتَ تَدْرى كيف تَخْرُج

وموضع النزاع هو اللفظ الذى جاء فى آخر الفقرة الثانية ، وهو الذى قدر الأستاذ جارثيا أعجميته يريد أن الزجال الذى يشكو فقره وعجزه المالى هنا يعلن أنه لا يجد معه مالا يدفع به أجر الحمام ولا أجر أو كراء المنزل .

ونحن نخالفه فى هذا ، ونرى أن كلمة (قَصة) هنا هى اسم المرة من الفعل العربى قَصَّ شَعْره (بفتح الشين) أى أن الزجال عاجز عن دفع أجر الحجام الذى يحلق له شعره . وقد شكا ابن قزمان فى موضع آخر من ديوانه من أن خبزه مقصص وشعره غير مقصص[(١)] . ولا شك أن قصّ الشعر متصل بالحمام اتصالا يؤكد المعنى المقصود هنا ويعبر تعبيراً أدق عن الحاجة والفقر .

---

(١) الزجل ٦٧ المقطوعة ١٣

احتمال لغوى

جاء لفظ (قُبَيّ) فى الزجل ١٤٠ المقطوعة الرابعة . ورأى الأستاذ جارثيا جومث فى ترجمته للنص ، وفى قسم الرومانسيات ٤ — ٣ أن الكلمة هى التصغير العربى للفظ الرومانسى Capa ذلك فى قول ابن قزمان :

وَتَرْجع بحَال مَنْ خَلَع
فُتوحي ويَلْبَس قُبَيْ

والسياق يدل على أن اللفظين (فتوحى) و (قبى) يطلقان على نوعين من الأردية ثانيهما أوسع وأروح للابسه من الأول . ولا نعرف لفظ (فتوحى) فى غير هذا الموضع ، وقد اقترح الأستاذ جارثيا أن يقرأ (مُسَوحى) .

أما لفظ (قبى) فيحتمل أن يكون تصغير Capa وإن يكن لفظ Capa قد رسم فى زجل آخر بالكاف (كابّه)(١) . كما يحتمل أيضاً وهذا أرجح أن يكون تصغير لفظ (قَبَاء) العربية . وكانت كلمة (قَبا) معروفة لدى الأندلسيين بدليل ورودها فى Voc حيث ترجمها Camisia وجمعها أقبية(٢) ولم يخلط بينها وبين اللفظ الآخر حيث رسمه (كَبَّه) وجعل مقابله لفظ Capa(٣) ورسم القالا هذه الأخيرة ص ١٣٩ بالكاف وبالتشديد Cappa .

وقد جاء لفظ (قباء) واضحاً فى إحدى الخرجات العامية للموشحات ، وجاء فى المدخل إلى الخرجة ما يؤكد أنه (القباء) لا (الكابه) . ونص الخرجة وما قبلها(٤) .

---

(١) الزجل ٥٥
(٢) ص ٢٧٧ ، ١٥٨
(٣) ص ٢٧٩ ، ١٦٦
(٤) من مخطوط ابن بشرى — فى ملك الأستاذ جورج كولان — ص ١٣١

أراهُ جاءَ من عَدْنِ ورِضوانٌ على أمْنِ
كجيئـة من به غُنِّى لرَقم قَبـــائه اللدْنِ
جَبِي فى قَبـا مَرْقـوم كما جَا مِن بـلاد الرُّوم

حقاً ، إن كلمة بـلاد الروم هنا توحى بالزى الرومى أكثر مما توحى بالزى العربى ، ولكن وزن الكلمة يجعلها لا تقبل التشديد ، ورسمها بالقاف فى الموضعين مع الهمزة فى الأول ، يجعلنا أمام (قبا) العربية .

وبناء على هذا نرجح أن تكون لفظ (قُبَى) الواردة فى زجل ابن قزمان هى تصغير (قبا) العربية ، لا (كبّه) الأعجمية ، حتى ولو جاز رسمها بالقاف — وبالقاف رسمها ابن هشام اللخمى (١) — ذلك لأن الكلمة الأعجمية مؤنثه مما يدعو إلى أن يكون تصغيرها قُبَيَّة لو تسامحنا فى التشديد على الباء ، على حين أن صيغة قُبَىّ تتفق دون إشكال مع (قبا) .

(١) انظر ألفاظ مغربية ص ٥٠

١٥

صعوبة التصحيف

جاء فى الزجل ١٨ وفى المقطوعة الثانية منه لفظ (مَن أُسْطُ) . وقد رأى الأستاذ جارثيا جومث أن الجزء الأول من الكلمة (من) مصحف وصوابه (بن) لتخرج منه كلمتان أعجميتان هما : Ben ثم usto . يكون معناهما (محترق تماماً) باعتبار أن الأخيرة هى ustus المشتقة من uri [١] ، ولقد كان هذا حلا سعيداً لنص معقد مشكل ، لولا أن هذا النص وجد فى كتاب آخر ورسمت الكلمة الأولى فيه أيضاً (من) مما يجعل احتمال التصحيف ـ على بساطته هنا ـ غير سهل .

أما نص ابن قزمان فهو كما رسم فى المخطوط وكما ضبط :

اشْ ذَا العَمَى يا مَن مَاع عينين
ايـك تَـغْـرُك [٢] الغلط والزين
ومح بنت قنـديـل [٣] بقـمَّين
مُشقَّى من اسْطُ مَن يخرج الزيت

وأما النص الجديد فهو ما أورده الدكتور محمد بن شريفة فى تحقيقه لأمثال أبى يحيى الزجالى القرطبى [٤] وهو المثل رقم ١٤٢ ونصه :

أَخْرَجَتْ لَكَ أُمِّى قَنْديل بِفُمَّين قَال : مَشْقا مَنْ اسْط منُّ يَخْرج الزيت

---

(١) انظر قسم الرومانسيات جـ ٣ ص ٣٥٧

(٢) قرأها جارثيا جومث : تغرك بتشديد الراء والغين ليستقيم الوزن والمعنى ، ولا بأس بذلك .

(٣) قرأها جارثيا — ويح بيتى [و] قنديلى بفمين — ولا اعتراض على قراءة الكلمة الأخيرة وهى الصواب ، كما أن الياء فى قنديل محتملة فى رسم المخطوط . أما (ويح بيتى) فلا يؤيدها نص المثل .

(٤) كتاب : أمثال العوام فى الأندلس لأبى يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالى القرطبى (٦١٧ — ٦٩٤ هـ) تحقيق وشرح ومقارنة الدكتور محمد بن شريفة — القسم الثانى — فاس ١٩٧١ (منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية والتعليم الأصلى) — وهذه الأمثال هى فصل من كتاب مخطوط للزجالى هذا « رى الأوام ومرعى السوام فى نكت الخواص والعوام » .

ويفسر بن شريفة هذا المثل ، بعد الإشارة إلى زجل ابن قزمان فى هذا الموضع ، بما يفيد أنه فهم كلمة (اسط) على أنها رسم للكلمة العربية (اِسْت) . ومن هنا قال : وشطر المثــل الأخير تعبير عامى بذىء معنـاه : ما أشقى من يتحمل نفقة البيت .

وقد أثبت محقق الأمثــال — وهو يعتمد على ثلاث نسخ — أن واحدة منها رسمت الكلمة (مواسط) أما الأخريان ففيهما (من) كما فى رسم الديوان . وضبطت (من) الثانية بتشديد وضم — وهى فى الديوان تحتمل التشديد رسما .

ولا تجيء الصعوبة أمام تخريج الأستاذ جارثيا جومث من مجرد ورود لفظ (من) . وإنما تجىء من فكرة تكرار المعنى الواحد بالعربية والأعجمية . وهذا مألوف عند ابن قزمان وقد نبه إليه الأستاذ جارثيا جومث باعتبــاره أسلوبا قزمانياً ، وليس ذلك مألوفاً فى المثل العامى حيث الأختصار والتركيز أصل فيه .

كما أن لفظ (أمى) فى المثل يجعل (بنت) فى الزجل لها محــل . ولفظ (مح) فى أول الفقرة الثالثة تجعل كلمة (ويح) محل نظر . فضلا عن أنه لابد أن يشتمــل نص ابن قزمان على ما يربط ما بين الفقرتين الأولى والثانية فى المقطوعة وبين الثالثة والرابعة حيث المثل ، وهو ما ليس متحققاً فيما نجده أمامنا . حتى لقد خطر ببالى أن (ومح بنت) هى جملة أعجمية ، أما أن تكون ترجمة لجملة (أخرجت لك أمى) فى المثل ، أو تكون بمعنى (تذكر المثل) أو ما يصلح مدخلا ، حتى لخطر ببالى أحياناً أن يكون لفظ (بنت) هى Viento الإسبانية وأن تكون كلمة (ومح) إما (وَنَحِّ) من الفعل (نحّى) أو تكون فعلا أعجمياً يؤلف معنى (اترك للريح) . . مثل dejar فى القشتالية و dexar فى القطلانية .

الأمر على أى حال فى حاجة لأن يعاد النظر فى هذه المقطوعة من جديد .

١٦

أى اللفظين الأعجميين ؟

جاءت المقطوعة السادسة من الزجل ٩٢ على هذه الصورة فى المخطوط .

نَرَى الرَّغَايف مَعجُون بيض
وينطبَـعْ لى عَمــلَ القَريض
عجين ممن يكونُ مريض
وسبي بليط كف لس يفيق

أما الفقرة الأولى فلا إشكال فيها . وانما ينبغى فتح نون (معجونَ = معجونه) وهذا يعفينا من إضافة (من) التى أضافها الأستـاذ جارثيا جومث لإقامة الوزن . والفقرة الثانية لا إشكال فيها . أما الثالثة فهى فى رأينا مصحفة وصوابها (عَجِبْتُ) لا (عجين) . وبذلك يمكن ضبط وتصحيح الكلمة الأولى من الفقرة الرابعة فتكون (وَيُسْقَى) . ويكون المعنى فى الاثنين (عجبت من مريض يسقى (البليط) فلا يفيق) إمعانـاً منه فى الإعجاب بهذا المشروب أو المأكول وأنه يشفى لحلاوته المرض — وقد خفى هذا على الأستاذ جارثيا جومث فاضطر إلى أن يرسم هذه الفقرة (وشىء بلبطه . . .) .

على أن هذه استطرادات والقصد هو لفظ (بليط) فهو تبعـاً لهذا مجرد من حرف الجر الذى وصفه الأستاذ جارثيا ليجعـل الكلمة الأعجمية (لبطه) وتصبح leuda الإسبانية [١] التى سبق ورودها فى موضع آخر من الديوان — وإنما هو لفظ واحد ، رسمه فى المخطوط بليط . فما هو هذا اللفظ ؟ .

فى الحق أن صديقنا الدكتور محمد بن شريفه قد حـل هذا الإشكال فى كتابه الذى أشرنا إليه . إذ وجد المثـل رقم ٢١٦ من المجموعة يقول

(١) انظر قسم الرومانسيات ٤ — ٨

(البُلْياط أدْفَى ، العَسَل أحْلى) فرأى أنه نفس اللفظ الموجود فى هذا الزجل القزمانى . وردها إلى Poleadas التى وردت فى دوزى ج ١ ص ١١٥ وفى Voc ص ٥٤٥ مرادفة للسخينة والحريرة ، كما أشار إلى ورودها فى شعر لابن الأزرق . . . إلى آخر تعليقه القيم على هذا المثل وعلى غيره[1] .

وعلى ذلك فينبغى أن يضبط اللفظ فى الزجـل (بُلْيَط) كما رسم : ثم هـل اللفظ لاتينى ؟ لقـد ورد فى Voc مقابـلا للفظ Pultes . ومعجم الأكاديمية الاسبانية يذكر أنها من Polenta اللاتينية .

(١) قرأ بن شريفه (عجبي) ونحن نفضل (عجبت) فى نص ابن قزمان .

١٧

فى الزجل ٢٧

يتهم ابن قزمان الزجالين الآخرين بالإغارة على أزجاله ، وأنه لهذا فى مقـــام سيء معهم ، لا سيما وهم يفسدون ما يختطفونه . يقول فى المقطوعة الأخيرة (٩) ما نصه :

أَنَا بِكُـــلّ شَاعِرْ قـد كنتُ فى مقـامْ
نَقْضُوا فى ذا القَـوافى مَصائبـا عِظــام
تَهجـم عَـلى الجَـواهر وتُـفْسِد الـنِّـظـام
فَهُمْ على كلامى بِحَلْ (غَزَاقُفَى)

وقد كتب الناسخ الكلمة الأخيرة كتابة الواثق من رسمها ، وضبطها كاملة . ورسمها على هذه الصورة يوحى أنها عربيـة ، وأنها من الفعل العربى (غزا يغزو) وأن ما بعد الفعل كلمة عربيـة أخرى فى صيغة التصغير ، ربمـا تصغير (قافية) وإن يكن قد صغرها ابن قزمان من قبل على (قُفَيْفـة) فى زجل ٢٤ ولكن هذا الافتراض يجعل كلمة (بحل = بحال) وهى للتشبيه عند الأندلسيين لا معنى لها . كما يخطر أن تكون الكلمة الأخيرة (فَيْء) خففت همزتها ، وكأن الكلمة (غُزَاةُ فَىْ) كما يخطر بالبـال أن تكون الكلمة عَلَما على جماعة اشتهرت بالسرقة . . . الخ .

فإذا تركنا الاجتهاد فى حدود اللفظ العربى إلى اللفظ الأعجمي ، وجدنا ما لعله يعفينـا من هذه الفروض . لأننا سنجد فى الاسبانية لفظ Garabato ومعناها فى العربية المصرية (الخُطَاف) أو (المُخطاف) كما ترجمها معجم .Alc ص ٢٦٠ . وهى أداة من حديد ذات طرف مقوس تستعمـل فى جذب أو تعليق الأشياء ، كما يشرحها معجم الأكاديمية الإسبـانية . فإن صح أن هذا

هو اللفظ الذى استخدمه ابن قزمان ، وجب أن يكون رسم الكلمة (غَرَابَتَيْ) وحينئذ تجىء مشكلة فتح التاء مع وضع هذه الياء الساكنة فى آخر الكلمة — أما ما قبلها من تصحيف فالأمر فيه هين ومألوف — فهل حكمت القافية على ابن قزمان باحداث هذا النطق ، أو أنه جعل اللفظ مثنى ، وعلامة التثنية عند الأندلسيين تسقط منها النون الأخيرة اكتفاء بالياء الساكنة المفتوح ما قبلها . وهى صيغة كثيرة الدوران عند ابن قزمان ؟ وتكون هذه التثنية قد لمح فيها معنى من شكل هذه الآلة الحديدية وربما كان منها ما هو ذو رأسين[1] ، قياساً على لفظ (كُلاّبه) العربية التى ترد بصيغة المثنى (كُلابتان) وهى قريبة من هذه الآلة معنى واستعمالا .

ومما يشجع على افتراض هذه الكلمة الأعجمية أنها استخدمت فى ديوان قسيس هيتا (المقطوعة ٩٢٥) وصفاً للقوادة ، وسط حشد عجيب من الصفات ، بما يدل على أن المراد به غالباً هو السرقة والاختطاف أو الاحتيال والمهارة ، على حد ما جاء من المعنى المجازى للكلمة فى معجم الأكاديمية .

وبناء على هذا فنحن نرجح أن هذا النص يشتمل على الكلمة الأعجمية التى ذكرناها ، والتى خفى معناها على الناسخ فرسمها بالزاى بدل الراء ، تأثراً منه باللفظ العربى الذى يعرفه (غزا) . أما الرسم والنقط فيما يتصل بالباء والتاء والقاف والفاء فهو تصحيف يسهل الوقوع فيه .

---

(١) فى الزجل ٩٦ (المقطوعة ٣) يشبه ابن قزمان من يحلف بالمخطاف (لو حلف لى حتى يصير مخطاف) وقال من قبل فى زجل آخر (ولو أن يحلف حتى ينشق) مما يجعلنى أرجح أن يكون المخطاف مشقوقاً له فرعان .

١٨
فى الزجل ١١ ، ٤٩

يكثر ابن قزمان من استخدام الألفاظ الدالة على الأصوات للتعبير عن معانيه وما حول هذه المعانى من تصوير واقعى حى . وقد نبه الأستاذ جارثيا جومث إلى هذه الظاهرة ، وعقد فصلا ممتعاً عنها ألحقه بآخر تحقيقه للديوان (الفصل السادس من المجلد الثالث) .

وأقف هنا عند موضعين ، أرجح أن أولهما يشتمل على أحد أسماء الأصوات ، وأنه من أصل أعجمى ، أما الثانى فهو بغير شك إسم صوت ، ولكن يغلب أن يكون عربى الأصل .

أما الموضع الأول فهو ما جاء فى الزجل ١١ المقطوعة ٨ ونصها :

تمّت الحُجّه مَتاع ، إذْ قالت لى (جد) هُ يكفاك
كرش بحال ذاب ، لا لمام ولا لبعداك
أو ذا الجَوْرَب مُجرّد ، والردَى مرى الفَنَاك
ووذا دَلالى مَسْبول ، وانا شَاطِر فى بدىّ

والكلمة المقصودة هى (جد) فإذا قدرت عروبة الكلمة أمكن أن تكون من (جَيّد) مع النطق العامى (جِيد — جِد) وهو ما أخذ به الأستاذ جارثيا . وأمكن أن تكون من (الجدّ) الذى هو ضد الهزل . ولكننى مع ذلك أرجح — استناداً إلى أسلوب ابن قزمان — أن الكلمة (¡Chite!) التى وردت فى معجم الأكاديمية الاسبانية ونص على أنها النطق القديم لما هو فى الاسبانية الحديثة ¡Chito! والتى ذكر أنها اسم فعل يستخدم للأمر بالصمت .

وواضح أن سياق الحديث فى مقطوعة ابن قزمان هو أنه كان يسوق الحجج ويكثر من الكلام بما يجعل هذه الكلمة بهذا المعنى مناسبة للسياق ، فضلا عن أن ما جاء وراءها من فعل (يكفى) تضعها فى موضع لائق . أما

قضية الرسم فالمعروف أن الجيم عند الأندلسيين تعطش إلى الدرجة التى تختلط لديهم مع الشين . وقد مثل ابن هشام اللخمى فى كتابه عن لحن العامة بالأندلس لهذه الظاهرة بقولهم (يشتهد) مكان (يجتهد) . وأما استخدام الدال فى مقابل (T) الإسبانية فأحسبه مألوفاً ، وإن كانت (الطاء) أكثر شيوعاً :

ويرجح أن يكون ابن قزمان قد أراد هذا اللفظ الأعجمى لاستخدامه لفظاً أعجمياً آخر فى أول الفقرة الثانية . هو (ككرش) وهو اللفظ الذى نبه إليه الأستاذ جارثيا فى قسم الرومانسيات .

على أننى أختلف مع الأستاذ جارثيا فى المعنى العام للمقطوعة . فعندى أن جملة Que Queres ليست استفهامية وإنما هى تقريرية . وأن لفظ Que هنا بمعنى (ما) العربية لا بمعنى (ماذا ؟) وأفهم الجملة على النحو التالى «ما تريده بحال ذاب ، أى يتحقق الآن — لا لإمامٍ ولا لِبَعْداك ، أى ليس مؤجلا لوقت مُقبل ، أى تال فى الزمن ، أو لوقت بعيد» والكلام التالى يؤكد أنها — أى المرأة — حققت له غرضه فوراً إذ خلعت ما عليها من أردية — ولعل الجمع بين كلمتى (بحال) و (ذاب) يبدو غير مألوف ، ولكن ابن قزمان فى زجل ٧١ مقطوعة ٣ جمع بين (كما) و (ذاب) هذه فى قوله :

وانا كما ذبا نتعلّم ، طرق الزنم

أما الوزن فمستقيم إذا كسرت اللام من بحال وفتحت الباء من (ذاب) . وربما كان فى كسر (بحال) ما يجعلها منفصلة غير مضافة إلى (ذاب) لأنها تصبح (بحالى) أى (ما تريده هو ما عليه حالى الآن) وبذلك نخلص من حرج الصياغة .

ولا تزال فى المقطوعة مع ذلك مشكلة (مرى)[١] ولعلها مصحفة عن

---

(١) وردت كلمة تشبه فى رسمها هذه الكلمة وفى سياق قريب . وذلك فى الزجل ١٩ المقطوعة ٨ (وانا جالس (مرلى) شك الخروف) مما يستلزم أن يعاد النظر فى قراءة الأستاذ جارثيا لها (مدلى) فلعل للكلمة صلة بارتداء الملابس ، وربما كانت (شك) التى جعلها الأستاذ جارثيا (مثل) من أسماء ما يلبس Saco أو Saca . إنها مجرد فروض .

(مرخى) بمعنى محاول ثم مشكلة (وانا شاطر فى بدى) إذ أنى أميل إلى أن الجملة لا تزال استمراراً لكلام المرأة . وقد خطر ببـالى أن تكون تصحيفاً عن (والشناطر فى يدى) على أنها جمع Cintura بمعنى الحزام . ولكن الرسم لا يعين على ذلك . وللتصحيف كما للغلط منطق وأصول أيضاً .

أما ما جاء من اسم الصوت فى الزجل ٤٩ فهو قول الزجال فى آخر مقطوعـة منه :

حقّ يا صديـقى لَسْنـهُ صـواب
من جَعَل فى جنبُ شِوى وشَراب
ورَمَى قَطِيعَيْن وطابْ وطَرَب[١]
وعَمـل سَريرُ مَعهـا (قَدْ يَقَدْ)

وواضح عندى أن المراد بعبارة (قد يقد) إنما هو تصوير صوتى لحركة السرير ، فكأن الكلمة الأخيرة لا تحمـل ياء المضارعة . والأقرب أن يكون رسمها (ياقد) لدفع الايهام .

ولم أجد فى الألفاظ الاسبانية ما هو نظير أو مقابل لهذا الصوت . وأحسب أن المادة العربية (قضقض) هى المصدر . واذكر بيتاً للبحترى يعبر عن اصطكاك أسنان الذئب :

يقضقض عُصْلا فى أسرّتها الردى كقضقضـة المقرور أرعده البرد

وأكثر تحديداً من هذا ما جاء فى المعاجم العربية « وقِضْ بالكسر مخففة حكاية صوت الرُكبـة[٢] » فإذا كان نص ابن قزمان قد رسم بالدال والفتح بدل الضاد والكسر ، فواضح أن للقافية ضرورة فى الحرف ، أما الضبط فلا أدرى مدى الثقة به هنا . والأفضل أن تضبط (قِدْ يَقِدْ) .

---

(١) ينبغى أن تمد فتحة الراء للقافية ، وهذا يعفينا من تأخير (طـاب) . والقطيع يراد به كأس الخمر .
(٢) الفيروزبادى — مادة قضض .

١٩
فى الزجل ٩

هذا الزجل الطويل الذي تجاوز أربعين مقطوعة ينطوى على مفاجآت كثيرة وعلى مشاكل كثيرة أيضاً . وقد وقفنا من قبل عند لفظ (شيش) ونقف الآن عند موضع آخر هو ما ورد فى المقطوعة الأخيرة منه والتى نصها :

تَمْضِى اِن شَا الله مِن سُرور لسرورْ
والسعــــادَ (بَشَاشَتْ اذْ مَطُور)
وعَــدُوّك ايذَا فِشَوَّال طَــــلُّور
لعن الله من لا يقــول نــعم

وقد سجل الأستاذ جارثيا هنا لفظ (طلور) وأنه اللفظ الإسبانى Dolor ولكنه اعتبر الفقرة الثانية خلوا من الألفاظ الأعجمية ، ورسم آخر الفقرة (اذا تطور) وترجمها « إن السعادة تبتسم حين تظهر لها » .

وأحسب أن بنـاء الفقرة ، فضلا عن رسمها ، لا يحقق هذا المعنى إلاّ بتكلف شديد ، يفترض معه أن لفظ (بشاشت) يراد بها (باشَّة) . أما الفعل (تطور) فلا يؤدى هذا المعنى فى العربية . حقاً إن ابن قزمان فى زجل ١١١ مقطوعة ٥ قال « ولا تطور ذا الزقاق أكثر ولا نراك » بما يفيد معنى (تزور) أو (تدخـل) ولكن الفعـل فى الموضع المذكور متعد بما يحقق له تحديداً فى المعنى غير موجود هنا . فضلا عن أن رسم (بشاشت) بالتـاء المفتوحة ولفظ (إذ) والميم فى (مطور) يوحى باحتمال أعجميـة الجـلة ، لا سيا وقد ورد فى الفقرة التالية ما لا شك فى أعجميته .

وحسبنا أن ننبّه إلى أن الجملة قلقة إذا قرئت باعتبارها جملة عربية ليعـاد الأمر إلى أيدى المتخصصين فى اللغات الرومانسية يبحثون لها عن حل أعجمى ،

فإذا تجاوزنا هذا الحد واجترأنا على افتراض ألفاظ أعجمية نتوهم أنها تحقق المعنى الذى نعتبره متفقاً مع السياق ، قلنا إن المعنى الذى نفترضه فى حدود الألفاظ المحتملة هو : تمضى إن شاء الله من سرور لسرور « والسعادة خاضعة لإرادتك » أو (والسعادة تذعن لحكمك) .

وإنما قدرنا هذا لافتراضنا أننا أمام الفعل الاسبانى Bajase — Bajarse الذى يؤدى معنى الخضوع وأن أصله اللاتينى Bassiāre [1] يجعل رسمه العربى موافقاً . أما لفظ (مطور) ونحن نضم إليه الذال السابقة عليه فيصير (دمطور) فنفترض أنه من الفعل Domar الاسبانى الذى أصله اللاتينى Domare والذى يطلق على ترويض الحيوان والذى يشتق منه المصدر Domadura وكذلك اسم الفاعل Domador وبين اللفظين الأعجميين سيجىء الضمير (tu) أو (tuya) وحرف الجر (a) فيصبح تركيب الجملة بصورة تقريبية (والسعادة Baxa se a tu domatur) .

وليس يخفى أن فى الاسبانية أفعالا أشيع استعمالا فى مثل هذا السياق مثل فعل Dominar ومثل Demandar ولكننا نحاول ما استطعنا أن نطابق الرسم الموجود دون تصرف إلا فى أضيق الحدود .

---

(١) انظر : Meyer-Lűbke رقم ٩٧٧ .

٢٠
فى الزجل ٦٧

عرضنا من قبل للزجل ٦٧ ، ولموضع فيه ألفاظ أعجمية . ونعرض الآن لموضع آخر فى نفس الزجل ، وهو موضع مشكل إلى حد جعل الأستاذ جارثيا يضرب عن إثبات بعض أجزائه وعن ترجمتها . تلك هى المقطوعة ١٥ . ونصها كما رسمت فى الديوان — وهي أيضاً آخر الزجل ، وكأن ابن قزمان يدخر المشاكل للخرجة ، ولعل ذلك يرتد إلى الخرجات الاعجمية فى الموشحات وصداها عنده .

يَا بَيَاض بَيْت (أمّ ابى) ليتَنى كُنْت (آنـا أُمٍّ)
يـا على فـم نُمَـارَ كنقبّـل فيـه بـفُمٍّ
لـبّسُـونى الـغـلا لَهُ وافتـلوا للـرقص كُـمّى
أَىّ غـنّـوا يَرقُص الشَّيْخ ها ذا هُو ثَنَا [١] يرقّص

السياق الذى مهد به ابن قزمان لهذه المقطوعة هو سياق الشكوى المريرة من الفقر ، فهو لا يجد فى بيته لقمة أو دقيقاً أو نقطة من زيت أو حطيبه ، فهو بيت خاو يفتقر إلى كل شىء ، وكلمة (يا بياض) فى هذا الموضع وفى غيره من المواضع التى استخدم فيها تدل على البهجة وتعبر عن الحظ الحسن . فكأنها تقابل فى العربية صيغة (ما أسعده) أو (أسعد به) وكذلك لفظ (يا عَلَى) تقال للتمنى والاشتهاء فى العامية الأندلسية فكأنها تقابل (كم أشتهى !) .

وبناء على شكوى ابن قزمان نفهم أنه يقول فى النصف الأول ما معناه (ما أسعد بيتاً فيه المال والغنى) وفى النصف الثانى (ليتنى أملك مثل هذا) .

---

(١) رسمت هُ وَثْناً — وأصلحها الأستاذ جارثيا .

وفى حدود الرسم المكتوب — ما دمنا نحسن الظن بالناسخ ونفترض فيه أمانة النقل حسب طاقته — نقترح أن يكون لفظ (أمٍّ) فى الموضعين هو (Ome) الذى هو الرسم القديم للفظ الاسبانى الحالى Hombre [1] والذى معناه (رَجُل) وأن ما بعد Ome صفة تفيد الغنى أو الملكية . ونقترح أن تكون من bene وهى مادة متسعة فى الاسبانية ومنها حالياً bienes [2] أى أملاك . فإذا أضفنا لفظ (a) باعتبـاره يقابل (Ha) من الفعـل Haber - Aver [2] والذى كان قديماً يفيد الملكية مثل Tener كان الرسم (يا بياض بيت أم أَبني — Ome a bene) فإن صح هذا التخريج كان التصحيف محدوداً جداً وهو سقوط النون من (أبى) .

فإذا انتقلنا إلى النصف الثاني افترضنا تصحيفاً آخر هو أن لفظ (انا) إنما هو Ese أو E(s)te الاسبانية والتى معنـاها (هذا) وتصبح الجملة (ليتنى كنت اسا أو اتّا أمّ — Ette Ome) أى (ليتني كنت ذلك الرجـل) .

إن المسألة أقرب لأن تكون رياضة عقليـة أو تلاعبـاً أمام لغز . ولكن من يدرى ؟ لعلها تفتح طريقاً لحل أصح وأفضل .

أما عن لفظ (نمار) فى الفقرة الثانية فلم أجده فى مكان آخر على كثرة التفتيش ، ولم أعرف المعنى المراد . وإن كان المفترض أن يكون إما ثغر المعشوق أو شفة الكأس أو كيس النقود . فليس لابن قزمان غير هذه المطالب الثلاثه .

---

(١) من اللاتينية Homo — ولا يزال فى القطلونيـة Ome وفى الفرنسية Homme — انظر Mayer - Lűbke رقم ٤١٧٠

(٢) جاء فى ديوان قسيس هيتا (tenía bien) بمعنى امتلاك الثروة (انظر J. M. Aguado — فى معجمه على خوان رويث . ص ٢٦٦ — وانظر أيضـاً ص ٢٥٣ حيث يتحدث عن استعمال الفعل aver وعليه اعتمدنا .

ولا أحسب أن التصحيف يبلغ الحد الذى تكون فيه الكلمة (فُمْ طَنْجَهارا) فهى وإن استقام بها الوزن والمعنى ، لأن الطنجهار[1] من أوعية الخمر ، إلا أن سقوط الطـاء والنون (طن) حتى لو كتبت منفصلة عن بقية الكلمة مما يصعب افتراضه .

(١) الكلمة من أصل فارسى — انظر معجم دوزى ج ٢ ص ٣٠ — وقد جاءت الكلمة عند ابن قزمان فى أكثر من موضع الزجل ٧١ ، ٧٤ — وذكرها ابن هشام اللخمى وجعل صواب نطقها (طرجهاره) وقال : قدح يكون من نحاس (المخطوط ورقة ٤٩) .

٢١

فى الزجل ٥٠

جاءت فقرة الختام فى هذا الزجل على هذه الصورة :

لو رَأيت حَبيبـك مَـيِّت بهواك
لس يحب قلبُ فى الدنيـا سواك
(ميتان ذى بشك) لو انّ نراك
ولو انّ قلبك يَكون مِن حَديد

وقد أثبت الأستاذ نيكل ما بين القوسين كما هو ، ولم ير فيه ما يستلزم تغييراً . وإنما ضبط (ميتان) بتشديد الياء لتكون مثنى (ميّت) . وأبقى (ذى) كما هى ، وكتب (بشك) بكسر الباء جاعلا منها حرف جر يدخل على لفظ (شكّ) التى سكنت كافها . ثم ترجم هذه المقطوعة — دون سائر مقطوعات الزجل — بما يفيد أن المعنى المراد هو ، أن المحبوب ، لو رأى ما وصل إليه حال محبّه من سوء ، لمـات بغير شك ، ولأصبح هنـالك ميّتان ، هما المحب والمحبوب ، لا ميت واحد .

أما الأستاذ جارثيـا فقد رسم هذا الجزء من الفقرة على هذه الصورة (نَمُتّانى ، لا شَك) وترجمها بما يفهم منه أنه أراد الفعل (مَتّ) وكأن المعنى عنده ، أن المحبوب لو رأى سوء حال محبه (لوصله — متّ إليه — بغير شك) .

ونحن نخالف الأستاذين فيما ذهبـا إليه . واعتراضنا على الأستاذ نيكل أنه ثنى (ميت) بالألف والعامية تلتزم الياء فى المثنى ، ثم لأنه جعل كلمة (ذى) بغير وظيفة ، ولم يقدم أداة نفى تدخل على لفظ (شك) ليفيد التأكيد ، فضلا عن المبالغة غير السائغة فى المعنى ، وأما اعتراضنا على الأستاذ جارثيا فهو أنه تصرف فى تغيير النص تصرفـاً لا يتفق واحتمالات التصحيف والتحريف عند النساخ ،

خاصة حين يكون النص عربياً لا أعجمياً . فضلا عن غرابة صيغة (نمتانى — أو حتى — تمتانى) رسماً واستعمالا فى هذا الموضع .

واعتقد أن الجملة تستقيم لفظاً ومعنى فى حدود رسم كلماتها فى الأصل المخطوط ، إذا قدر أنها جملة أعجمية ، هى حسب رسم الكلمات فى الاسبانية الحديثة : mañana de pascua وترجمتها : يوم عيد ، أو ، صباح عيد . وبذلك يكون معنى الكلام هو أن رؤية المحبوب بمثابة العيد عند المحب . وهو معنى مألوف عند ابن قزمان ، يشهد بذلك ما جاء فى المقطوعة ٧ من زجل ٣٤

يومَ ان نزورك أنا فعيد

وإذن فرسم النص الذى بين أيدينا هو « مَنْيانَ ذِى بَشْكَ » وهو لا يختلف عما ورد فى المخطوط إلا فى نقط الكلمة الأولى فقط ، حيث ينبغى حذف نقطة واحدة من أعلاها وتقديم الأخرى لتكون على السن الأول . وهو تغيير هين جداً .

ولفظ mañana الذى جاء هنا ، قد ورد فى خرجتين لموشحتين أندلسيتين ، أما الأولى فهى لأبى محمد اللاردى ، ورسم هنالك (منيانا) ، وأما الثانية فهى لأبى العباس التطيلى ، ورسم (منيانه)[١] . والكلمة لاتينية الأصل ، وهى فى الاسبانية تفيد معنى الصباح ، كما تفيد أيضاً معنى الغد . والمعنى الأول هو المراد في نص ابن قزمان .

أما لفظ Pascua فقد ورد أيضاً فى خرجة أعجمية من موشحة لابن بقى ، ورسم هنالك (بشكه)[٢] — وهو أيضاً لاتينى الأصل ، وهو يطلق على عيد

---

(١) انظرجارثيا جومث : الخرجات الرومانسية رقم ١٧ ، ١٩ . الرسم حسبما قرأته ودونته من مخطوط ابن بشرى ص ١٤٣ (منيانا) وص ١٧١ (منيانه) . حين تفضل الأستاذ جورج كولان مشكوراً فأطلعنى عليه أثناء لقائى له فى باريس سنة ١٩٥٠

(٢) نفس المرجع ص ١٣٠ موشحة ١٢

الفصح أو القيامة عند المسيحيين . وقد ورد اللفظ فى معجم Alcala ص ٣٤٣ وترجمه (عيد — موسم) .

أما لفظ (ذى) فهو de فى الاسبانية وهو أداة الإضافة . ونحن نفضل أن يقرأ ما بعد الجملة الأعجمية (لو أنَّ يَراك) بدلا من (انِّ نراك) كما رسمت فى الأصل .

والإشكال الوحيد الذى يمكن أن يثار حول المقطوعة كلها هو أن جواب (لو) الأولى لم يرد فى النص ظاهراً . ولكن من المعروف أن حذف جواب (لو) لدلالة المعنى عليه جائز فى اللغة العربية ، ويستشهد النحاة على ذلك بالاستعمال القرآنى(١) . واعتقد أن الأمر كذلك عند ابن قزمان . ويحضرنى الآن ما ورد فى الزجل ٧ المقطوعة ١٣

لو جعلك الله ترانى بنرزق . . . الخ

فقد أضمر الزجال الجواب هنالك ، كما أضمره هنا ، وتقديره فى الحالين : لعطفت ورحمت .

ولا أستطيع أن أترك هذا الزجل دون وقفة أخرى عند موضع فيه ، ربما كان أعجمى اللفظ ، وإن أكن غير واثق من ذلك . هو ما جاء فى المقطوعة ٥ من قوله :

مَن رأى مليحَ بحـال الهلال
كُنُفاج بعين من تحت الدلال

لقد قدر الأستاذ جارثيا أن لفظ (كنفاج) مصحف وصحته (كتُفَّاح) على أساس أن الزجال يشبه وجه المحبوب بالتفاحة . وربما كان الأستاذ مصيباً فيما قدر .

---

(١) تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسى — سورة الرعد — آية « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . . . »

ولكننى متردد فى قبول هذه القراءة لسببين : الأول أن تشبيه الوجه بالتفاحة ، وإن يكن مألوفاً فى الآداب الأوربية فهو غير مألوف — حسبما أعلم — فى الأدب العربى . وإنما يشبه فيه الخد والنهد بالتفاحة ، لا الوجه كله كما هو المقصود هنا فى نص ابن قزمان ، لأن قوله « من تحت الدلال » — والدلال هو مقدم شعر الرأس أى الناصية[١] — يفيد أنه أراد الوجه كله أو الجبين إذا أريد تخصيصاً . يضاف إلى هذا أن اللفظ ما دامت الحاء ساكنة سيفيد الجمع لا المفرد . الثانى أن تشبيه المليحة بالهلال (بحال الهلال) فى الفقرة الأولى يجعل التشبيه الثانى مسبوقاً بكاف التشبيه دون ذكر المشبه ، غير سائغ تماماً ، حين يراد به الوجه ، إذ الأقرب أن يعود التشبيه إلى لفظ (المليحة) ، إلا أن توضع كلمة (ما تحت) بدلا من (من تحت) .

لذلك يخطر ببالى أن يكون صحة رسم الكلمة (كيفاجِ) وأنها الجملة الاسبانية ¡qué Faz! المؤلفة من أداة التعجب (qué) متلوة بلفظ (Faz) أى (وجه) وتكون ترجمتها (أىّ وجه !) أو (ما أجمله من وجه) . على أن تكسر الجيم لئلا يسقط مقطع فيختل الوزن . وقد عرضنا لكلمة (فاج) من قبل . ونضيف أنها وردت فى الخرجه الأعجمية التى أشرنا إليها من قبل[٢] وأن الوزن هنالك يستلزم كسر الجيم .

وبعد — فإذا صح هذا الافتراض وكان اللفظ هنا هو (كيفاجِ) الأعجمى ، فهل يمكن أن تكون كلمة (بعينى) أيضاً مصحفة ، وأن يكون صوابها كلمة أعجمية أخرى هى كلمة bonita التى ترجمتها (جميلة) — اللفظ Faz مؤنث فى الإسبانية — ليكون الرسم (بُنِيتَى)[٣] ولتكون الترجمة (أى وجه جميل من تحت الدلال !) ؟ فيستقيم السياق لفظاً ومعنى ؟ ربما .

---

(١) انظر معجم دوزى ج ١ ص ٤٥٥

(٢) انظر الخرجات الرومانسية . الموشحة رقم ١٧ ص ١٦٥ ورقم ١٩ ص ١٧٩

(٣) استعمل ابن قزمان لفظ (بون bono) فى أكثر من موضع . انظر الجزء الثالث ص ٤٩٩ من نشرة جارثيا جومث للديوان . و bonita تصغير هذا فى الاسبانية وهو تصغير للتمليح .

٢٢

فى الزجل ١٦

المقطوعة الأولى من هذا الزجل جاءت :

مَن أكل مِن ذا العنب عنقود ، فقـد ظَلَمَ
إنمـا هُو عنـدى المحمـود ، شُرب الأثَمِ
بعد ما كان الشراب موجود ، قد صار عَدَم
ورجـع لضو بريق ، أرّ بـاعا نلحقُ
إن وقع (وبيل) فى يدى ، لس نطلقُ

والمسألة هنا تتصل بهذه الكلمة التى رسمت (وبيل) دون أن ينقط الحرف الثانى منها . وقد قرأها الأستاذ نيكل (وبيل) مقدراً أنها من مادة (وبـل) العربيـة التى منها (الوابـل) بمعنى المطر . وهذا تخريج لا نراه مقبولا . وقد قرأها الأستاذ جارثيا (ونيل) من الفعل (نال) العربى بالبناء للمجهول ، ولهذا التخريج وجه .

ونحن نرجح أن اللفظ أعجمى ، وأن رسمه (رُبيلٌ) بالراء المضمومة ، لا الواو ، وبالباء وأنه تصغير اللفظ الاسبـانى rubio وترجمته (أشقر) والتصغير rubello وترجمته (أشيقر) وأنه يريد باللفظ الخمر وكأنه جسّد الخمر شخصاً أشقر اللون ، وأنه يطارد هذا الشخص ، فإذا وقع فى يده فلن يطلقه . ومثل هذا الأسلوب محبب عند ابن قزمان ، وكثيراً ما يخاطب الجمـادات على هذه الصورة . وقوله (لس نطلقه) يؤيد هذا الافتراض ويشجع عليه ، بأكثر مما يشجع على افتراض الفعل (نيل) ولعله فضّـل استخدام اللفظ الأعجمى هنا متجنبـاً لفظ (أشقر وأشيقر) لأنه اعتاد أن يصف الدينـار بهذا اللفظ العربي (١) . ويؤيد فكرة

(١) وصف الدينار بالأشقر تجده فى الأزجال ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٦

المطـاردة التى تستلزم هذا التشخيص قوله قبـل هذه الفقرة (أرّ باعا نلحق) فالزجال هنـا يحضُّ المخاطب على أن يسرع الخطو ليلحق هذا البريق الذى هو الخمر . و (أرّ) بمعنى (هات)[١] ولفظ (باع)[٢] هنـا بمعنى الخطو الواسع .

ونشير هنـا إلى أن وصف الشراب بأنه كان موجوداً ثم صار عدما ، لا يقصد به اختفاؤه من الأسواق أو غلاؤه وتعذّر الحصول عليه[٣] . وإنما المراد به وصف الخمر بالعتق ، وأنها لفرط رقتها وشفافيتها قد تحولت من سائل له قوام مادى إلى ما يشبه الروح . وهو معنى تداوله الشعراء العرب . ولعل أقرب ما يناسب هذا السياق قول أحدهم :

ما كدت أدركها لرقـة جسمها   لولا أشعـة نورهـا المتوقد[٤]

وقد أكثر الصوفية من تداول هذه الفكرة فى رمزيتهم للخمر . واشتهر قول ابن الفارض عنها :

صفـاء ولا ماء ولطف ولا هوا   ونور ولا نار وروح ولا جسم

أما عن مشكـلة الوزن فى الفقرة (ورجع لضو بريق) فنعتقد أن القراءة التى ربما يستقيم بها الوزن والمعنى هى (ورَجَعْ الضَّوْ بريق)[٥] لتكون الفقرة من سبعة مقاطع مثل سائر الفقرات التى تقابلها — بدلا من أن تكون ثمانية حين تقرأ (لضوُّ) أى لضوئه — وكأن المعنى عند ابن قزمان أن الشراب

---

(١) انظر الجزء الثالث ص ٤٦٢ من نشرة الأستاذ جارثيا للديوان حيث ناقش هذا اللفظ هنالك . ومع علمه هذا أصلح (أر) فى النص إلى (مد) . وليس ما يدعو إلى هذا .

(٢) نص الزبيدى فى لحن العامة على هذا الاستخدام بين الأندلسيين — انظر تحقيق د. عبد العزيز مطر لنص الزبيدى ص ٢٣٢ — الكويت ١٩٦٨ . وانظر له أيضـاً : الرد على الزبيدى — مجلة معهد المخطوطات العربية — القاهرة نوفمبر ١٩٦٦ . وكذلك نص .Alc على هذا المعنى ص ٣٦٠ ، ٣٤٤ .

(٣) إلى هذا المعنى ذهب الأستاذ جارثيا فى ترجمته المقطوعة حسبما فهمت من الترجمة .

(٤) انظر حلبة الكميت لشمس الدين النواجى ص ١٠٤ — القاهرة ١٢٧٦ هـ .

(٥) لم تنقط باء (بريق) فى الأصل وقرأها الأستاذ نيكل ثم الأستاذ جارثيا (يريق) والوزن يحتمل ايضاً (ورجع للضو بريق) .

وقد كان موجوداً فصار عدماً ، كذلك الضوء صار ريقاً . وهو إمعان فى وصف الخمر بالرقة والشفافية : ولعل ابن قزمان سابق فى ا المعنى ، حين يجعل البريق درجة أعلى يتحول إليها الضوء .

ونحن نؤثر أن نبقى كلمة (أثم) أى الأثم ا الزجال على الخمر مستعملا وجهة نظر المتدينين على وجه التهكم طبعاً ، بدل تغييرها إلى لفظ (المدام) كما فعل الأستاذ جارثيا ، لبعد الرسم بين تين بما يجعل التصحيف بعيد الاحتمال .

بقى أن نتساءل هل تضبط (رُبيلّ) بكس اء rubello أو بتسكينها rubiello فإذا كسرت سكنت الياء وإذا سكن ت الياء ؟ والوزن لا يختل بكلتا القراءتين . وربما كانت الاسبانية الحديثة إلى تصغير هذا اللفظ فى صورة rubito ولكن رومانسية تلك العصور نت تألف علامة (ello) للتصغير كثيراً . وقد صغرت بهذه العلامة كلمات عربية كثيرة . أقربها لفظ (شقرلّه) الذى ورد فى موشحة عربية ذات خرجة مختلطة اللغة (١) ولفظ rubio لاتينى الأصل (٢) .

---

(١) انظر الخرجات الرومانسية ص ١٤٤

(٢) انظر *Meyer - Lübke* رقم ٧٤٠٨

٢٣
فى الزجل ٨٣

هذا الزجل فى رثاء ابن حمدين قاضى قرطبة . وقد تعرضنا من قبل لإحدى مقطوعاته ، وهى الثامنة ، حيث وردت لفظ (البربلية) . ونتعرض هنا للمقطوعة ١٢ ونصها :

ضاعت السُنَّه فأصبح الإسلام
كلٌّ رُنْبيطُ لا طوق ولا أكمام
منقوض (البتات) لس فيه وصلاتام
وَارَى أو مُقْدَم لس فيه ما يرقع

أما عن لفظ (رنبيط) فى الفقرة الثانية ، وأنها أعجمية هى rompido فى الإسبانية الحديثة ، ومعناها الممزّق ، فقد اكتشفت من قبل[1] .

أما الذى لم يكتشف فهو الكلمة الثانية فى الفقرة الثالثة . وقد رسم نيكل هذه الكلمة (البَتّتات) ولم يترجم الفقرة . أما جارثيا فقد قرأها (المتات) فجعلها من الأصل العربى (مَتّ يمتّ) .

ونحن نرى أن الكلمة غير عربية ، وأن رسمها الصحيح هو (البُنْتات) ، وأنها هى الكلمة الأعجمية التى ترسم فى الاسبانية الحديثة puntada وترجمتها (الغُرْزة) فى اصطلاح الخياطين ، أو ما بين الغرزتين ، أو الخيط الواصل بينهما . هكذا شرح معانيها معجم الأكاديمية وجعلها من لفظ punta الذى هو من الأصل اللاتينى puncta .

---

(١) انظر جارثيا جومث ، الديوان ج ٣ ص ٤٢٦

وفى معجم القالا ص ٣٥٩ وردت الكلمتان (puntada - punta) وترجمتهما (غُرْزَة — غُرَز) ثم ذكر العبارة puntado de costura وترجمها (غرزة) .

وليس من شك فى أن الفعل العربى (نقض — منقوض) فى نفس الفقرة يناسب تماماً ما معناه (الغرزة) بما لا يتحقق فى لفظ (المتات) الذى أخذ به جارثيا . فضلا عن أن رسم الكلمة فى الأصل يشجع على افتراض هذه القراءة . يضاف إلى ذلك أن ورود لفظ أعجمى فى نفس المقطوعة ، واتصال هذه الحرفة ، أى الحياكة ، بعمل النساء ، يجعل ذهن الزجال يتجه إلى هذا اللفظ الأعجمى .

ودون أن نتعرض هنا للأسباب التى تجعل ابن قزمان يستخدم لفظاً أعجمياً ، على حين أن له مقابلا عربياً شائعاً ، نذكر أن ألفاظاً كثيرة مما تستخدم فى الشئون المنزلية وفى المهن النسائية ، وردت بألفاظها الأعجمية فى العامية الأندلسية ، وقد سجل ابن هشام اللخمى فى لحن العامة بعض هذه الألفاظ ، مثل فيجه faja وببطير babadero وهما عنده تقابلان اللفافة والبُخْنق[1] . وكذلك تعتبر لفظ (البنتات) هنا .

ونعود إلى لفظ (بُنْتَات) الذى اقترحناه . ونتساءل هل هو جمع punta على صيغة جمع الاناث فى العربية (ات) أو هو مفرد ، وهو رسم puntado مع حذف الضمة (o) وتحويل حرف d الاسبانى إلى t وهى قاعدة صوتية معروفة فى اللهجة الأندلسية ؟ صيغة النص هنا تحتمل التفسيرين .

---

(١) انظر عبد العزيز الأهوانى : ألفاظ مغربية — ص ٢٠ ، ٥٠ (القاهرة ١٩٥٧) .

٢٤
فى الزجل ١٢

يصف ابن قزمان فى هذا الزجل ليلة من ليالى اللهو ، فيها شراب ورقص وغناء ، وفيها رجال ونساء . ونص المقطوعة الثالثة منه هى :

قَرَويــكم واقف[١] ، المــلاعب هُزّو
ومن اسقط نَـغْمَ ، فالمحــاجم زُزّ
زُهْرَ مريم عَيْش ، أينــكم اهتزّو
ولولوا (فجبش) بالذى يهديــكم

والمعنى الإجمالى للمقطوعة واضح . ولفظ (القروى) يبدو أن المقصود به الراقص أو المغنى . ولعله نسبة إلى القيروان ، لا القرية ، باعتبار شهرة هذه المدينة الافريقية بأنواع من المهارة فى الفنون . وكان لها مثــل هذه الشهرة عند الأندلسيين .

أما لفظ المحاجم — وهو فى اللهجة المصرية المحاشم — فالمراد بها غالبــاً المواضع الحساسة من جسم الإنسان . وأما الزر فهو اللكم فى لغة الأندلسيين والمغاربة ، والولولة صياح الفرح خلافــاً لمعنى الكلمة على أقلام الكتاب العرب المحدثين .

وإنما المشكلة فى الكلمة الثانية من الفقرة الأخيرة . فرسمها المثبت فى الأصل لا يفيد معنى ، بما يحتم أن يكون محرفاً عن لفظ عربى أو أعجمى .

وقد رسمها نيكل (فَخَيْبَش) ولم نعرف ما ذا فهم منها . أما جارثيا فقد رسم الفقرة هكذا :

---

(١) رسمت فى المخطوط بثلاث نقاط فوق القاف .

[و] ولولوا فالشيخ ، الذى يهديكم

وأحال إلى الزجل ١٤٣ المقطوعة الثانية[١] . ونص الفقرة المحال إليها .

حرز الله إبليس[٢] ، الذى يهديكم

وقد أداه اشتراك الفقرتين فى جملة (الذى يهديكم) إلى هذا الاجتهاد . فجعل لفظ الشيخ هنالك و (فالشيخ) هنا ، ولا نجد مبرراً لهذا التصرف كله ، هنا أو هنالك .

فالباء الداخلة على الاسم الموصول هنا (بالذى) هى باء القسم ، والعبارة كاملة فى غير حاجة إلى تعديل ، ومعناها « اقسم عليكم بالذى يهديكم أن تولولوا » أما كون هذا الذى يهديهم ويقسم عليهم به هو الله أو القروى أو إبليس فليس بضرورى أن يظهر لفظا . والإضمار هنا أبلغ .

ونحن نرى أن هذه الكلمة الغامضة متصلة المعنى بفعل (ولولوا) لا بجملة القسم . ويخيل إلىّ أننا أمام اللفظ الأعجمى الذى هو فى الإسبانية الحديثة conjuntas والذى ترجمته (جميعاً أو معاً) فكأن الزجال يأمر الفتيات الثلاث زهرة ومريم وعائشة أن يغنين معاً مجتمعات أى فى صوت واحد . ونحسب أن الكلمة بهذا المعنى تناسب سياق الغناء مناسبة كاملة .

فلو سلمنا بصحة هذا الافتراض ، ورسمنا الكلمة الأعجمية فى حروف عربية لكانت (قُنْجُنْتَش) ولا أحسب أن هذا الرسم يبعد كثيراً عن الرسم الحالى (فجبيش) ولعله لا يتجاوز النقط فقط إذا قدرنا أنه فى الحديث العامى اليومى

---

(١) أحال أيضاً نيكل فى تعليقاته على الزجل المذكور ص ٤٤٧

(٢) وهنا أيضاً أبدل جارثيا لفظ (إبليس) بلفظ (الشيخ) مستكثراً على ابن قزمان أن يدعو لإبليس بأن يحرس ، لما في ذلك من صريح الكفر ، ولا نشاركه فى هذا التحرج بالنسبة للشعراء فى مجال العبث .

ربما سقط حرف (n) فصارت cojuntas . وكثيراً ما تسقط هذه النون . والكلمة الاسبانية لاتينية الأصل coniunctus . وبهذا الرسم يستقيم الوزن ، ويسلم الرسم ، ويتم المعنى .

وقد خطر لى من قبل أن تكون الكلمة مؤلفة من فعل facer ومن لفظ voz الاسبانيين ، ليتألف منهما ما معناه (صوتوا) facen voz وكأنها تكرار بالأعجميــة للفظ العربى (ولولوا) ولكن تصفح الكلمتين فى المعاجم الاسبانيــة واستعمالاتهما لا تشجع على هذا الافتراض .

٢٥

فى الزجل ٤١

يقدم الزجال شكره للقائد المرابطى محمد بن سير ، لأنه أنقذه من السجن ، فيقول فى المقطوعة العاشرة ما نصه :

كل سيِّد ومولى ، اتّ هُ مَولا وسِيدُ
ونَعيمُ وعِزٌّ ، وبرورُ وعيـــدُ
والذى لا تريدُ ، (ياشِ) لَسٌّ نَريدُ
ولّى من شيت واعزل ، حلّ من[1] شيت واعقد

يخيل إلىّ أن عبارة (ياشِ) هذه تشتمل على أداة النداء أو التنبيه أو التأكيد (يا) التى كثر استعمالها فى النصوص العامية الأندلسية والتى توجد أيضاً فى الاسبانية ya بما يقرب من معنى استعمالها الأندلسى العامى[2] ، كما تشتمل على الكلمة الاسبانية sí التى ترجمتها فى العربية (نعم) أو (بَلَى) .

ودخول (يا) على لفظ (نعم) شائع فى العامية المصرية ، وأحسبه فى غيرها أيضاً من العاميات العربية ، للدلالة على الزيادة فى الطاعة والتحبب (يا نعم) .

وأحسب أن هذا التخريج يعفينا من التصرف الواسع الذى لجأ إليه الأستاذ جارثيا حين قرأ النص ، ليكون مفهوماً ، على هذه الصورة .

والذى لس تريد ، لا سـ[يدى] لس نريد

ولعل الإشكال يتركز حول استعمال لفظ النفى (لا) والإيجاب (نعم) فى العربية والاسبانية ، فالاستعمال فى اللغات الأوربية بعامة ، أن الجملة إذا كانت

---

(١) كذا بالأصل وأحسب صوابها (ما)
(٢) عقد الأستاذ جارثيا فصلا عن (يا) هذه وناقش استعمالاتها فى الجزء الثالث من نشرته لديوان ابن قزمان ص ٣٤٢

منفية ، مثلما هى هنا (لسُّ نريدُ) ، تتقدم عليها أداة النفى no . وفى العربية ، وخاصة العاميات تستخدم (نعم أو ما فى) معناها فى مثل هذه المواضع أحياناً[1] .

وربما كنا أمام نفس القضية فى نص آخر هو المقطوعة الأولى من الزجل ٣٦ من ديوان ابن قزمان ، ونصه :

ان تاه حبيب أو هجر ماعِ (بش)
ولس نقول فى قُطوع قلبى لَشّ ؟
يا قوم انا دلّتو حتى أَشْ ؟
فمُ وعينيه الملاح دلَّلُ

فلست أستبعد أن تكون (بَشْ) هذه مصحفة عن (يش) أى (ياش) سكنت شينها للوزن وخطفت (يا) أيضاً . وكأن معنى الجملة الأخيرة من الفقرة الأولى (ماع ياش) تقابل فى الاسبانية tengo: ya sí دلالة على عدم الاعتراض فى حالة هجر الحبيب وتيهه ، والصبر على تحمل ظلم الحبيب ونزواته . وهذا هو المعنى أيضاً فى الفقرة الثانية ، أى أن الزجال لن يتساءل حين يقطع الحبيب قلبه قائلا (لماذا ؟) أى (لأى شىء ؟) وينفى الزجال فى الفقرة الثالثة أنه كان السبب فيما عليه الحبيب من دلال ، نفياً خرج فى صيغة استفهام إنكارى . ويقول إن مصدر دلال الحبيب هو جمال فمه وعينيه وثقته الكاملة أو غروره بما هو عليه من ملاحة .

---

(١) القضية تحتاج إلى دراسة ، تدخل فيها كلمة (بلى) العربية . وكلمات oui و si فى اللغات الرومانسية .

٣٦

فى الزجل ٢٠

هذا الزجـل العشرون أوفر الأزجال استخداماً للألفـاظ الأعجمية . وقد وقف الأستاذ جارثيـا فيه عند أحد عشر موضعـاً . ونقف الآن عند موضع آخر نرجح أن يكون لفظه أعجمياً . وهى المقطوعة ٢٨ حيث يثنى الزجال على مروءة ممدوحه ، ومشاركته الناس فى أفراحهم وأحزانهم . ونص المقطوعـة :

ان رآك مفروح يـفرح بسرورك
أو رآك مهموم يسعى فى أمورك
أو سمـع منـك آه يجى ويزورك
ثم يدعـو لك الله (ستـارى)

ففى النفس شىء من كلمة (ستارى) هذه من حيث الصياغة . فهى حين يراد أن تكون بمعنى (سرّا) يفترض أنها مشتقة من الفعل (ستر) فهل يصوغون منها (ستارى) ؟ أشك فى هذا . ثم هـل تكون من حيث المعنى مؤدية لوظيفتها فى السياق ؟ إن الدعاء لمريض يشكو ، يقول (آه !) يعوده الممدوح ، فهل يكون الدعاء له سراً دون علانية أبلغ فى أداء المراد ؟ .

أحسب أن الكلمة هى (سَنارى) بالنون وأنها هى الفعل الأعجمى sanare فى الاسبانية الحديثـة sanar وهو مصدر فعـل (شفى يشفى) وكأن الترجمـة (يدعوا الله لك بالشفاء) أو (بأن تشفى) فإذا صح هذا الافتراض كان أقرب للسياق وأدل على المقصود فى زجل أكثر فيه الزجال من اقتباس الأفعال الأعجمية .

٢٧

فى الزجل ٨١

يشكو ابن قزمان فى هذا الزجل من الجوع القاتل فى أسلوب طريف حقاً. وقد جاءت المقطوعة الثانية منه على هذه الصورة :

أكلتُم لَحم وانا بلا شَىْ
نشمّ الشوَى ولس نرى شَىْ
قد صرت (مَلان) انى كنت ماشى
نطلب كفْ نحُرف على الفلالس

هذه الفقرة الثالثة تستوقف قارىء الديوان لسببين ، الأول أن لفظ (أنى) يزيد فى الوزن مقطعاً . وقد تغلب الأستاذ جارثيا على ذلك بأن قرأها (أنْ) وبها يستقيم الوزن . والثانى لفظ (ملان) وهل هى صحيحة الرسم ؟ رأى الأستاذ جارثيا غير ذلك فرسم الفقرة .

قد صرت لابد ، اَن كنت ماشى

وعندنا أنها صحيحة وأنها هى اللفظ الأعجمى الذى ورد فى ديوان ابن قزمان فى موضع آخر (زجل ١٠٥) وهو قوله هنالك :

فلس للأسد إلاّ ما يفترس
ولس للمَلان إلاّ ما يختطف

وقد نبه الدارسون من قبل إلى أن لفظ (ملان) هنا هى اسم لطائر من جوارح الطير هو فى الاسبانية الحديثة milano من اللاتينية المتأخرة milanus [(١)] .

---

(١) انظر جارثيا ديوان ابن قزمان جـ ٣ ص ٤٢٠ وقد أشار إلى سيمونت ٣٦٣ — وقد نبه الأستاذ نيكل من قبل إليها .

وهى نفس الكلمة فى زجلنا هذا ، بما يجعل الأمر لا يستلزم تغيير النص . يريد ابن قزمان أن يقول إنه لفرط جوعه وخلو منزله مما يؤكل سيتحول إلى (مَلان) يختطف الفراريج ويسطو عليها لكى يعيش ويسد رمقه . ونحسب أن لفظ (أنى) تكون أقرب للسياق لو قرئت (أى) بدلا من (أن) المقترحة ، لتكون تفسيراً لما قبلها .

وقوله (نحرف على الفلالس)[1] معناه نحتال ونفتش عليها لاختطافها ، وليست الفلالس هنا بمعنى الأطفال كما اعتقد الأستاذ جارثيا . وفرق بين (يحرف على) و (يحرف لِ) ويزكى المعنى المراد ويؤيده ، وأن الزجال يشير إلى الطائر المذكور ، أنه فى المقطوعة السابقة على هذه يقول :

النـاس للسَّميد وانـا لـكَسْره
تـرانى عليهـا فَـرْخ نَسْره
كـأنى أرى بجسمـى حَسْره
نَنْجَرّ[2] بالغُـدو ونِصْفِ ناعس

فقد شبه نفسه هنا بفرخ النسر ، بما يجعل لفظ (الملان) ماثلا فى ذهنه[*] .

عبد العزيز الأهوانى

---

(١) رسمت فى الأصل بما يوهم أنها قاف (القلالس) وقد أثبتها الأستاذ نيكل بالفاء ، وهو محق .

(٢) الكلمة (ننجر) من الفعل جر على صيغة انفعل . ونصف معناها نصفى مضافا إلى ياء المتكلم ، يريد أن جسمه قد أصابه الضعف حتى صار أحد نصفيه كالناعس أى العاجز أو المشلول ، ولا معنى لتغيير الكلمتين إلى (خبز) وإلى الفعل (صفا — نصفى) .

(*) أثناء طبع هذا القسم الأول من المقال سقط ترقيم عدد من حلقاته ؛ وهى الحلقات : ٨ ص (٢٠٠ — ٢٠١) ، ٩ ص (٢٠٢ — ٢٠٣) ، ١٠ ص (٢٠٤ — ٢٠٥) ، ١١ ص (٢٠٦ — ٢٠٨) ، ١٢ ص (٢٠٩ — ٢١١) ، ١٣ ص (٢١٢) ، ١٤ ص (٢١٣ — ٢١٤) .